رجال مجدهم الإسلام

تأليف

محمد سيف النصر حراز







إهـــداء

إلى أمى التى حملتنى بين حناياهـا ، وضمتنى بـين ضلوعها ، وسـقتنى بحنانها وغذتنى بلبانها ، فعشـت أنعم بكـل فضيلـة ، وأتمتع بحلو الحياة وطيبها ...

وإلى أبـى الـذى عـانى وقاسـى ، وكـافح وكـابد مـن أجـل أن يوفر لنا الحياة الهانئة فكانت...

إلى روحيهمـا الطـاهرتين أهـدى بـاكورة مـا أنتـج عقلـى وفكرى ، سائلا المولى أن يرحمهما كما ربيانى صغيرا ..

محمد

تقديم

الحمدلله يغفر لمن إليه أناب، وينزل بمن أصر على عصيانه أشد العذاب، أحمده على السراء والضراء، حمدا يوجب المزيد من النعماء، وأشكره أعز بالإسلام من آمن واستقام، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا ﴿ﷺ﴾ عبدا عبد الله ورسوله، بشر وأنذر، وبلغ رسالة ربه، وحذر صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأخيار..

أما بعد:

فالذى بين يدى سلسلة أطلق عليها مؤلفها ﴿**عظماء مجدهم الإسلام**﴾، وليس بين القضاة العادلين ولا المتكلمين الصادقين أعدل وأصدق من التاريخ؛ فإنه لا يعفو ولا يتسامح، ويقسو ولا يتهاون، يدون الصغيرة قبل الكبيرة، ويسجل الحسنة والسيئة، فهو السجل الدائم والحكم المهيب.

هذا وللتاريخ فى قصصه عبرة من ورائها النتائج الجمة، والفوائد العظيمة، والمواعظ القيمة..

فمن تقصى أخبار العادلين، وسير الصحابة والتابعين، ودرس أعمال الظالمين، ووعى عواقب الجبارين، وقارن بين الموقفين، أمكنه أن يعرف ما يختاره لنفسه.

ولقد قرأت الكتاب فوجدته عظيما عظمة هؤلاء المجاهدين، لكاتب عشق العلم وأهله، وانبرى فى البحث والاطلاع، حتى كانت

جرأته فى أن يحقق حياة هؤلاء الصحابة، أمثال سعد بن أبى وقاص، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وحمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، وسلمان الفارسى، وأبو سفيان، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو وغيرهم ممن كان لهم عظيم الأثر فى الإسلام.

وأرجو أن يكون هذا الجزء الذى بين أيدينا باكورة فى سلسلة يقوم الباحث بتحقيقها، وصياغتها بأسلوبه السهل الممتنع، نفع الله به الدين.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور

على محمد رمضان

أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر - بالإسكندرية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق فسوى، وقدر فهدى، خلق الخلق بقدرته، وسواهم بعلمه ونوره، وهداهم إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وإماما للمرسلين، وقائدا للغر المحجلين ﴿ﷺ﴾، ورضى الله تبارك وتعالى عن أصحابه الطيبين الطاهرين، السادة الأتقياء، البررة الأوفياء، من أنزل الله فيهم قرآنا يتلى حيث قال تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1].

أما بعد:

فما أجمل أن يسترجع المسلم تاريخ صحابة رسول الله ﴿ﷺ﴾؛ ليتخذ منه زادا قويا، ونبراسا يقتدى به، وخاصة، ونحن نعيش فى عصر غلبت عليه النزعة المادية، وغابت أو كادت تغيب فيه النزعة الروحية التي أرسى دعائمها محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾، فتقطعت الصلات، وفسدت العلاقات، وهجر الأخ أخاه، وتقطعت الأرحام، فأردت أن أقدم لكل أخ مسلم نموذجا لما كان عليه صحابة رسول الله ﴿ﷺ﴾ من حب ومودة وفداء وتفان؛ من أجل السمو الأخوى القائم على الحب في الله وإلى الله ولله..

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

فاقتطفت من رياض التاريخ الإسلامي زهرات معدودة لبعض أصحاب النبي ﴿ﷺ﴾، كان لهم بعد إسلامهم أعظم الأثر في تاريخ الإسلام وحياة المسلمين..

فصحف كل واحد من الصحبة الخيرة التي وقع عليها اختياري تنطق بالتضحية والإيمان والإخلاص لله أولا ثم لرسوله ﴿ﷺ﴾ وللإسلام والمسلمين..

وقد اخترت لهذه السلسلة اسم: ﴿عظماء مجدهم الإسلام﴾ آملا أن يجد فيه الأخ المسلم ما يعينه على مواصلة رحلة الحب والمودة لإخوانه المسلمين، وزاداً يتزود به في هذه الحياة الفانية..

سائلا المولى جلت قدرته أن يمدني بعون منه وتوفيق.

رب لا تخزني فإنه لا قدرة لي إلا بتوفيقك..

فلك الفضل وحدك لا شريك لك..

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(1).

رشيد في ١٨ من جمادى الآخرة ١٤١٩هـ

٩ من أكتوبر ١٩٩٨ م

محمد سيف النصر حراز

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

سلمان الفارسي

(رضي الله عنه)

(سلمان منا آل البيت)

(محمد رسول الله ﷺ)

«رواه الحاكم في معرفة الصحابة

(٣/٦٥٣٩)»

سلمان الفارسي

(رضي الله عنه)

نسبه:

هو مابه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوزان بن فيروز بن سهرك من ولد آب الملك[1].

ولما أسلم سماه رسول الله ﴿ﷺ﴾ بسلمان الخير، وعرف بسلمان الفارسى، إذاً هو سلمان ابن الإسلام أبو عبد الله.

صفته:

كان سلمان رضى الله عنه رجلاً طويل الساقين، كثير الشعر، قوى البنية، قوى الساعدين، حاد الذكاء.

حياته:

كانت بلاد فارس فى أواخر القرن الخامس الميلادى تسبح فى ظلمات الجهل والظلم، فأرادت أن تنظم التعامل الإنسانى، وتحل مشكلة أصل الوجود بأوهام توهموها، وأساطير اكتتبوها، فألفوا مذاهب كثيرة، كان منها -الزرادشتية- وهذا المذهب يفرض أن للوجود إلهين، إله للخير، وإله للشر، وأن كليهما يتنازع النفس الإنسانية والكون وما فيه.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/٣١٧.

ثم يظهر بجوار ذلك المذهب مذهباً اجتماعياً خطيراً يدعو إلى القوة، وإنه لا عبرة بالضعفاء، وإنهم لا يصلحون للبقاء، فالحق مع القوى، والباطل مع الضعيف، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء، ويجب أن يبقى الأقوياء، وأن يُفنى الضعفاء، فلا إيمان بالعدل، وإنما الإيمان بالقوة والجبروت.

ويعلو هذه المذاهب المذهب المخرب -مزدك- الذى يحل الوحدة الإنسانية، والعلاقة الفاضلة، الذى انتشر فى فارس، وأساسه إباحة النساء، فلا زواج ولا ارتباط، بل يسافد[1] الإنسان كما يسافد الحيوان من غير أى قيد من رابطة حافظة للأنساب، وراعية للطفولة المقبلة.

كما أباح الأموال؛ فلا ملكية تحمى إنساناً من إنسان، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أى نظام، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء[2].

وسط هذا الجو الخانق العبثى الذى يثير الاشمئزاز يتنحى والد بطل قصتنا، ويأخذ طريقاً آخر بعيداً عن هذه الخزعبلات، ويتفرغ لضيعته وعبادته، ويأخذ بيد ولده ويقربه من معبودتهم النار.

فيجتهد الابن فى العبادة حتى يصبح قاطناً للنار التى هى أساس العقيدة الفارسية فى ذلك الوقت، وعمل على ألا يتركها تخبو ساعة فى ليل أو نهار..

ولم لا .. أليست هى إله فارس الذى يسجدون له ويشكرون؟!!

---

(١) المسافدة: المجامعة.

(٢) خاتم النبيين: ١/ ١٠-١١ بتصرف يسير.

سبحانك يا اللّه ... ما هذه العقول؟!

ولكن الأقدار السعيدة تنادى هذا القاطن من معبده، والعناية الربانية تلحظه وترعاه وتعده لأمر عظيم.

أتدرون عمن نتحدث؟

أتدرون من هو هذا القاطن فى معبده؟

لا تتعب نفسك عزيزى القارئ فى معرفته، إنه سلمان الفارسى، الذى دعاه رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بسلمان الخير، احفظوا اسمه جيداً، فإنه يحفر فى القلوب.

فهيا بنا نقترب منه فى خشوع وغبطة، ونسمع منه وهو يحدثنا عن رحلته الشاقة الطويلة المضنية، فى البحث عن النور المحمدى، فما أجمل أن يرويها بنفسه.

سلمان وأصل الحكاية:

يقول سلمان: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها جىّ[1]، وكان أبى دِهْقَانها[2] وكنت أحب خلق اللّه إليه، فلم يزل بى حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تُحبس الجارية.

فاجتهدت فى المجوسية حتى كنت قاطن النار التى كنا نعبدها، وقمت على إضرامها حتى لا تخبو ساعة فى ليلٍ أو نهار.

---

(١) اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة وتسمى الآن شهرستان.

(٢) دهقان: هو شيخ القرية وكبيرها.

وكان لأبى ضيعة عظيمة، تدرُ علينا غلّةً كبيرة، وكان أبى يقوم عليها ويجنى غلتها، فشغل فى بنيان له يوماً، فقال لى: يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى، فانطلق إلى الضيعة، وتول اليوم عنى شأنها، وأمرنى ببعض ما يريد، فخرجت.

ثم قال: يا ولدى لا تحتبس علىّ، فإنك إن احتبست علىّ كنت أهمَّ على من ضيعتى، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى بهمى بك...

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس بحبس أبى إياى فى بيتنا، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم، دخلت إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتنى صلواتهم، ورغبت فى أمرهم، وقلت: هذا واللّه خير من الدين الذى نحن عليه، فواللّه ما تركتهم حتى غربت الشمس.

وتركت ضيعةَ أبى، لا أنا أتيتُ الضيعة، ولا رجعت إليه، ثم إنى سألتهم: أين أصل هذا الدين؟

قالوا: بالشام.

سلمان يحاور أباه:

ثم رجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أى بنى أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟

قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم، فأعجبنى ما رأيت من دينهم، فواللّه ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا واللّه ، إنه لخير من ديننا ، فخاف أبى على مما أقول ، وخشى أن أرتد عن دينى ، فحاورنى ، وحاورته ، حتى حبسنى بالبيت ، ووضع قيداً فى رجلى .

سلمان يصمم على الرحيل :

وبعثت إلى النصارى فقلت : إذا قَدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى ، فأخبرونى بهم ..

فقدم عليهم ركب من الشام ، فأخبرونى بهم ، فقلت : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرحيل فأخبرونى ، ففعلوا فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام .

سلمان مع الأسقف السيئ :

فلما قدمتُها ، قلت : مَنْ أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا : الأسقف فى الكنيسة ، فجئته ، فقلت : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلى معك .

قال الأسقف : فادخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء ، يأمِرهم بالصدقة ، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً ، اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق[1] .

---

(١) الورق أى الفضة .

فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

قالوا: من أين عرفت هذا؟

قلت: أنا أدلكم على كنزه، وأريتهم موضع كنزه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة رجماً.

سلمان مع الأسقف الصالح:

ثم جاءوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً أزهد منه في الدنيا، ولا أرغب منه في الآخرة، ولا أدأب منه على العبادة ليلاً ونهاراً، ما أعلمني أحببت شيئاً قط قبله حبه.

فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت والله شيئاً قط حُبك، فما تأمرني؟ وإلى من توصيني؟ ومع من تنصحني أن أكون من بعدك؟

قال: يا بني والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي لم يحَّرف ولم يبدل فالحق به.

سلمان في الموصل:

فلما مات صاحبي وغيب، لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد..

فقلت له : إن فلاناً أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك؟

قال : فأقم أى بنـى ، فأقمت عنـده فوجدتـه على مثـل أمـر صاحبـه ، حتى حضرته الوفاة ، فقلت له : إن فلاناً أوصى بـى إليـك ، وقـد حضـرك من أمر اللّه ما ترى ، فإلى من توصى بى؟ وما تأمرنى به؟

قال : أى بنى ، واللّه ما أعلم أن رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجـلاً بنصيبين[1] فالحق به .

سلمان في نصيبين:

فلمـا مـات وغيب لحقت بصاحب نصيبين ، وأخبرتـه مـا كـان مـن خبرى ، ومـا أمرنـى بـه صاحبـه ، فقـال لى : أقـم عندنـا ، فـأقمت عنـده ، فوجدته على مثل حالهم ، حتى حضره الموت ، فأوصى بـى إلى رجـل مـن عمورية بالروم .

سلمان في عمورية:

فأتيته فوجدتـه على مثـل حـالهم ، واكتسـبت حتـى كـان لى غنيمـة وبقيرات ، ثم احتضر ، فكلمته إلى من يوصى بى؟

قال : أى بنى واللّه ما أعلم أن هناك أحداً من النـاس بقـى على مثـل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبى يبعث من الحرم ، مهـاجره بـين حرتـين[2] إلى أرض سـبخة ذات نخـل ، وإن فيـه علامـات

---

(١) اسم مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام ، وبينها وبين الموصل ستة أيام –سير أعلام النبلاء– .

(٢) الحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء النخرة .

لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه.

ثم وافاه الأجل فلبى نداء ربه، فلما واريناه أقمت بعده بعمورية زمناً، حتى مرّ بى رجال من تجار العرب من قبيلة «كَلْبٍ»، فقلت لهم تحملونى إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتى وبقراتى هذه؟

قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملونى، حتى إذا بلغنا وادى القرى[1] ظلمونى، وباعونى لرجل من اليهود بوادى القرى.

فواللّه لقد رأيت النخل، وطمعت أن يكون البلد الذى نعت لى صاحبى، ولكنها لم تكنها.

ولم أمكث كثيراً حتى قدم رجل من بنى قريظة وادى القرى، فابتاعنى من صاحبى، فخرج بى حتى قدمنا المدينة، فواللّه ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها.

سلمان فى بنى قريظة:

فأقمت فى رقى أعمل مع صاحبى من بنى قريظة فى نخله، وبعث اللّه سبحانه وتعالى نبيه بمكة، لا يذكر لى شىء من أمره مع ما أنا فيه من الرق، حتى قدم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ قباء، وأنا أعمل لصاحبى فى نخلة له.

فواللّه إنى لفى رأس النخلة إذ جاءه ابن عم له، فقال له: قاتل اللّه بنى قيلة[2] واللّه إنهم الآن لفى قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة

---

(١) واد بين المدينة والشام.

(٢) الأنصار من الأوس والخزرج.

يزعمون أنه نبي، فوالله ما هو إلا أن سمعتها، فأخذتني العرواء[1] حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ونزلت أقول: ما الخبر؟

فرفع مولاى يده فلطمني لطمة شديدة، وقال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك، فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبراً فأحببت أن أعلمه..

سلمان يستثبت علامات النبوة:

فلما أمسيت، وكان عندى شيء من طعام، فحملته وذهبت إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو بقباء، فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندى شيء من الصدقة، فرأيتكم أحق من بهذه البلاد، فهاك هذا، فكل منه.

وقربته إليه فأمسك يده فلم يأكل، وقال لأصحابه: «كلوا»، فقلت فى نفسى: هذه خلة مما وصف لى صاحبى...

ثم رجعت، وتحول رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى المدينة، فجمعت شيئاً كان عندى ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأكل أصحابه، فقلت فى نفسى: هذه الثانية.

ثم جئت رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقد تبع جنازة، فوجدته فى البقيع، وحوله أصحابه، وعليه شملتان؛ مؤتزراً بواحدة ومرتدياً الأخرى، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره؛ هل أرى الخاتم الذى وصف لى.

---

(١) العروة: الرعدة، وهو فى الأصل: برد الحُمّى.

فلما رآني استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، كما وصف لي صاحبي، فانكببت عليه أقبله وأبكي.

فقال رسول الله ﷺ: «تحول»، فتحولت، فقصصت عليه قصتي، فأعجب بها، وقال لي: «يا بني أنت سلمان»، وأحب أن يسمع ذلك أصحابه.

أكل هذه المشقة والترحال ليلاً ونهار؟

ولم..لا؟

فمن أجل الحقيقة والنور، والأمل الذي ينتظره العالم، والرحمة المهداة جعل صفوة الرجال يفدون إلى النبي ﷺ؛ ليبايعوه على أن يخوضوا معه البحار والأهوال، ويدخلوا معارك لا نهاية لها إلاّ النصر، أو الشهادة.

ونعود إلى سلمان الخير رضي الله عنه لنتركه يكمل حديثه، فما أجمل أن نسمعه منه، فروايته لها الأثر الكبير في قلوبنا.

يقول سلمان: فبعد أن حدثت أصحاب النبي ﷺ، وأسلمت بين يديه شغلني الرق وما كنت فيه حتى فاتني بدر وأحد ...

ثم قال لي رسول الله ﷺ: «كاتب سيدك حتى يعتقك».

فسألت صاحبي ذلك فلم أزل حتى كاتبني على أن أحيي له بثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية من ذهب.

ثم قال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لأصحابه رضى اللّه عنهم: «أعينوا أخاكم بالنخل» .

فأعاننى كل رجل بقدره، بالثلاثين والعشرين والخمس عشرة والعشر .

ثم قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «يا سلمان اذهب َففَقِّرْ لها، فإذا أنت أردت أن تضعها فلا تضعها حتى تأتينى، فتؤذننى فأكون أنا الذى أضعها بيدى» .

فقمت فى تفقيرى، فأعاننى أصحابى حتى فقرنا شرباً ثلاثمائة شربةٍ، وجاء كل بما أعاننى به من النخل، ثم جاء رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فجعل يضعها بيده، وجعل يسوى عليها شربها ويبرّك، حتى فرغ منها رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ جميعاً، فلا والذى نفس سلمان بيده ما ماتت منه وَديّة وبقيت الدراهم.

فبينا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ذات يوم فى أصحابه إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابها من بعض المعادن، فتصدّق بها إليه، فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ : «ما فعل الفارسى المسكين المكاتب؟ ادعوه لى» ..

فدعيت للنبى ﴿ﷺ﴾، فجئت، فقال: «أذهب بهذه فأدّها عنك ممّا عليك من المال» .

قلت: وأين تقع هذه ممّا علىّ يا رسول اللّه؟

قال رسول اللّه﴿ﷺ﴾ : «إن اللّه سيؤدى عنك» .

فوالذى نفس سلمان بيده لوزنت لسيدى منها أربعين أوقية حتى وفيته الذى له، وحرر الله رقبتى من العتق، وعشت حراً مسلماً[1].

بهذه الكلمات الوضاءة العظيمة تحدث سلمان عن رحلته الشاقة الطويلة، رحلة البحث عن الحقيقة، فأى إنسان كان سلمان، إنه نسيج وحده.

سلمان في الخندق:

اجتمعت الأرض كلها، واجتمعت قريش وغطفان، ووقف الشيطان ومعه اليهود وغيرهم، فخرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف المرّى، وغير هؤلاء من القواد الذين كانوا يقودون جماعات داخل الصفوف.

اجتمع هؤلاء ومعهم قبائل من العرب؛ ليغزوا المدينة، وقد أمر الله تعالى نبيه ﴿ﷺ﴾ بأن يقاتلهم كافة، وإنه لناصره، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّه مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

سمع رسول الله ﴿ﷺ﴾ بسيرهم، وجاءه الخبر بكثرة الجموع الكافره، وما دبروا له، فجمع النبى صحابته واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع، لقد كانوا أكثر من أن يخرجوا إليهم، ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة، فكانت الآراء مختلفة.

---

(١) سير أعلام النبلاء، طبقات ابن سعد، سيرة ابن هشام عن حديث ابن عباس بتصرف يسير.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

رأى يرى الخروج لقتالهم.

ورأى يرى المكوث فى المدينة لقتالهم إذا هم دخلوها.

وهنا يتقدم سلمان ويقول: أرى يا رسول اللّه أن نحفر خندقا أمام المدينة فى المدخل المؤدى إليها، فإذا حاولوا اقتحامه وعبوره قتلناهم بكل سهولة ويسر.

اختار الرسول ﴿ﷺ﴾ ذلك الرأى؛ لأنه جديد فى العرب، قد تروعهم فكرته، ويفزعهم أمره، فبدأوا فى تنفيذه، فجمع المسلمين ليحفروه، حتى إذا جاءت الأحزاب وجدوه حائلاً بينهم وبين ما بيتوه ورسموا له.

سلمان من آل بيت النبى:

قسم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ما يُحفَر من الخندق بين صحابته من الأنصار والمهاجرين، فكان يجعل لكل عشرة من الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين أربعين ذراعاً، وقد اقترن حفر الخندق بمشقةٍ شديدة إذ ابتدأ فى غداة يوم شديد البرودة.

وهنا لابد لنا من سؤال يفرض نفسه: أين سلمان الفارسى بين صحابة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾؟

نقول لما قسم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ العمل فى الخندق بين صحابته من الأنصار والمهاجرين اختلف الصحابة فيمن يكون سلمان؟ لأنه كان رجلاً قوياً، ولأنه كان صاحب الفكرة التى هداه اللّه تعالى إليها.

فالمهاجرون يقولون : سلمان منا، وقالت الأنصار : سلمان منا، وهنا تتنزل الرحمات والبركات والعناية الإلهية، فيقول النبى ﴿ﷺ﴾ : «سلمان منا آل البيت»..

أى شرف بعد ذلك، وأى إمارة يبتغيها أى إنسان أنبل وأشرف من ذلك، يا لها من ساعة مباركة على سيدنا سلمان عندما سمع المصطفى ﴿ﷺ﴾ يقول ذلك، وإنه بهذا الشرف لجدير.

معجزات في قلب الخندق:

يقول عمرو بن عوف[1] : دخلت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان ونعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار تحت أصل ذُباب، فضربنا حتى بلغنا الندى، فأخرج الله صخرة بيضاء مَرْوَةً من بطن الخندق، فكسرت حديدنا[2]، وشقت علينا، فقلت لسلمان : ارق إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو ضارب عليه قُبّة تركية، فرقى إليه سلمان فقال : يا رسول الله صخرة بيضاء خرجت من بطن الخندق، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، فإمّا نعدل عنها -والمعدل قريب- أو تأمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطّك.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : «أرنى معولك يا سلمان»، فقبض معوله ﴿ﷺ﴾، ثم هبط علينا، فكنا على شقة الخندق، فنزل رسول الله ﴿ﷺ﴾ فتحاً، فضرب ضربة صَدّعها، وبرق منها برقة، أضاء ما بين

---

(١) من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذين لهم مواقف حسنة، وهو ممن شهد المشاهد كلها.

(٢) المعاول والفؤوس.

لابتيها، فكبر رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ تكبير فتح، فكبرنا، ثم ضرب الثانية، فبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، حتى كأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم، فكبر رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ تكبير فتح، فكبرنا، ثم ضرب الثالثة فكسّرها، وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر تكبير فتح، فكبرنا.

ثم رقى حتى إذا كان فى مقعد سلمان قال سلمان: يا رسول اللّه لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط، فالتفت ﴿ﷺ﴾ إلى القوم فقال: «هل رأيتم؟».

قالوا: نعم، بأبينا أنت وأمنا يا رسول اللّه، رأيناك تضرب فخرج برق كالموج فتكبّر فنكبّر، لا نرى ضياءً غير ذلك.

قال ﴿ﷺ﴾: «صدقتم، ضربت ضربتى الأولى، فبرق الذى رأيتم، فأضاء لى منها قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم أضاء لى معها قصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة، فبرق الذى رأيتم أضاء لى معها قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبرائيل أن أمتى ظاهرة عليها يبلغهم النصر فأبشروا»[١].

لم يتخلف سلمان الفارسى عن أى غزوة غزاها رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بعد ذلك فقد شهد معه بعد الخندق المشاهد كلها.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٣/٥٦ - ٦٠.

الرسول ينصف سلمان:

عندما آخى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بين المهاجرين والأنصار آخى بين سلمان وأبي الدرداء .

فدخل سلمان يوماً على أبي الدرداء ، فقالت زوجه : هو نائم .

قال سلمان : ما له؟

قالت : إنه إذا كان ليلة الجمعة أحياها ، ويصوم يوم الجمعة .

فأمرهم سلمان فصنعوا طعاماً في يوم جمعة .

ثم أتاهم فقال : كل يا أبا الدرداء .

فقال : إني صائم ، فلم يزل به سلمان حتى أكل ، ثم أتيا النبي ﴿ﷺ﴾ فذكرا له ذلك .

فقال النبي ﴿ﷺ﴾ : «عويمر[1] .. سلمان أعلم منك» ، وهو يضرب على فخذ أبي الدرداء ، قالها النبي ﴿ﷺ﴾ ثلاث مرات .

موقف الصحابة من علم سلمان:

أمر معاذ بن جبل يزيد بن عميرة السكسكي أن يطلب العلم من أربعة أحدهم سلمان الفارسي .

وقال الأمام علي كرم اللّه وجهه عندما سُئل عن علمه : ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت ، من منكم بمثل لقمان الحكيم ، علم العلم الأول والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، وكان بحراً لا يجف .

---

(١) هو أبو الدرداء ، واسمه عويمر بن قيس بن زيد ، من أصحاب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ، أسلم مبكراً ، وهو سيد القرّاء بدمشق .

سلمان الفارسي والإمارة:

بدأت الدنيا تفتح أبواب الخير للمسلمين، وتتدفق الأموال من كل جانب، وكثرت الإمارات، فكثرت المناصب تبعاً لذلك، فأين سلمان من كل ذلك؟

رفض الإمارة، فسئل عن سبب رفضه لها، فقال: حلاوة رضاعها، ومرارة فطامها، ثم يقول: إن استطعت أن تأكل من التراب فكل منه ولا تكونن أميراً على اثنين، واتق دعوة المظلوم والمضطر، فإنها لا تحجب.

سلمان أمير على المدائن:

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعرف أصحابه جيداً، ويقرأ ما فى قلوبهم، ويعرف كيف يختار أمراءه؟

فطلب يوماً سلمان وعرض عليه إمارة المدائن، فرفض سلمان، فقال عمر: تضعون أمانتكم فوق عنقى ثم تفرون منها اليوم!!

وعزم على سلمان فما كان من سلمان إلا أن توجه إلى المدائن أميراً عليها، وهناك شرع سلمان يعلم الناس أمور دينهم، ولم يتأخر عن أحد.

سلمان من عامة الرعية:

فى ذات يوم وسلمان يمشى بين الناس فى أحد أسواق المدائن إذ رأه رجلاً من بنى تيم الله قادم من الشام، ومعه حِمل تين فنادى على سلمان -وهو لا يعرفه- وقال له: احمل عنى هذا، فحمل سيدنا سلمان، ومضيا معاً، وكلما مرا على جماعة من الناس سلم عليهم، فيجيبوا واقفين: وعلى الأمير السلام.

عجب الشامي من هذا الرد وقال في نفسه : أي أمير يعنون؟ أيقصدونني أنا؟!.

ولكن تبدلت دهشة الرجل إلى فزع ؛ حينما أسرع بعض الناس تجاه سلمان الفارسي ؛ ليحملوا عنه قائلين : عنك أيها الأمير.

وعلم الشامي أنه سلمان أمير المدائن، فقال له : عذراً يا صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾، لم أعرفك، وأراد الرجل أن يحمل حمله، فقال سلمان : لا حتى أبلغ منزلك...

ما هذا يا أصحاب الرسول ﴿ﷺ﴾؟!

والله لقد ضربتم أروع الأمثال في الزهد والتقى..

لم يعرف الرجل أمير المدائن... ولم لا؟

فقد رآه يرتدي لباساً قصيراً وعباءة كفقراء القوم، وعطاءه يومئذ من بيت المال خمسة آلاف..!

ولكنهم الصحابة.

دخل عليه أحد أصحابه في المدائن وهو يعجن، فسأله وقال : أين الخادم؟

قال سلمان : بعثناها لحاجة فكرهنا أن نجمع عليها عملين!!

ويقول النعمان بن حميد : دخلت مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص، فسمعته يقول : أشتري خوصاً بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي، وأتصدق بدرهم، ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عنه ما انتهيت..

يفعل سلمان ذلك وهو يأخذ عطاؤه من بيت المال خمسة آلاف، ولكن أين كان ينفق سلمان كل هذا المال؟

التاريخ يسجل هذه العظمة وتعيها كتب السير جيداً فلا تمحى من سجلاتها.

كان سلمان رضى الله عنه ينفق كل راتبه على الفقراء والمساكين وعابرى السبيل، ولا ينال منه درهماً واحداً.

وكان يشترى اللحم ثم يدعو المجزومين فيأكل معهم.

سلمان يحض على أداء الأمانة:

جاء الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله، فدخلا على سلمان فى خص[1] له، وهو يومئذ أمير على المدائن.

فقالا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

فرد صاحب رسول الله ﷺ التحية بأحسن منها..

ثم قالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟

قال سلمان: لا أدرى..

عندئذ ارتابا فى أمر الرجل، وشكا فيه.

فقال سلمان قبل أن تأخذ الحيرة طريقها إلى وجهيهما: إنما صاحبه من دخل معه الجنة.

---

(١) مكان يُجلس فيه يُصَنع من القش وجريد النخل.

قالا -بعد أن علما ماذا يقصد صاحب الخندق- : جئنا من عند أبى الدرداء ..

قال سلمان : فأين هديته؟

قالا : ما معنا هدية.

قال سلمان : اتقيا الله، وأديا الأمانة، ما أتانى أحد من عنده إلا بهدية.

قالا : لا ترفع علينا هذا، إن لنا أموالاً فاحتكم.

قال سلمان : ما أريد إلا الهدية.

قالا : والله ما بعث معنا بشىء، إلا أنه قال : إنَّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﴿ﷺ﴾، إذا خلا به، لم يبغ غيره، فإذا أتيتماه، فاقرءاه منى السلام.

قال سلمان : فأى هدية كنت أريد منكما غير هذه، وأى هدية أفضل منها[1].

سلمان يصنف الناس ويرغب في الصلاة:

يقول أبا عبد الله رضى الله عنه : إذا كان الليل، كان الناس منه على ثلاث منازل، فمنهم من له ولا عليه، ومنهم من عليه ولا له، ومنهم من لا عليه ولا له.

فقال طارق بن شهاب : وكيف ذاك؟

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٤٧/٢٠ .

قال سلمان : أما من له ولا عليه، فرجل اغتنم غفلة الناس، وظلمة الليل؛ فتوضأ وصلى؛ فذاك له، ولا عليه.

ورجل اغتنم غفلة الناس، وظلمة الليل؛ فمشى في معاصي اللّه؛ فذاك عليه، ولا له.

ورجل نام حتى أصبح؛ فذاك لا له، ولا عليه.

فقلت: لأصحبن هذا.

فضرب على الناس بعث، فخرج فيهم، فصحبته وكنت لا أفضله في عمل.

إن أنا عجنت، خبز، وإن خبزت، طبخ.

فنزلنا منزلاً فبتنا فيه، وكانت لي ساعة من الليل أقومها.

فكنت أتيقظ لها فأجده نائماً، فأقول: صاحب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ خير مني نائم!

فأنام، ثم أقوم فأجده نائماً فأنام، إلا أنه كان إذا تعارّ من الليل قال وهو مضطجع: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، ولا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير...

حتى إذا كان قبيل الصبح قام، فتوضأ، ثم ركع أربع ركعات.

فلما صلينا الفجر، قلت: يا أبا عبد اللّه: كانت لي ساعة من الليل أقومها، وكنت أتيقظ لها، فأجدك نائماً.

قال سلمان: يا ابن أخي فماذا كنت تسمعني أقول؟

فأخبرته بما سمعته منه.

فقال سلمان : يا ابن أخي تلك الصلاة، إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن، ما اجتنبت المقتلة.

يا ابن أخي عليك بالقصد فإنه أبلغ[1].

نهاية الرحلة:

لما مرض سلمان دخل عليه سعد بن أبي وقاص يعوده، فبكى سلمان فقال له سعد : ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ وقد توفي رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو عنك راض، وتلقى أصحابك، وتَردُ عليه الحوض.

قال سلمان : والله ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ عهد إلينا عهداً، فقال : لتكن بُلغَةُ أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب، وها أنذا حولي هذه الأساور.

فقال سعد بن أبي وقاص : فرأيت حوله جفنة ومطهرة وإجانة..

فقلت له : يا أبا عبد الله، اعهد إلينا بعهد نأخذه بعدك.

فقال سلمان : يا سعد اذكر الله عند همّك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت.

ودخل عليه بعض أصحابه ليعوداه فقالا له : أوصنا.

فقال سلمان : من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو معتمراً أو غازياً أو في نقل القراءة فليمت، ولا يموتن أحدكم فاجراً ولا خائناً.

وفي سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة..

---

(١) المرجع السابق.

وفى المدائن..

وفى صبيحة اليوم الذى قبض فيه سلمان..

دعا زوجه -بقيرة- وأوصاها بأشياء.

ترى عزيزى القارئ ما طبيعة هذه الأشياء الذى يوصى بها صاحب الخندق؟

وصية سلمان:

تعالوا بنا نسمع إلى السيدة بقيرة رضى الله عنها وهى تحدثنا عن هذه الأشياء فى ذلك اليوم.

تقول رضى الله عنها: دعانى سلمان رضى الله عنه وهو فى عُليَّة له، بها أربعة أبواب، فقال لى: افتحى هذه الأبواب يا بقيرة..

فإن لى اليوم زواراً لا أدرى من أى هذه الأبواب يدخلون علىّ.

ثم قال: هلمّى خبيك الذى استخبأتك..

فجئته بصرة مسك كان قد أصابها يوم فتح -جَلُوَلاء- ثم دعا بقدح فيه ماء، فنثر المسك فيه، ثم مسحه بيده، ثم قال: انضحيه حولى، فإنه يحضرنى خلق من خلق الله، يجدون الريح ولا يأكلون الطعام، ثم أغلقى علىّ الباب وانزلى.

ففعلت ما أمرنى به، وجلست هنيهة، فسمعت هسهسة، فصعدت إليه فإذا به وقد لحق بالرفيق الأعلى(1).

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد بتصرف يسير.

لبى سلمان الفارسي نداء ربه؛ فحمل على رفاف العناية الإلهية. وهو في شوق إلى لقاء ربه، ولقاء خليله ﴿ﷺ﴾، بعد حياة طاف فيها مشارق الأرض ومغاربها بحثاً عن كلمة لاإله إلا الله محمد رسول الله.

فكان من الذين قال فيهم رب العزة تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[١].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

سعد بن أبي وقاص

﴿رضي الله عنه﴾

﴿هذا خالي، فليرني امرؤ خاله﴾

﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

«رواه الترمذي في المناقب (٣٧٥٢)،

سير أعلام النبلاء: ٦٩/٣».

سعد بن أبي وقاص
(رضي الله عنه)

نسبه من أبيه:

هو سعد بن مالك[1] بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.

نسبه من أمه:

هو سعد بن حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

صفته

كان رجلاً قصيراً، غليظاً، ذا هامةٍ، أشعر، وكان يخضب بالسواد أي يصبغ بالسواد.

حياته:

ولد سعد بن أبي وقاص في بيت من أعرق بيوت قريشٍ نسباً، وأعلاها منزلة وأكرمها حسباً.

فهو يلتقي مع رسول الله (ﷺ) في كلاب بن مرة.

وقال رسول الله (ﷺ) يوماً لسعد وهو مقبل عليه: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله».

---

(١) مالك: هو أبي وقاص والد سعد.

وهذا لأن أم النبى زهرية[1]، وهى السيدة آمنة بنت وهب، أى أنها ابنة عم أبى وقاص.

نشأ سعد بن مالك مغرماً بإصلاح القسيّ، وبرى السهام، وركوب الخيل، فصار فارساً من أعظم فرسان قريش، وأقواهم شكيمة، كما كان نجيباً ذكياً ...

اشتد عود سعد بن مالك الزهرى، وترعرع وسط عائلة يغمرها الحب والمودة، فكانت أمه لا تطيق البعد عنه، ولا هو، كما كانت تخ ى عليه حتى من ملابسه.

وفى يوم من أيام مكة الخالدة، أراد الله سبحانه وتعالى الكرامة لبنى الإنسان؛ فأنزل جبريل الأمين على الصادق الأمين بكتاب مبين، وقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

وبدأ عصر القراءة والنعليم، والهدى إلى الصراط المستقيم، فلبى الدعوة كوكبة من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾، كان من بينهم صاحبنا، وبطل قصتنا، سيدنا سعد بن أبى وقاص.

سعد يعلن إسلامه:

فاض النور المحمدى من بيت النبى ﴿ﷺ﴾، وانبثق البثق الكبير خارج البيت، ولكنه لم يكن بعيداً عن النبى ﴿ﷺ﴾.

---

(١) أى من بنى زهرة.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

لقد ذهب يضيء قلوب أصدقائه، فبادر أبـو بكـر بالإسـلام عندمـا علم بالبعثة، وأدرك أن النور أشع، ولم يبقَ إلا أن يستضيء به.

بعد إسلام أبى بكر تتابع الإسلام فى نفر ممن له بالنبى ﴿ﷺ﴾ مودة سابقة، أو لهم بالصديق صداقة، فأسلم سعد بن أبى وقاص، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح وغيرهم.

يقول سعد: «ما أسلم رجل قبلى إلا رجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه، ولقد أتى على يوم وإنى لثلث الإسلام، وأسلمت وأنا ابن سبع عشرة سنة».

ولكن إسلام سعد لم يمر مرور الكرام سهلاً ليناً مثل إسلام الصدّيق الأكبر، إنما كان له دوياً عظيماً فى نفس إنسان، له عند سعد مكانة كبيرة، وغلاوة ليس لها نظير. فوضع صاحب السبعة عشر ربيعاً فى موقف من أصعب وأعظم المواقف فى حياته، بل وعرضه لتجربة من أقسى التجارب وأعنفها، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى فى شأنه قرآنا يتلى:

فمن يكون صاحب هذه المكانة العالية فى نفس صاحبنا، وما هى تلك التجربة المريرة؟

فلنترك عزيزى القارئ، صاحبنا وحبيبنا، وبطل قصتنا، يحكى لنا بنفسه عن أصل هذه التجربة، فشعوره بها أعمق، وروايته لها أدق.

قال سعد بن مالك الزهرى: رأيت فى المنام قبل أن أسلم بثلاث ليالٍ، بأنى غارق فى ظلمات بعضها فوق بعض...

وبينما كنت أتخبط في لجحها إذ أضاء لي قمر فاتبعته، فرأيت نفراً أمامي قد سبقوني إلى ذلك القمر.

رأيت زيداً بن حارثة، وعلياً بن أبي طالب، وأبا بكرٍ الصديق...

فقلت لهم: منذ متى وأنتم ها هنا؟

فقالوا: الساعة..

ثم إني لما طلع عليَّ النهار بلغني أن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يدعو إلى الإسلام مستخفياً...

فعلمت أن اللّه سبحانه وتعالى أراد بي خيراً، وشاء أن يخرجني بسببه من الظلمات إلى النور.

فمضيت إليه مسرعاً، حتى لقيته في شعب جياد، فأسلمت، فما تقدمني أحد سوى هؤلاء النفر الذين رأيت في الحلم.

ولقد أسلمت يوم أسلمت وما فرض اللّه الصلوات[1]...

وما أن سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها، واشتعلت غضباً، وكنت براً بها محباً لها، فأقبلت عليَّ تقول: يا سعد ما هذا الدين الذي اعتنقته، فصرفك عن دين أمك وأبيك؟

واللّه لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيَّر بي، فيقال: ياقاتل أمه، فيتفطر فؤادك حزناً عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢/١٣٧.

قلت: لا تفعلى يا أماه، إنى لا أدع دينى هذا لشئ..

لكنها مضت فى تنفيذ وعيدها، فاجتنبت الطعام والشراب، ومكثت يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جهدت وهزل جسمها، وخارت قواها.

فجَعَلْتُ آتيها ساعة بعد ساعة أسألها أن تتناول بعض من الطعام أو تشرب قليلا من الماء، فكانت تأبى أشد الإباء.

فلما رأيت ذلك قلت: يا أماه تعلمين والله لو كان لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت دينى، إن شئت فكلى أو لا تأكلى.

فلما رأت وسمعت منى أذعنت للأمر، وأكلت، وشربت، وعدلت عن عزمها على كره منها[1].

فأنزل الله سبحانه وتعالى فينا قوله عز وجل:

﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

إن إسلام سعد بن أبى وقاص، وما حدث بينه وبين أمه جعل بعض أصدقائه ومن يألفونه يستأنسون بالإسلام.

---

(١) سير أعلام النبلاء بتصرف يسير: ٦٩/٣.

(٢) سورة لقمان، الآيات: ١٤-١٥.

فقد كان ابن أبى وقاص ألوفا محبوباً، وكان من أعظم شباب قريش، فأخذ يبث الدعوة لأصدقائه وخلانه، وفعل كما يفعل أبو بكر الصديق، فكان يذهب بأصحابه إلى النبى ليسلموا على يديه.

بدأ الإسلام ينتشر انتشار الضوء فى الظلام، فأسلم السادة والعبيد، وأصبح للإسلام قوة لا يستهان بها ...

فقد دخل بيوتاً كثيرة، فما من بيت إلا علم بأمر دعوة النبى ﴿ﷺ﴾، فما خلا بيت من بيوت مكة المكرمة من مسلم، أو من قلب مال إلى الإسلام.

أول سهم رمى فى الإسلام:

عقد رسول الله ﴿ﷺ﴾ لوائه ودفعه لعبيدة بن الحارث فى ستين من المهاجرين، فساروا حتى وصلوا عند ماء يقال له -الأخياء- حيث كان المشركون، ولكن لم يحدث قتال، بل كان بينهم رمى بالسهام ...

فرمى سعد بن أبى وقاص فى هذا اليوم بسهم، فكان أول سهم رمى به فى الإسلام.

لم يقتل هذا السهم أحداً، ولكن يكفى أن قريشاً علمت أن الإسلام صارت له قوة، فإما أن يسارعوا إليه، ولا يكونوا آخر الناس، وإما أن يسارع بالقصاص، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء.

أو من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الإسلام ستنقذ المؤمنين الذين لا يزالون يفتنونهم عن دينهم الذى ارتضوه.

لم تكف قريش عما تفعله فى ضعفاء المؤمنين المستضعفين بمكة ...

وكان لابد من مواجهة عسكرية بين الحق المتمثل فى رسول الله ﴿ﷺ﴾ والمسلمين، وبين الباطل المتمثل فى قريش وصناديدها وكفارها وشياطينها.

فكان يوم بدر.

سعد بن أبي وقاص يوم بدر:

ولسعد بن أبى وقاص وأخيه عمير موقفاً يأخذ القلوب من بين الضلوع، ويجبر الدموع أن تسيل على الخدود..

فها هو رسول الله ﴿ﷺ﴾ يتفقد الجيش قبل المعركة، ولكن...

لنترك شاهد عيان يحدثنا عما حدث يومئذٍ وليكن سعد بنفسه:

يقول سعد: رأيت أخي عمير بن أبى وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟

قال عمير: إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيستصغرنى فيردنى، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة.

فعُرِض على رسول الله ﴿ﷺ﴾ فاستصغره...

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «ارجع يا عمير»، فبكى عمير، فعند ذلك أجازه رسول الله ﴿ﷺ﴾...

فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقُتِل وهو ابن ست عشرة سنة، قتله عمرو بن عبد ود[1].

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى: ٢/١٧٨.

وعندما لمح سعد بن أبي وقاص أخيه عمير شهيداً فوق أرض العزة والكرامة أرض الشرف والرجولة.. أرض بدر.. صال وجال، وقتل خلقاً كثيراً من كفار قريش حتى قال عبد الله بن مسعود: لقد رأيت سعداً يقاتل يوم بدر قتال الفوارس والرجال.

وانتهت بدر بنصر المؤمنين، وعادوا إلى المدينة، وعاد سعد بن مالك وحده، وخلّف أخيه عميراً شهيداً بدمائه الزكية الطاهرة فوق أرض بدر، واحتسبه عند الله تعالى.

ومع ما كان يملكه من الشجاعة وحسن التصرف كان يجيد السيطرة على الأعداء، وفي ذلك يقول ابن مسعود: اشتركت أنا وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر يوم بدر فما أصبنا، فجاء سعد بأسيرين ولم أجيء أنا وعمار بشيء[1].

سعد بن أبي وقاص في أحد:

لم تستطع قريش أن تنسى ما حدث لها يوم بدر، فقد أهمتها هزيمة بدر الكبرى، إذ كانت حقاً يوم الفرقان بين الحق والباطل، فكانت مرارة الهزيمة شديدة، فما من بيت من بيوت كبرائهم إلا كان فيه جرح كبير.

فأرادت قريش أن تأخذ بثأرها، فاجتمعت عن بكرة أبيها، ولم يبق أحد منهم إلا أخذ الأهبة واستعد للقتال، فكان يوم أحد.

ابتدأ القتال وكانت الجولة للمسلمين، حتى أن المشركين يفرون فراراً أمام سيوف الله تعالى...

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/٦٧

تفرق معسكر الشرك، وفر من فر منهم، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ولم ينالوا خيراً، ولكنهم لم يسحقوا...

غير أن طلاب الغنائم غيّروا سير المعركة لصالح قريش، حينما تركوا مواقعهم، ونزلوا من فوق الجبل، فانقلبت الموازين..

وعندئذٍ ثَبُت مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ يومئذٍ أربعة عشر نفرا، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، كان من بينهم سعد بن مالك الزهرى، فلنسمع منه ماذا حدث يوم الرماة؟

قال سعد : لما جال الناس عن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ تلك الجولة يوم أحد، قلت أزود عن نفسى، فإما أن أستشهد، وإما الحق حتى ألقى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

فبينا أنا كذلك، إذا برجل محمر وجهه ما أدرى من هو، فأقبل المشركون حتى قلت : قد ركبوه، فملأ يده من الحصى، ثم رمى به فى وجوههم؛ فتنكبوا على أعقابهم القهقرى، حتى أتوا الجبل.

ففعل ذلك مراراً، ولا أدرى من هو، بينى وبينه المقداد بن عمرو، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه، إذ قال المقداد : يا سعد هذا هو رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، يدعوك..

فقلت : وأين هو؟ فأشار إليه.

فقمت وكأنه لم يصبنى شىء من الأذى، وأجلسنى أمامه، فجعلت أرمي وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك، ورسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يقول : «اللّهم استجب لسعد، اللّهم سدد رميته وأجب دعوته»، حتى إذا

فرغ النبل من كنانتي، نثر النبي ﷺ لي ما في كنانته، وانكشف الناس عنه ﷺ.

ولقد رأيتني والنبي ﷺ يناولني النبل ويقول: «ارم فداك أبي وأمي»، حتى إنه ليناولني السهم ما له نصل، فيقول: «ارم به».

فما أسعدك يا سعد بن مالك، لقد فداك رسول اللّه ﷺ بأبويه..

يا لها من سعادة غامرة، خصَّك بها النبي.

وجاء في كتب السيرة أن سعداً رمى يوم أحد ألف سهم، ما فيها سهم إلا ورسول اللّه ﷺ يقول: ارم فداك أبي وأمي، ففداه ذلك اليوم ألف مرة.

أليس من حق الرجل إذاً أن يفتخر بهذا؟!!

إنه أول من افتداه رسول اللّه ﷺ بأبويه، وفي ذلك يقول الإمام علي كرم اللّه وجهه: ما سمعت رسول اللّه ﷺ قال: فداك أبي وأمي إلا لسعد رضي اللّه عنه، وذلك يوم أحد، لأن الرسول ﷺ قالها للزبير يوم الخندق.

الصحابة تختار سعد قائداً للجيوش:

وفي ذات يوم وصلت الأخبار إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بأن قوات الفرس انتصرت انتصاراً ساحقاً في معركة الجسر، وأن شهداء المسلمين بلغوا أربعة آلاف شهيد، وأن أهل العراق نقضوا عهودهم...

فرأى أمير المؤمنين عمر أن يذهب، ويقود الجيوش المسلمة هناك بنفسه، وقرر أن تكون نهاية الفرس على يديه، ولكن كوكبة من الصحابة فى المدينة رأت أن قيادة عمر للجيش بنفسه هى المخاطرة الكبرى، وقرروا أن ينتدبوا لهذه المهمة الصعبة رجلاً آخر..

فمن يا ترى يكون هذا الفارس المقدام؟

نودى -الصلاة جامعة- واجتمع على بن أبى طالب، وعبد الرحمن بن عوف مع بعض الصحابة بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأقسموا عليه أن يرجع عما بدا له، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن نزل عن رأيه، وسألهم: فمن ترون أن نبعث إلى العراق؟

مرت لحظات كأنها الدهر كله... ثم صاح عبد الرحمن بن عوف: وجدته.. قد وجدته، فقال عمر واللّهفة على وجهه: فمن هو؟

قال عبد الرحمن بن عوف: الأسد فى براثنه.. سعد بن مالك الزهرى.

فقال الجميع: نعم إنه هو.. هو لها يا أمير المؤمنين.. والله ما لها إلا الأسد فى براثنه.

عمر يستدعى سعد:

أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن مالك واستدعاه، فأتى سعد ولم يعلم ماذا يريد منه عمر؟

فدخل عليه وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد عمر بن الخطاب ومن عنده السلام، وأجلسه عمر وتحدث إليه ثم عقد له لواء الجيش...

كان هذا هو أكبر تكريم لسعد بن أبي وقاص، فهو يتمنى الشهادة، ويحرص عليها، وها هو ذاهب إليها.

ولما حان وقت رحيل الجيش الكبير إلى القتال، ظل عمر يتجول بين الجنود، ويرى ما هو ناقص فيكمله، ويوصيهم بالجهاد ونصرة دين الله ورسوله.

سعد يستمع لوصايا عمر:

ثم قال عمر بن الخطاب لسعد وهو يودعه: يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﴿ﷺ﴾، وصاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته.

فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالتقوى، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﴿ﷺ﴾ منذ بُعِث إلى أن فارقنا، فالزمه، فإنه الأمر[1].

فأراد سعد الانصراف بالجيش إلى ما هو ذاهب إليه، فاستوقفه عمر، وقال له: إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تقوم على أمر شديد كريه، لا يخلّص منه إلا الحق، فعوّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به.

واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك[2] يجتمع لك خشية الله.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي: ٢/ ٢٨٩.

(٢) نزل بك.

واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا ، وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.

وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً، منها السر، ومنها العلانية.

فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس.

فلا تزهد فى التحبب، فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبداً حببه، وإذا أبغض عبداً بغّضه، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك.

مضى سعد ومن معه إلى العراق، وكان بالجيش تسعة وتسعون ممن حضر بدراً، وعدد كبير من صحابة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكثير من أبناء الصحابة، فكانوا تحت قيادة قائدهم الجديد أهلاً للفتوح العظيمة التى فتحت على أيديهم بفضل من الله ومنته.

أراد سعد ومعه المسلمون أن تكون ضربتهم هى القاضية لجيوش الفرس المتغطرسة تحت قيادة قائدهم المغرور رستم، وأقسموا بالله أن ينالوا من هذا المغرور.

البريد يصل لسعد:

بعد أن عسكر سعد بجيشه فى القادسية وصله خطاب من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال فيه: إنى قد كنت كتبت إليك أن تدعو الناس إلى الإسلام ثلاثة أيام، فمن استجاب لك قبل القتال فهو رجل

من المسلمين، له ما للمسلمين، وله سهم في الإسلام، ومن استجاب لك بعد القتال أو بعد الهزيمة، فما له من فيء المسلمين؛ لأنهم كانوا قد أحرزوه قبل إسلامه، فهذا أمرى وكتابى إليك[1]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فما كان من سعد بن أبي وقاص إلا أن بدأ في إرسال سفراءه إلى كسرى.

سعد يبعث سفراءه لكسرى:

فأرسل سعد جماعة من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ ومن عظماء الإسلام منهم النعمان بن مقرن، وفرات بن حيان، وحنظلة بن الربيع التميمى، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معد يكرب رضى الله عنهم أجمعين، يدعون رستم إلى الله عز وجل..

فقال لهم رستم: ما أقدمكم؟

فقالوا: جئنا لموعود الله[2] إيانا، أخذ بلادكم، وسبى نسائكم وأبنائكم، وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك.

وقد رأى رستم فى منامه كأن ملكاً نزل من السماء، فختم على سلاح الفرس كله، ودفعه إلي محمد رسول الله ﴿ﷺ﴾، فدفعه رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى عمر رضى الله عنه[3].

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى: ٢٠٢/١.

(٢) أى وعد الله تعالى، وهو الجنة.

(٣) حياة الصحابة للكاندهلوى: ٢٠٣/١.

وسننقل لك عزيزى القارئ الحوار الذى دار بين أحد سفراء سعد بن أبى وقاص وبين كسرى قائد الفرس، حتى نتعرف على مدى ذكاء سعد فى اختيار سفراءه، فكان المغيرة بن شعبة.

قام المغيرة بن شعبة وسط كوكبة من أصحاب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ كانوا معه فى ذلك اليوم، وهو اليوم الثالث من الأيام الثلاثة التى أوصى بها عمر فى بريده إلى سيدنا سعد.

نقول قام المغيرة رضى اللّه عنه مخاطبا يزدجرد ملك الفرس:

أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يُكرِمِ الأشرافُ الأشرافَ، ويُعِظّم حقوق الأشرافِ الأشرافُ.

وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبنى، فأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك..

إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا.

وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.

ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه.

وكان حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث اللّه إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه، ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته خير بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا.

وهو نفسه كان خيرنا في الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول الأمر إلا ترب كان له[1]، وكان الخليفة من بعده.

فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف اللّه فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العباد، فما قال لنا فهو قول اللّه، وما أمرنا فهو أمر اللّه.

فقال لنا: إن ربكم يقول: أنا اللّه وحدى لا شريك لى، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهى، وأنا خلقت كل شيء، وإلى يصير كل شيء، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل[2]؛ لأدلكم على السبيل التى أنجيكم بها بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى دار السلام.

فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم دخل جنتى، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه.

---

(١) زيد بن حارثة.

(٢) هو رسول الله ﷺ.

فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تُسلم فتنجى نفسك.

فقال يزدجرد وهو مشتعل غيظاً: أتستقبلنى بمثل هذا؟!

فقال رسول سعد بن أبى وقاص المغيرة بن شعبة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به..

فقال يزدجرد: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شىء لكم عندى..

ونادى يزدجرد: ائتونى بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من أبواب المدائن.

ثم قال هذا الكسروى المغرور: ارجعوا إلى صاحبكم، فأعلموه أنى مرسل إليه رستم؛ حتى يدفنه وجنده فى خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد.

ثم أورده إلى بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور[١]..

ثم قال: من أشرفكم؟

فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو رضى اللّه عنه: أنا أشرفهم[٢]، أنا سيد هؤلاء فحمّلنيه..

---

(١) سابور ذو الأكتاف هو العدو اللدود للعرب، كان ينزع أكتافهم، ويحمل عليهم ظلماً وعدوانا.

(٢) أى تطوع لحمل التراب دون أن يندبه لذلك أحد؛ حتى لا يحمله أفضلهم.

فقال كسرى: أكذلك؟

قالوا: نعم.

ثم دخل على سعد بن أبى وقاص فأخبره الخبر، فقال سعد: أبشروا فقد -والله- أعطانا الله مفاتيح ملكهم، فتفاءلوا بذلك وسروا جميعاً[1].

ولكن سعد علم أنها الحرب لا محالة، ورأى جموع الفرس الغفيرة كأنها الأمواج المتلاطمة يتبع بعضها بعضاً.

عندئذٍ، وقف سعد كالأسد عادياً، وخطب الناس..

فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك، وليس لقوله خُلْف، قال الله جل ثناؤه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾[2].

إن هذا ميراثكم، وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها، وتجبونهم، وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم[3].

وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعز من ورائكم.

---

(١) حياة الصحابة بتصرف يسير: ٢٠٩/١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) كناية عن الحروب قبل موقعة القادسية، والتى فتح فيها خالد بن الوليد معظم أراضى العراق.

فإن تزهدوا في الدنيا، وترغبوا في الآخرة جمع اللّه لكم الدنيا والآخرة، ولا يقّرب ذلك أحداً إلى أجله.

وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم، وتوبقوا آخرتكم(١).

وبعد أن فرغ سعد من خطبته التاريخية صلى بالناس صلاة الظهر، ولما انتهى من الصلاة أعطى جنوده إشارات وعلامات، وأخبرهم بأن ساعة الهجوم هي الساعة التي يسمعون فيها أربع تكبيرات، وأعلن حالة الاستعداد.

وبعد لحظات ليست بالكثيرة قال سعد: اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر..

ثم أشار بيده إلى العدو وقال: انطلقوا على بركة اللّه، وفي بضع ساعات تهاوت قلاع الفرس أمام جنود الحق، وتهاوت جنود الفرس كفراشات صعقها التيار الكهربائي..

وانتهت إلى الأبد عبادة الأوثان، وعبادة النار في بلاد فارس على يد قائد جيوش الإسلام سعد بن أبي وقاص.

فرت الفلول المهزومة بعدما رأوا رأي العين رأس قائدهم رستم على أسنة رماح المسلمين، وكونت عدة جبهات دفاعية فغزاها سعد بجيوشه واحدة تلو الأخرى..

فسقطت نهاوند، ثم المدائن بعد أن عبر نهر دجلة بخيوله، وكان ذلك في موسم الفيضان، وذلك بفضل اللّه ومنته.

---

(١) حياة الصحابة: ٢/ ٤١.

سعد أميرٌ على الكوفة:

اختار عمر بن الخطاب سعداً أميراً على الكوفة ذات الطابع المتمرد، إذ لا يمل أهلها من الشكوى، فكلما أتاهم أمير سارعوا واشتكوه لأمير المؤمنين.

ولما تسلم سعد بن مالك إمارة الكوفة راح يبنى ويعمر ويخط البيوت، وراح يعلم الناس ويسمعهم من أحاديث رسول الله ﴿ﷺ﴾.

وفى سنة إحدى وعشرين شكا أهل الكوفة أميرهم إلى عمر، وعلى الفور يستدعيه عمر، فما كان من سعد إلا تلبية الأمر وطاعة أمير المؤمنين على وجه السرعة.

وفى المدينة يضحك سعد ساخراً، وذلك حين سمع أن أهل الكوفة قالوا فى شكواهم: إن سعداً لا يحسن الصلاة!!

فقال سعد: والله إنى لأصلى بهم صلاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ أطيل فى الركعتين الأوليين، وأقصر فى الأخريين..

عند ذلك قال عمر: ارجع إليهم يا أبا إسحاق..

فيجيبه سعد ضاحكاً: أتأمرنى أن أعود إلى قوم يزعمون أنى لا أحسن الصلاة؟!

ويرفض سعد الإمارة..

ويختار المدينة..

ويؤثر البقاء فيها بجوار رسول الله ﴿ﷺ﴾.

بين سعد وعلى ومعاوية:

وتمضى الأيام، وتمر السنون، وتتعاقب الليالى، وتجىء الفتنة بين الإمام على كرم اللّه وجهه ومعاوية رضى اللّه عنهم أجمعين.

فأين سعد من ذلك كله؟

اعتزل سعد بن مالك الفتنة التى نشبت، كما اعتزلها بعض كبار الصحابة أمثال سعيد بن زيد، وعبد اللّه بن عمر، وغيرهما..

وعندما سألوه: لماذا لم تقاتل مع واحد من الفريقين؟

فأجاب قائلاً: لا أقاتل حتى يأتونى بسيف له عينين ولسان، فيقول هذا مؤمن، وهذا كافر...

اللّه اللّه يا سعد، ما هذا يا أصحاب رسول اللّه، يريد سيفاً ينطق بالحقيقة وإلا فلا...

ويأتيه ابنه عامر، ويسأله: أين موقفه مما يحدث؟

فيجيبه: أى بنى! أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأساً؟

لا واللّه حتى أعطى سيفا؛ إن ضربت به مسلماً نبا عنه، وإن ضربت كافراً قتله...

سمعت رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يقول: «إن اللّه يحب الغنى الخفى التقى».

ثم يأتى اليوم الذى ينتهى فيه الأمر إلى معاوية، وتستقر له مقاليد الحكم، فيسأل سعد بن مالك: مالك لم تقاتل معنا؟

فقال سعد : إنى مررت بريح مظلمة، فقلت : أخ . أخ ، وأنخت راحلتي حتى انجلت عني .

فقال معاوية : ليس في كتاب الله أخ .. أخ ، ولكن قال الله تعالى :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[١] .

وأنت يا أبا إسحاق لم تكن مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية...

فأجابه سعد قائلا : ما كنت لأقاتل رجلا[٢] قال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» .

حان وقت الرحيل:

ويبعد سعد عن هذا الجو الخانق المليء بالأطماع السياسية، ويذهب إلى مكان يسمى حمراء الأسد[٣] ، وهو يحرص أن يكون بجوار رسول الله ﴿ﷺ﴾ ..

وفي أحد أيام العام الخامس والخمسين من الهجرة كان سعد على موعد بلقاء الله عز وجل..

---

(١) سورة الحجرات، الآية : ٩ .

(٢) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) هو موضع يقع على بعد ثمانية أميال من المدينة .

ولنترك ولده مصعب يحدثنا عن ذلك اليوم الذى رحل فيه آخر المهاجرين وفاة.

يقول مصعب: كان رأس أبى فى حجرى وهو يقضى، فدمعت عيناى، فنظر إليّ فقال:

ما يبكيك أى بنى؟

فقلت: لمكانك وما أرى بك..

قال: فلا تبك عليّ فإن الله لا يعذبني أبداً، وإنى من أهل الجنة؟ إن الله يدين المؤمنين بحسناتهم، فاعملوا لله..

وأما الكفار فيخفف عنهم بحسناتهم، فإذا نفدت، قال: ليطلب كل عامل ثواب عمله ممّن عُمِل له..

ولما رأى ملائكة ربه دعا بخلقِ جبة صوف، وقال: كفنونى فيها، فإنى لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبأتها لهذا اليوم..

ثم أوصى بدفنه بالمدينة..

وعندما صعدت روحه الطيبة الطاهرة النقية إلى بارئها حُمِل إلى المدينة على أعناق الرجال حتى أتوا به.

وعندئذٍ أرسلن أزواج النبى ﴿ﷺ﴾ أن يمروا بجنازته فى المسجد النبوى..

فدخلوا بسيدنا سعد، ووُقِف به على حُجرهن فصلين عليه..

وصلى عليه مروان بن الحكم والى المدينة يومئذٍ.

فسلام عليك يا ثالث المسلمين حين أسلمت.

وسلام عليك يا خال رسول الله ﴿ﷺ﴾ حين هاجرت.

وسلام عليك حين رميت ففداك رسول الله ﴿ﷺ﴾ بأبويه.

وسلام عليك يوم بدر وأحد والقادسية والمشاهد كلها.

وسلام عليك أحد العشرة المبشرين بالجنة.

معاذ بن جبل

﴿رضي الله عنه﴾

﴿أعلم أمتي بالحلال والحرام
معاذ بن جبل﴾

﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

معاذ بن جبل
(رضي الله عنه)

نسبه من أبيه:

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدى بن كعب بن عدى بن أدى بن سعد بن على بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر(١).

نسبه من أمه:

هو معاذ بن هند بنت سهل بن جهينة.

مولده:

ولد رضى اللّه عنه بالمدينة فى عائلة ثرية؛ فتربى على النعمة والخير، وترعرع، وقوى بنيانه حتى اشتد أزره، فصار فتىً قوياً من أقوى فتيان المدينة.

صفته:

وقد وصفه رضى اللّه عنه أحدُ الصحابة العظماء بأنه أكحل العينين، براق الثنايا، جعد الشعر، موفور الشباب، حاد الذكاء، قوى الملاحظة، ولا يتكلم إلا عن صواب، وقد كان أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خُلقاً وأجودهم بل وأكرمهم.

---

(١) سيرة ابن هشام.

حياته:

أسلم معاذ على يد سيدنا مصعب بن عمير الذى كان ذا مال وغنى، وقد ترك ماله وغناه حباً فى اللّه ورسوله ﴿ﷺ﴾.

وبدأ سيدنا معاذ يتقلب فى الأنوار المحمدية، والأخلاق الفاضلة، التى يدعو إليها سيد الخلق والبشرية.

بايع سيدنا معاذ بن جبل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى نهاية العقد الثانى من عمره، ضمن السبعين رجلاً والمرأتين يوم العقبة، وسميت ببيعة العقبة الثانية.

رسم لحياته طريقاً جديداً خالف فيه الحياة الجاهلية الأولى وما فيها من ترف ولعب...

فعرض على أهله وكل أقاربه الإسلام، فأسلموا عن آخرهم فضلاً من اللّه تعالى ومنةً منه.

وكونوا جبهة نورانية؛ لنشر الإسلام فى كل بيوت المدينة وحواريها وأزقتها.

وقد أسلم على يديه رضى اللّه عنه عمرو بن الجموح الذى كان سيدا من سادات بنى سلمة، وشريفاً من أشرافها...

وقد اتخذ عمرو بن الجموح صنماً يقال له «مناة»، صنعه من نفيس[1] الخشب، فكان يطيبه بأطيب الروائح ويعتنى به أشد العناية.

---

(١) أجوده وأحسنه.

بين معاذ وآل الجموح:

وقد كان معاذ بن عمرو بن الجموح صديقاً حميماً لسيدنا معاذ بن جبل، وكان ضمن السبعين رجلاً المباركين الذين بايعوا رسول الله ﴿ﷺ﴾.

فقال معاذ بن عمرو: يا ابن جبل أيعجبك حال أبى هذا وما عليه من الكفر؟

فقال معاذ بن جبل: لا .. اجلس حتى نصنع أمراً لأبيك، فيسلم عن اقتناع.

بدأ المعاذان فى تنفيذ ما اتفقا عليه، فذهبا إلى الحجرة التى فيها الصنم «مناة»، وحملوه، وخرجوا به ليلاً، وطرحوه فى حفرة لبنى سلمة تجمع فيها فضلاتهم، وجعلوه منكساً على رأسه[1].

فلما أصبح عمرو بن الجموح لم يجد «مناة» فى مكانه؛ فصرخ، وقال: ويلكم من عدا على آلهتنا فى هذه الليلة؟

وخرج يبحث عنه حتى وجده منكساً على رأسه وسط القاذورات والفضلات، فأخرجه، وطهره، وطيبه، وأعادهُ إلى مكانه!!

ثم قال: وايم الله لو أنى أعلم مَنْ صنع بك هذا لأخزينّه.

وعندما أتى الليل ذهب عمرو بن الجموح إلى فراشه، فتسلل المعاذان إلى «مناة» مرة أخرى، وفعلوا به ما فعلوه الليلة السالفة.

---

(١) سيرة ابن هشام، انظر الفهارس.

فلما أصبح عمرو بن الجموح وجد الصنم في المكان الذى كان فيه قبل ذلك، فأخرجه، وغسله، وطهره، وطيبهُ بالمسك والزعفران..

ثم جاء بسيفه وعلقه فيه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يفعل بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامنع عن نفسك الشر الذى يقع بك، فهذا السيف معك...

وعلق عمرو بن الجموح سيفاً في صنمه!!

فلما أمسى عمرو بن الجموح، ونام، ذهب المعاذان، وعدوا على الصنم، وأخذوا السيف من عنق «مناة»، ثم أخذوا كلباً ميتاً، فقرنوه معه بحبل، وألقوهما في بئر من أبيار بني سلمة، فيها من قذواة الناس وفضلاتهم.

وغدا عمرو بن الجموح فلم يجد صنمه مكانه الذى كان فيه، فخرج يبحث عنه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقرونا بكلب ميت، فلما رآه، وأبصر شأنه، عندئذٍ أنشد قائلاً يذم صنمه.

تا الله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلباً وسط بئرٍ في قرن

أف لملقاك إلهاً مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن(١)

فأسلم عمرو بن الجموح، وحسن إسلامه، وكان من شهداء غزوة أحد...

كان لإسلام عمرو بن الجموح أثراً كبيراً على أهل المدينة، ويرجع الفضل في ذلك لله ثم لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه...

---

(١) الطبقات الكبرى بتصرف يسير.

فأخذ كل من معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وعمرو بن الجموح يدعون إلى الله ورسوله ﴿ﷺ﴾، ويضعون القواعد لقدوم سيد الخلق والبشرية ﴿ﷺ﴾ إلى المدينة...

فلم يزل بيت فى المدينة إلا ودخل فيه الإسلام...

وأشرقت الأرض بنور ربها، وقدم المصطفى ﴿ﷺ﴾ وأصحابه الكرام من أرض الكنانة، مكة المكرمة، مهاجرين إلى المدينة المنورة، فاستقبلهم أهلها أحسن استقبال، وترجموا عما فى قلوبهم من حب وقرب من رجالها وشبابها ونسائها وفتيانها وفتياتها، وأنشدوه:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

لزم معاذ بن جبل سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾، فسمع منه فتأدب وتعلم، وأخذ عنه القرآن حتى أصبح من أعلم الصحابة لكتاب الله وأعلمهم بأحكامه.

وهو من الخمسة الذين جمعوا كتاب الله تعالى فى زمان رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكان معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصارى، وأبى بن كعب، وأبو الدرداء.

أصبح لمعاذ بن جبل مكانةً في قلوب الصحابة والتابعين؛ حتى إذا اختلفوا فى أمر عادوا إليه رضى الله عنه، وانتشر الإسلام فى الجزيرة العربية، وأصبح للمسلمين الفقراء مكانة خاصة عند رسول الله ﴿ﷺ﴾؛ لما ذاقوه من مرار وتعذيب في بداية هذه الدعوة الجديدة.

معاذ يغضب لفقراء الصحابة:

يقول أبو سلمة بن عبد الرحمن:

جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة علم فيها سلمان الفارسي، وصهيب بن سنان الرومي، وبلال بن رباح الحبشي رضي الله عنهم جميعاً.

فقال ابن مطاطية هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل يقصد النبي ﴿ﷺ﴾، فما بال هؤلاء العبيد؟ وأشار إلى سلمان وصهيب وبلال.

فقام معاذ بن جبل فأخذ بمجامع ملابس ابن مطاطية أخذاً شديداً، حتى أتى به النبي ﴿ﷺ﴾ وأخبره بما قاله في حق هؤلاء الصحابة، فقام رسول الله ﴿ﷺ﴾ مغضباً، يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودى الصلاة جامعة.

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أيها الناس: إن الرب رب واحد، وإن الأب أب واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»[1].

فقال معاذ وهو آخذ بمجامع ملابس ابن مطاطية:

يا رسول الله ما تقول في هذا المنافق؟

فقال النبي ﴿ﷺ﴾: «يا معاذ دعه إلى النار».

وتحققت نبوءة رسول الله ﴿ﷺ﴾ في ابن مطاطية، فكان ممن ارتدوا عن الدين في عهد الخليفة الأول أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه.

---

(١) خاتم النبيين بتصرف يسير.

معاذ بن جبل في اليمن:

تدمع عيناه عندما فارق الخليل ﴿ﷺ﴾ ذاهباً إلى اليمن، فقد خرج رسول الله ﴿ﷺ﴾ يودعه ويوصيه، وسيدنا معاذ راكب والنبى الكريم ﴿ﷺ﴾ يمشى تحت راحلة معاذ.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ وهو يوصيه: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟».

فقال معاذ بن جبل: أقضى بكتاب الله.

قال النبى ﴿ﷺ﴾: «فإن لم تجد فى كتاب الله»؟

قال معاذ: فبسنة رسول الله.

قال النبى ﴿ﷺ﴾: «فإن لم تجد فى سنة رسول الله؟»

قال معاذ: أجتهد رأيي ولا أقصر.

فضرب رسول الله ﴿ﷺ﴾ صدر معاذ بيد حانية، وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى به رسول الله»[1].

ثم قال النبى ﴿ﷺ﴾ لمعاذ:

«يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى»[2].

فبكى معاذ وبكى معه المسلمون، ثم التفت النبى بوجهه الشريف نحو المدينة، وقال: «إن أولى الناس بى المتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا».

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٨١.

ويموت معاذ:

وعاد معاذ بن جبل من بلاد اليمن -بعد أن نشر فيها العلم والآداب- إلى المدينة المنورة، وقد انتقل النبى الكريم إلى الرفيق الأعلى.

ولما آلت الخلافة إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه يأتيه سيدنا عمر بن الخطاب، ويعرض عليه أن يشاطر معاذ بن جبل فى ثروته وماله، وكان ذلك فى غيبة معاذ.

فلما حضر معاذ وعرض عليه ما اقترحه الفاروق، ولكن معاذ رضى الله عنه رفض رفضاً قاطعاً وناقشه رأيه، ثم تركه عمر وانصرف..

وفى صباح الغد بحث معاذ بن جبل عن سيدنا عمر الفاروق رضى الله عنهما، فلما رآه قال له: يا أبا حفص لقد رأيت الليلة فى منامى أنى أخوض حَوْمَة ماءٍ، أخشى على نفسى الغرق فيه، حتى جئت فخلصتنى يا عمر[1].

فذهبا معاً إلى دار سيدنا أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وعرض معاذ على أبى بكر ماله كله أو يقاسمه.

فقال أبو بكر: لا آخذ منك شيئاً، إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ حين بعثك كان يريد أن يجبرك، والذى نفسى بيده لا آخذ منك شيئاً قد وهبته لك.

فنظر عمر إلى معاذ وقال له: الآن حَلَّ وطاب.

فلم يسأل معاذ سائلاً بعد اليوم إلا أعطاه وأجزل له فى العطاء..

---

(١) المرجع السابق، وسيرة ابن هشام بتصرف يسير.

أما عن موقف الفاروق تجاه معاذ بن جبل صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ فهؤلاء هم صحابة خاتم الأنبياء، لا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا ويبحثوها تخوفاً على بعضهم البعض..

فيا لها من روعة إنما هو عصر الكمال.

معاذ بن جبل في بلاد الشام:

رحل معاذ بن جبل إلى بلاد الشام معلماً وفقيهاً بجوار سيدنا أبي عبيدة بن الجراح أمير البلاد.

ولما علما بانتقال سيدنا أبي بكر رضى الله عنه، وآلت الخلافة إلى سيدنا عمر كتبا له صحيفة جاء فيها:

من أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب:

سلامٌ عليك...

أما بعد ...

فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر.

فإنا نُحذّرُك يوماً تعنا فيه الوجوه، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته...

فالخلق داخرون، يرجون رحمته، ويخافون عقابه، وإنا نُحدَّث أنَّ أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية، أعداء السريرة..

وإنا نعوذ بالله أن يَنزل كتابنا إليك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا ، فإنما كتبنا به نصيحة لك..

والسلام عليك[١].

فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن كتب إليهما يقول :

من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة ومعاذ بن جبل..

سلام عليكما ..

أما بعد[٢]..

أتانى كتابكما تَذْكران أنكما عهدتمانى وأمر نفسى لى مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة، أحمرها وأسودها ، يجلس بين يدىَّ الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصته من العدل.

كتبتما : فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر ، وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله عز وجل.

وكتبتما : تحذّرانى ما حُذّرت منه الأمم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار .

كتبتما : تحذرانى أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية، أعداء السريرة، ولستم بأولئك، وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرغبة والرهبة، تكون رغبة الناس بعضهم إلى بعض لصلاح دنياهم.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى، انظر الفهارس.

(٢) المرجع السابق.

كتبتما: تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما، وإنكما كتبتما به نصيحة لى، وقد صدقتما..

فلا تدعا الكتاب إلىّ، فإنه لا غنى بى عنكما.

والسلام عليكما..

عودة معاذ بن جبل إلى المدينة:

ثم يعود معاذ إلى المدينة مرة أخرى، فيرسله عمر ساعياً إلى بنى كلاب لأمانته، فيقسم فيهم، ويوزع عليهم صدقات أغنيائهم على فقرائهم، حتى لم يدع شيئا مما أمره الله أن يفعله إلا فعله.

ثم عاد بما ذهب به إليهم من كساء بعيره، لم يزد شيئاً، فقالت له امرأته: أين ما جئت به مما يأتى الولاة والعمال لأهليهم؟

فقال سيدنا معاذ: لقد كان معى ضاغط يحصى علىّ.

فقالت امرأته: قد كنت أميناً عند رسول الله ﴿ﷺ﴾، وعند أبى بكر، أيبعث عمر معك رقيبا يحصى عليك؟

فقامت واشتكت عمر لنسائه، وأشاعت ذلك بينهن، فبلغ ذلك عمر، فدعا معاذ، وقال له: أأنا بعثت معك رقيباً يحصى عليك يا معاذ؟

فقال ابن جبل: ولكن لم أجد شيئاً أعتذر به إليها[1] إلا ذلك.

فضحك عمر وأعطاه شيئاً، وقال له: أرضها، أولم تعلم يا معاذ أن الضاغط هو الله؟

---

(١) يقصد زوجته.

فقال معاذ : نعم، أعلم ذلك جيداً يا عمر .

ولما ولى يزيد بن أبى سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب يقول له :

إن أهل الشام قد كثروا ، وغلظوا ، وملأوا المدائن ، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم . . فأعنى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم .

الفقهاء الثلاثة :

فدعا عمر خمسة رجال مِنَ الذين كتبوا القرآن فى عصر النبى ﴿ﷺ﴾ .

فقال لهم : إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانونى بمن يعلمهم القرآن ، ويفقههم فى الدين . .

فأعينونى رحمكم الله بثلاثة منكم . .

فإن أحببتم فاقترعوا ، وإلا انتدبتُ ثلاثة منكم فليخرجوا . .

فقالوا : ما كنا لنقترع . .

فهذا أبو أيوب الأنصارى شيخ كبير . .

وأما أُبى بن كعب فرجل سقيم . .

وبقينا نحن الثلاثة[1] . .

فقال عمر : ابدأوا بحمص ، فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة ، منهم من يفهم العلم سريعاً ، فإذا رأيتم ذلك فخلفوا أحدكم فيها ، وليخرج واحد إلى دمشق ، والآخر إلى فلسطين .

(١) معاذ بن جبل - عبادة بن الصامت - أبو الدرداء .

فقام أصحاب النبي ﴿ﷺ﴾ بما أمرهم الفاروق، فتركوا عبادة بن الصامت في حمص، وذهب أبو الدرداء إلى دمشق، وذهب معاذ بن جبل إلى فلسطين.

يقول يزيد بن قُطيْبٍ:

دخلت مسجد حمص، فإذا أنا بفتيً جعد الشعر، قد اجتمع حوله الناس، فإذا تكلم كأنما يخرج من فيه[(١)] نور ولؤلؤ..

فقلت: من هذا؟

فقالوا: معاذ بن جبل.

ولما ذهب معاذ وأبو الدرداء إلى دمشق جلس معاذ في إحدى حلقات العلم، فيقول أبو إدريس الخولاني:

دخلت مسجد دمشق، فإذا أنا برجل براق الثنايا، طويل الصمت، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وأخذوا برأيه، فسألت، وقلت: مَنْ هذا؟

فقيل لي: إنه معاذ بن جبل[(٢)].

معاذ يحث على العلم:

وكان رضي اللّه عنه دائماً يقول حديثه المشهور عن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «تعلموا العلم فإن تعلمه للّه تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة،

---

(١) فمه.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٢٨٤.

وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزّيْن عند الأخلاّء.

يرفع الله تعالى به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى الحيتان في البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم.

يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام.

به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء».

إن دل هذا فإنه يدل على أن معاذ بن جبل قد وصل إلى درجةٍ عليا من العلم والآداب والأخلاق الفاضلة، فلم يحجبه العلم عن العمل بما علم.

ولذلك كان علمه -رضى الله عنه- مفتاحاً للقلوب المغلقة، ونوراً للقلوب المظلمة، وبصيرة لمن لم يبصر، وعلماً لمن لم يعلم.

وكان دائماً يقول عن صلاة الجماعة مرغباً في فضلها: من سره أن يأتى الله عز وجل آمناً؛ فليأت هذه الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، فإنهن من سنن الهدى، ومّما سنه لكم نبيكم، ولا يقول أحدكم إنّ لى مصلىً في بيتى؛ فأصلى فيه، فإنكم إن فعلتم ذلك تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم.

وعندما جاء عبد الله بن عمر -هو فى المدينة- أخباراً عن سيدنا معاذ -وهو فى فلسطين- أنه ينشر العلم فى كل أرضها، بل وأرجائها.

قال ابن عمر: مرَّ عمر بمعاذ بن جبل وهو يبكى.

فقال: ما يبكيك يا معاذ؟

فقال معاذ: حديث سمعته من رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «إن أدنى الرياء شرك، وأحب العبيد إلى الله تبارك وتعالى الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يُعرفوا، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم».

حديث مع الشيطان:

ويقول بريدة بن الخصيب -رضى اللّه عنه- عندما علم بما صنعه معاذ فى فلسطين: بلغنى أن معاذ بن جبل أخذ الشيطان على عهد رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فأتيته[1] حتى أستعلم الأمر.

وقلت: بلغنى أنك أخذت الشيطان على عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾.

فقال معاذ: نعم ختم إلىَّ رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ تمر الصدقة، فجعلته فى غرفة لى، فكنت أجد فيه كل يوم نقصاناً، فشكوت ذلك للنبى ﴿ﷺ﴾[2]، فقال لى النبى ﴿ﷺ﴾: «هو عمل الشيطان فارصده».

فقال معاذ:

فرصدته ليلاً، فلما ذهب هَوْن من الليل أقبل على صورة الفيل، فلما انتهى إلى الباب دخل من خلل الباب على غير صورته، فدنا من التمر، فجعل يلتقمه، فشددت علىَّ ثيابى، فتوسطته.

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى.

(٢) سيرة ابن هشام بتصرف يسير.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله ﴿ﷺ﴾، يا عدو اللّه وثبت إلى تمر الصدقة فأخذته وكانوا أحق به[1] منك، لأرفعنك إلى رسول اللّه﴿ﷺ﴾ فيفضحك، فعاهَدنَى أن لا يعود.

فغدوت إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فقال: «ما فعل أسيرك»؟

فقلت: عاهدنى أن لا يعود.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «إنه عائد فارصده».

فرصدته الليلة الثانية، فصنع مثل ذلك، وصنعت مثل ما صنعت المرة الأولى، وعاهدنى أن لا يعود؛ فخليت سبيله، ثم غدوت إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لأخبره، فإذا منادياً ينادى «أين معاذ»؟.

فقال لى: «يا معاذ ما فعل أسيرك»؟

فأخبرته..

فقال لى: «إنه عائد فارصده».

فرصدته الليلة الثالثة، فصنع مثل ما صنع، وصنعت مثل ما صنعت فى الأولى والثانية، وقلت يا عدو اللّه عاهدتنى مرتين، وهذه الثالثة..

لأرفعنك إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فيفضحك..

فقال: إنى شيطان ذو عيال، وما آتيتك إلا من نصيبين من بلاد الجزيرة، ولو أصبت شيئاً دونه ما أتيتك.

ولقد كنا فى مدينتكم هذه حتى بُعِث صاحبكم..

(١) يقصد فقراء المسلمين.

فلما نزلت عليه آيتان أنفرتنا منها، فوقعنا بنصيبين، ولا يقرأن في بيت إلا لم يدخل فيه الشيطان ثلاثاً، فإن خليت سبيلي علمتكهما.

قلت: نعم قال: آية الكرسي، وخواتيم البقرة.

فخليت سبيله، ثم غدوت إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾، لأخبره، فإذا مناديه ينادي: «أين معاذ؟».

فلما دخلت عليه قال لي: «ما فعل أسيرك»؟

قلت: زعم أنه يعلمني كلمات إذا قلتها لم يدخل شيطان بيتي ثلاثة أيام، قال النبي ﴿ﷺ﴾: «فما هي؟».

قال معاذ: أخبرني الملعون بأنها آية الكرسي وخواتيم البقرة.

فقال النبي ﴿ﷺ﴾: «صدق الخبيث وهو كذوب».

فقال معاذ: يا بريدة فكنت أقرأهما على تمر الصدقة بعد ذلك فلا أجد فيه نقصاناً.

وقال شهر بن حوشب واصفاً سيدنا معاذ بن جبل: كان أصحاب النبي﴿ﷺ﴾ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبةً له.

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: لولا معاذ لهلك عمر.

وكان يقول أيضاً: لو استخلفت معاذ بن جبل فسألني ربي لماذا استخلفته؟ لقلت: سمعت نبيك ﴿ﷺ﴾ يقول: «إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل كان معاذ بين أيديهم».

إن هذا الحديث إن دل فإنه يدل على العظمة والمقام الرفيع الذي ناله سيدنا معاذ؛ فهو أول العلماء تقدماً يوم الحشر على الله تعالى.

ويقول أيضاً شهر بن حوشب:

جلس معاذ يوماً في المسجد يعظ الناس، فقال:

«أيها الناس اعلموا وعوا ما أقوله، والذى نفسى بيده لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن جسده فيما أبلاه؟ وعن عمره فيما أفناه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن علمه كيف عمل به؟»

ثم قال: ما عمل آدمى عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله.

فقالوا له يا أبا عبد الرحمن: ولا الجهاد فى سبيل الله؟

قال معاذ: ولا الجَهاد إلا أنْ يضرب بسيفه حتى ينقطع؛ لأن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾(١).

قال له يوماً رجل من أصحابه: يا أبا عبد الرحمن علمنى.

فقال معاذ: وهل أنت مطيعى إذا علمتك؟

قال الرجل: نعم، وإنى على طاعتك لحريص.

فقال معاذ بن جبل: صُمْ، وافطر..

وصلِّ، ونم..

واكتسب ولا تأثم..

ولا تموتن إلا مسلماً..

وإياك ودعوة المظلوم؛ فإنها ليس بينها وبين الله حجاب.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

فما أحوج المسلم اليوم إلى هذه النصائح الجَمْعة الغفيرة بمعانيها، ففيها الخير كله، والعلم كله، والأدب كله.

ويقول سلمة بن سبرة: صعد معاذ بن جبل المنبر يوماً، ونحن في الشام، فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تَسْبون من فارس والروم الجنة.

وذلك بأن أحدكم إذا عمل له -يعني أحدهم- عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله تعالى فيك، ثم قرأ:

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1].

وهنا لنا كلام؛ فنقول:

إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل كان معاذ بن جبل بين أيديهم، بل إمامهم إلى الله تعالى لما له من فضل السابقية والجمعية الكبرى على سيدنا محمد (ﷺ).

من وصايا معاذ:

وتظهر عظمة معاذ بن جبل في وصاياه لأصحاب النبي (ﷺ)، وقد أوصى سيدنا معاذ رجلاً من الصحابة فقال له:

إني موصيك بأمرين إن حفظتهما حُفظت:

إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا..

وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر..

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٦.

فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا حتى تنتظمه لك انتظاماً فتزول به معك أينما زُلت.

يقول عبد الرحمن بن معاذ بن جبل أوصاني أبي فقال: يا بني إذا صليت صلاة فصل صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين حسنة قدمها وحسنة أخرها، واعلم أن هناك ثلاثة مَنْ فعلهن فقد تعرض للمقت: الضحك من غير عجب، والنوم من غير سهر[1]، والأكل من غير جوع.

ومن وصاياه العامة رضي اللّه تعالى عنه وأرضاه: ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن الذهب والفضة ولبسن رقائق الشام وثياب اليمن فأتعبن الغني، وكلفن الفقير ما لا يجد.

وقد قال يوماً لرسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وأصحابه: «إنني لا أخطو خطوة وأظن أنني سأتبعها بأخرى».

فكان رضي اللّه عنه بهذه الكلمات الوضاءة يعيش بين خوف ورجاء، وبين حياة وموت، فهو يعيش وكأنه في كل نفسٍ من أنفاسه راحل إلى الرفيق الأعلى.

ويظهر ورعه وخشيته لربه ورأفته على أحبابه وأصحابه عندما قال له رجال من أهل الشام: لو أمرت أن ننقل لك من هذه الحجارة والخشب فنبني لك مسجداً، فقال معاذ بن جبل: إني أخاف أن أكلف حمله يوم القيامه على ظهري.

---

(١) يقصد بالسهر الابتهال إلى الله، والتضرع والاستغفار، والصلاة على النبي ﴿ﷺ﴾، وقراءة القرآن، ومراجعة سيرة النبي ﴿ﷺ﴾ العطرة.

اللحظات الأخيرة في حياة سيدنا معاذ:

كان سيدنا معاذ بن جبل على موعد بلقاء ربه جل جلاله، فعندما وقع الطاعون ببلاد الشام قال: إن هذا الطاعون رحمة ربكم عز وجل، ودعوة نبيكم ﴿ﷺ﴾، وقبض الصالحين قبلكم، وشهادة يخص الله بها من يشاء منكم..

أيها الناس: أربع خلال من استطاع أن لا تدركه..

قالوا: ما هي؟

قال: يأتي زمان يظهر فيه الباطل، ويأتي زمان يقول الرجل: والله ما أدري ما أنا، لا يعيش على بصيرة، ولا يموت على بصيرة.

ثم توجه إلى الله تعالى بالدعاء قائلاً:

اللهم آت معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة[1].

فما مر يوم إلا وطعن ابنه عبد الرحمن، فلما رجع من المسجد فوجده على فراشه مطعوناً.

فقال معاذ: يا عبد الرحمن كيف أنت؟

فقال عبد الرحمن: يا أبت الحقُ من ربك فلا تكونن من الممترين.

فقال معاذ: وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين..

ولما ذهب الليل كان قد انتقل عبد الرحمن إلى الرفيق الأعلى، فدفن بالنهار.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢٨٨/٣.

لقد ظهرت التربية الحسنة في أشد وأصعب المواقف عندما قال الولد لوالده: «الحق من ربك». لقد أدى معاذ بن جبل الأمانة حق تأديتها عندما رُفع ولده إلى الرفيق الأعلى.

وفى صباح اليوم التالى أصيبت ابنتاه بالطاعون فانتقلا إلى الرفيق الأعلى، وكان من الصابرين.

ثم يبتليه اللّه سبحانه وتعالى فى زوجتيه؛ فيظهر العدل الذى تربى عليه سيدنا معاذ من سيد الخلق وسيد العالمين ﴿ﷺ﴾.

إذا به بعد أن كفنهما يسهم بينهما أيتهما تقدّم على الأخرى فى القبر، ودفنتا فى حفرة واحدة.

وكان رضى اللّه عنه من الصابرين المحتسبين ذلك عند اللّه تعالى، وكان دعاؤه فى ذلك الوقت:

سبحان الحى الذى لا يموت.

ولنا فى هذه الوقائع رأى هو:

أن اللّه تبارك وتعالى أراد أن يكَمْل سيدنا معاذ بن جبل بأكمل حلل الإيمان الكامل، ويتوّجه بتاج اليقين الأكمل..

فيصيبه فى أولاده، فيصبر، ثم فى زوجتيه، فيصبر، ثم فى نفسه، فيصبر.

كل ذلك حتى يتفضل عليه اللّه تعالى بفضله..

فيكون ممن صلى عليهم..

ومنحهم رضوان الأكبر والفوزالعظيم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

فتمت صلوات الله تعالى عليه..

وعمته الرحمة بجميع أنواعها..

وشملته بكل معانيها.

ثم طعن معاذ فى ظهر كفه فجعل يقول: هى أحب إلىّ من حمر النعم.

فيرى رجلاً يبكى فقال معاذ: ما يبكيك؟

فقال الرجل: على العلم الذى كنت أصيبه منك.

فقال معاذ: فلا تبك..

فإن إبراهيم عليه السلام كان فى الأرض وليس بها عالم..

فأتاه الله علماً..

فإذا لحقت بحبيبى ﴿ﷺ﴾ فاطلب العلم عند أربعة:

عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسى، وأبى الدرداء.

وهو فى استحضارة الأخير رأوه يبكى..

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

فقالوا له: ما يبكيك؟[1]

قال: والله لا أبكى جزعاً من الموت ولا بيتاً أخلفه بعدى..

ولكنى سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول:

«إنما هما قبضتان: قبضة فى النار وقبضة فى الجنة، ولا أدرى فى أى القبضتين أكون».

ثم قال معاذ: انظروا أأصبحنا؟

فقيل له: لم تصبح.

فلما أصبح قيل له: قد أصبحت.

فقال رضى الله عنه:

أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً ..

زائر جاء بعد غيبة، حبيب جاء على فاقة.

ثم أردف يقول:

اللهم إنى قد كنت أخافك..

فأنا اليوم أرجوك..

اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها إلا لجرى الساعات..

ومزاحمة العلماء فى تحصيل العلم..

---

(١) سيرة ابن هشام بتصرف يسير.

ثم ظل ينظر إلى السماء وهو يقول:

«اتقوا زلة العالم، وخذوا الحق ممن جاء بـه، وردوا الباطل عن من جاء به».

ثم استقبل القبلة، وبسط يمينه، فرحل، وكأنه على موعد باللقاء ..

إلى أى مكان ترحل يا معاذ ..

ما أظن رحيلك إلا إلى سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾.

على مَنْ تجمع يا معاذ ..

على الشفيع المشفع ﴿ﷺ﴾.

مع مَنْ تكون يا معاذ ..

مع الصحابة الأجلاء:

أهل بدر وأحد والخندق أهل الصفاء والمقام، أهل الفردوس الأعلى ..

فسلام عليك وعلى أولادك وعلى أزواجك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

المقداد بن عمرو

﴿رضي الله عنه﴾

﴿لكني أزوجك ضباعة ابنة
الزبير بن عبد المطلب﴾

﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

«طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٥»

المقداد بن عمرو
(رضي الله عنه)

نسبه:

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن لؤى القضاعى الكندى البهرانى(١).

صفته:

كان رجلاً طويلاً، ،ادم، ذا بطن، أشعر الرأس، ذو لحية حسنة ليست بالعظيمة ولا بالخفيفة، أعين، مقرون الحاجبين، مهيباً، وكان يكنى أبا معبد.

حياته:

صاحبنا هذه المرة جاء من كندة، عاش بين أهله وعشيرته وتعلم الفروسية منذ صغره، فنشأ شجاعاً قوياً، مغرماً بركوب الخيل، وكثيراً ما كانت تستهويه المبارزة مع أحد أترابه، فكان لا يخشى أحداً، ولا يهاب الموت.

وذات يوم، قَتلَ رجلاً من كندة، فرأت عشيرته أن يغادرها ليلاً، وأمام إصرار أهله رحل صاحبنا ليلاً، فنزح إلى مكة.

---

(١) طبقات ابن سعد.

وفى بلد الله الحرام، وقبل بعثة النبى محمد ﴿ﷺ﴾ حالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى، فتبناه الأسود، وأصبح يدعى للأسود بن عبد يغوث.

ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّه فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّه غَفُورًا رَحِيمًا﴾[1].

نُسِب لأبيه عمرو بن ثعلبة البهرانى...

لعلك عزيزى القارئ عرفت عمن نتحدث، إنه المقداد بن عمرو..

عاش المقداد فى مكة وألِفَ أهلها، فلم تتغير طبيعته، ولكنه انخرط وسط المجتمع المكى، فعشق حياتهم، وتعلم أسلوبهم.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى الخير لبنى الإنسان، وأراد أن يخرجهم من عبادة الأحجار التى نحتوها بأيديهم أصناماً، وجعلوها آلهة من دون الله، اختار نبيه وصفيه وحبيبه محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ من مكة المكرمة، وأرسله للناس كافة.

وبدأ بزوغ فجر الإسلام فى مكة..

عندئذٍ سارع إلى ذلك النور كوكبة من أهل مكة وممن يقطنون بها..

فكان بطل قصتنا المقداد بن عمرو سابع سبعة أعلنوا إسلامهم، ولم يخفوه، بل جهروا به على الملأ وسط قريش التى صعقت لهذا النبأ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

ونال المقداد ما ناله أصحابه من العذاب الذى صبته قريش عليهم...

فألبسوهم دروعاً من الحديد، فلم يتحول عن دينه كما أرادت قريش له ولأصحابه.

ولما أذن الرسول ﴿ﷺ﴾ لأصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة، كان المقداد فى طليعة الركب الذى غادر مكة، وغادر قريشاً إلى بلاد الحبشة التى يحكمها النجاشى ذلك الملك العادل، وكان نصرانياً.

ولكن المقداد لم يمكث فى الحبشة كثيراً، وذلك عندما وصلت إليهم أخباراً بإسلام قريش، ففرحوا بذلك، ورجع بعضهم إلى مكة، ولكن هيهات...

فقد كانت أخباراً قد تطايرت إليهم فى الهواء...

فكان المقداد ممن رجع إلى مكة، وفوجئ بأن ذلك كان إشاعة كاذبة اقشعرت منها النفوس..

فلم ترحم قريش العائدين من الحبشة، وخاصة ممن ليس لهم منعة، وليس لهم جوار، فنالت منهم ونكلت بهم...

وكان للمقداد نصيبٌ كبيرٌ من حقد قريش المتمثل فى صور التعذيب التى برعوا فيها.

وحان وقت الرحيل... ولكن إلى أين يكون هذه المرة؟ وكيف حدث ذلك؟!

فى العام الثالث عشر من البعثة[1] أراد الله عز جل أن ينتشر النور الإلهى فى كل بقاع الدنيا ..

فاختار رب العالمين لنبيه محمد ﴿ﷺ﴾ بأن تكون محطة الانطلاق هى يثرب -المدينة المنورة -، فأمره سبحانه وتعالى بالهجرة إليها، وأن يأمر أصحابه بالهجرة أيضاً ....

وكان صاحبنا من أوائل الركب المهاجر إلى المدينة، وهناك نزل المقداد بن عمرو وصاحبه خباب بن الأرت على صاحب من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ الكرام وهو كلثوم بن الهدم[2].

المقداد فى بيت رسول الله ﴿ﷺ﴾:

لما نزل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وأصحابه المدينة قسم أصحابه عشرة عشرة فى كل بيت، فكان المقداد بن عمرو فى العشرة الذين كان النبى ﴿ﷺ﴾ فيهم، وفى ذات ليلة حدث شىء عجيب..

فما الذى حدث فى تلك الليلة؟

فلنترك المقداد يروى لنا بنفسه ما حدث.

يقول المقداد بن عمرو: جئت أنا وصاحبان لى قد كادت تذهب أسماعنا وأبصارنا من الجهد، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٢٣٧٠ بتصرف يسير.

(٢) كلثوم بن الهدم بن امرئ القيس، كان رجلاً شريفاً، وأسلم قبل هجرة النبى ﴿ﷺ﴾ إلى يثرب، وكان صالحا يستقبل فى بيته كل أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ وتوفى قبل غزوة بدر.

رسول الله ﷺ فما يقبلنا أحد ، وذلك لم يكن بخلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكن لفضل سيتفضل به عليهم النبى ﷺ ، حتى انطلق بنا رسول الله ﷺ إلى رَحْله ، ولآل محمد ﷺ ثلاث أعنز يحتلبونها ، فكان النبى ﷺ يوزع اللبن بيننا .

وكنا نرفع لرسول الله نصيبه ﷺ ، فيجىء فيسلّم تسليماً يُسمع اليقظان ، ولا يوقظ النائم ، فقال لى الشيطان : لو شربت هذه الجرعة ، فإن النبى ﷺ يأتى الأنصار فيتحفونه ، فما زال بى حتى شربتها .

فلما شربتها ندّمنى وقال : ما صنعت؟ يجىء محمد ﷺ فلا يجد شرابه ، فيدعو عليك فتهلك .

وأما صاحباى فشربا شرابهما وناما ، وأما أنا فلم يأخذنى النوم ، وعلىَّ شملة لى ، إذا وضعتها على رأسى بدت منها قدماى ، وإذا وضعتها على قدمى بدا رأسى .

وجاء النبى ﷺ كما كان يجىء ، فصلّى ما شاء الله أن يصلّى ، ثم نظر إلى شرابه ، فلم ير شيئاً ، فرفع يده ، فقلت : يدعو علىَّ الآن فأهلِك .

فقال رسول الله ﷺ : «اللّهم أطعم من أطعمنى ، واسقِ من سقانى» ، فأخذت الشفرة[1] ، وأخذت الشملة ، وانطلقت إلى الأُعنز أجسّهن أيتهن أسمن كى أذبحها لرسول الله ﷺ ، فإذا حُفَّل[2] كلُّهن ، فأخذت إناء لآل محمد ﷺ ، كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه ،

---

(١) الشفرة : السكينة العريضة .

(٢) حُفّل : ممتلئة الضروع .

فحلبته حتى عَلَتْه الرَّغْوة[1]، ثم أتيت رسول الله ﴿ﷺ﴾ فشرب، ثم ناولني فشربت، ثم ناولته فشرب، ثم ناولني فشربت، ثم ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض.

فقال النبي ﴿ﷺ﴾ لي: «إحدى سوءاتك يا مقداد».

فأنشأت أحدّثه بما صنعت...

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «ما كانت إلا رحمة من الله عز وجل، لو كنت أيقظت صاحبيك فأصابا منها».

قلت: والذي بعثك بالحق، ما أبالي إذا أصبتَها، وأصبتُ فضلتَك من أخطأت من الناس[2].

بعد أن استقر النبي ﴿ﷺ﴾ وأصحابه في المدينة، اتجه إلى تعميم الدعوة وحماية الضعفاء من المؤمنين الذين كانوا يُفتَنون في دينهم، ويؤذون في اعتقادهم، وكان لابد أن يكون ذلك بقتال المشركين الذين يؤذون المؤمنين، ولابد من استنقاذ البيت الحرام من عبادة الأوثان، وأن تحطم الأوثان التي تحيط به.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ، أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[3].

وكان يوم بدر.

---

(١) الرغوة: أي الزبد.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي: ١/٢٩٢ بتصرف يسير.

(٣) سورة الحج، الآيات: ٣٨، ٣٩.

ساعات قبل غزوة بدر:

علم النبى ﴿ﷺ﴾ أن قريشاً خرجت بجيش لجب، فيه عدد كبير من الفرسان والإبل، وعلم أنها الحرب لا محالة، فأخذ يجمع قلوب جنده، بعد أن جمع عدداً وإن كان قليلاً فى عدده، فهو قوى فى إيمانه.

إن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ واثق من المهاجرين والأنصار، ولكنه خشى أن يفهم الأنصار أن العهد لا يلزمهم أن يخرجوا معه، بل يلزمهم العهد القتال فى المدينة فقط، وأن ليس عليهم أن يسيروا معه لقتال عدو لم يجىء إلى بلدهم...

لذلك أراد النبى ﴿ﷺ﴾ أن يتعرف ما فى قلوب أولئك الذين أووا، وهل ينصرونه فى هذا الموطن أم لا.

فاستشار رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ أصحابه؛ ليظفر بمشورة رجل حسن المشورة، وليتعرف حال جنده مهاجرين وأنصاراً بصفة خاصة، وذلك لنتعلم أن الشورى لا غنى عنها فى الإسلام.

الرسول ﴿ﷺ﴾ يستشير أصحابه:

استشار رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ أصحابه فقال: «أشيروا علىّ أيها الناس».

فتكلم أبو بكر وأحسن القول، وتكلم عمر بن الخطاب فأحسن القول.

وما كان ﴿ﷺ﴾ يريد عمر ولا أبى بكر..

و مستيقن بإيمانهما وإقدامهما..

ولكن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يريد من ورائهم.

فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس»[١]..

وهنا يتقدم المقداد بن عمرو واقفاً بجوار فرس له يقال له -سبخة- وقال[٢]:

يا رسول الله.. امض لما أراك الله، فنحن معك..

والله لا نقول لك، كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٣].

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون..

فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٤] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولسوف نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن خلفك ومن بين يديك، حتى يفتح الله عليك.

فقال رسول ﴿ﷺ﴾ خيراً ودعا للمقداد، وتهلل وجه رسول الله ﴿ﷺ﴾[٥]..

انطلقت كلمات المقداد بن عمرو رضى الله عنه كألسنة اللهب، وأشعلت حماس المسلمين، ودفعتهم لإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله..

---

(١) خاتم النبيين: ٢/٥٤٨ بتصرف يسير.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/١٥٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٤.
(٤) مكان فى اليمن.
(٥) المرجع السابق.

وجعلت الأنصار يُبْدوُن رأيهم، فتكلم عنهم الصحابي سعد بن معاذ رضي اللّه عنه، فقال:

يا رسول اللّه... لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة..

فامض يا رسول اللّه لما أردت، فنحن معك..

فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا.

إنا لصُبرٌ فى الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل اللّه يريك منا ما تقّر به عينك، فسر بنا على بركة اللّه.

عندئذٍ وبعد سماع رسول اللّه ﷺ كلام أبى بكر وعمر والمقداد وسعد، استراح قلب رسول اللّه ﷺ، فقد صدق اللّه سبحانه وتعالى وعده، وها هو رسول اللّه ﷺ معه جيشاً يؤمن باللّه وبالحق، وأنه لا يتردد.

ولذلك سُر النبى ﷺ بقولهم فقال: «سيروا وأبشروا، إن اللّه قد وعدنى إحدى الطائفتين، واللّه لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»[١].

فهب المقداد بن عمرو ووثب فوق فرسه «سبحة»، وقاتل فى ذلك اليوم قتالاً شديداً حتى قال عنه الإمام على كرم اللّه وجهه: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن عمرو[٢].

---

(١) خاتم النبيين بتصرف يسير.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/١٥٤.

انطلق المقداد بين صفوف المشركين كالأسد عاديا، يضرب بيمينه وبشماله، ويقطف رءوسهم، فما وقف أمامه أحد من المشركين، بل كانوا يفرون من أمامه كالجرذان.

الرسول ﴿ﷺ﴾ يزوج المقداد بنت عمه:

أراد المقداد بن عمرو أن يتزوج من قريش، فخطب إلى رجل من قريش، ولكن ذلك القرشي أبى أن يزوجه، وعندما علم رسول الله ﴿ﷺ﴾ بذلك أرسل إليه وقال له: «ولكنى أزوجك ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب»[1] فتزوج المقداد ابنة عم رسول الله ﴿ﷺ﴾.

المقداد يرفض الإمارة:

يقول المقداد: استعملنى رسول الله ﴿ﷺ﴾ على عمل فى إحدى الإمارات، فلما رجعت قال النبى ﴿ﷺ﴾: كيف وجدت الإمارة؟

قال: كنت أُحمل حتى رأيت بأنَّ لى على القوم فضلاً.

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: هو ذاك فخذ أو دع.

فقال المقداد: والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبداً[2].

ياله من رجل، يرفض الإمارة لأنه يرى فيها الفتنة، فكثيراً ما ردد حديث رسول الله ﴿ﷺ﴾: «إن السعيد لمن جنب الفتن».

فكانوا يقولون له: تقدم يا صاحب رسول الله فصلَّ بنا، ولكن المقداد كان يرى فى الإمامة إمارة أيضاً، فيرفض ويأبى أشد الإباء.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) حياة الصحابة: ٢/٢٢٧ بتصرف يسير.

نعم إنه المقداد الذى سُئل عنه حبر الأمة عبد الله بن مسعود يوماً فقال :

لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحَبّ إليّ مّما عُدل به، إنه أتى النبى ﴿ﷺ﴾ وهو يدعو على المشركين فقال : يا رسول الله إنا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى :

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبى ﴿ﷺ﴾ يشرق لذلك ويسره[2].

إتيانه المال من حيث لا يحتسب:

قالت السيدة ضباعة بنت الزبير زوجة المقداد رضى الله عنهما : فى ذات يوم، خرج المقداد لحاجته حى بلغ الحجبة -وهو ببقيع الفرقد- فدخل خَربة لحاجته، فبينما هو جالس إذ أخرج جُرْذٌ[3] من جُحْره ديناراً، فلم يزل يُخرج ديناراً حتى بلغ سبعة عشر ديناراً، فخرج المقداد بن عمرو بالدنانير حتى جاء بها رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأخبره خبرها، وسأله : هل من صدقة فيها؟

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : هل اتبعت يدك الجحر؟

قال المقداد : لا، والذى بعثك بالحق.

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد : ٢/١٥٤.

(٣) ذكر الفأر الكبير.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : لا صدقة عليك فيها ، بارك الله لك فيها[1] .

ما هذا يا صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ ؟

تذهب وتسأل رسول الله ﴿ﷺ﴾ عليهم صدقة أم لا؟

إنهم أصحاب محمد ﴿ﷺ﴾ الذين سيمتد نورهم عبر الأجيال الوافدة ، والأزمنة المقبلة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

المقداد الحكيم:

إذا كان رأى المقداد فى الإمارة كما رأينا ؛ فيكف يكون رأيه فيمن يتمنى أن يكون قد عاش فى عهد رسول ﴿ﷺ﴾؟

فتعالوا بنا نقترب منه فى خشوع وغبطة ، ونسمع منه ، ونرى كيف يكون رده على رجل قال له يوماً : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدتَ؟

فقال رجل كان يجلس مع المقداد : فاستمعت إلى ذلك الرجل ، فجعلت أعجب ، وأقول ما قال إلا خيراً .

فقال المقداد : ما يحمل أحدكم على أن يتمنى مشهداً غيبه الله عز وجل عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه؟!

والله ، لقد حضر رسول ﴿ﷺ﴾ أقوام أكبهم الله عز وجل على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه!!

أولا تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون إلا ربكم ..

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوى : ٤/٤٧٣ .

مصدقين بما جاء به نبيكم (ﷺ)، وقد كفيتم البلاء بغيركم؟

والله، لقد بُعث النبى (ﷺ) على أشد حال بُعث عليه نبى من الأنبياء، فى فترة وجاهلية، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق بين الوالد وولده، حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً، وقد فتح الله تعالى قلبه للإيمان، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه[1] فى النار، وإنها للتى قال الله عز وجل:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[2].

رأى المقداد فى المداحين:

دخل المقداد يوماً على عثمان بن عفان رضى الله عنهما فوجد رجلاً يمدح عثمان رضى الله عنه، فجثى على ركبتيه وجعل يرمى فى وجه الرجل الحصى، فتعجب عثمان بن عفان رضى الله عنه وقال للمقداد: ماشأنك؟

فقال المقداد: إن رسول الله (ﷺ) قال: إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا فى وجوههم التراب.

المقداد يحرص على الحق:

خرج المقداد بن عمرو فى سرية، وقد تمكن العدو من حصار هذه السرية..

---

(١) صاحبه وحبيبه.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧٤.

فأمر أمير السرية ألا يخرج أحد بدابته حتى لا يقع أى مكروه بأحد أفراد السرية...

سمع كل الجنود هذا الأمر العسكرى، وحرصوا على تنفيذه إلا رجلاً لم يكن قد أحاط بالأمر خبراً، فخرج هذا الرجل وعلم أمير السرية بذلك، فأنزل بالرجل العقوبة..

ولكن الجندى رأى أن العقوبة كانت أكثر مما يستحق، فجلس يبكي وينتحب...

فمر المقداد بن عمرو بالرجل ورأى بكاءه، فسأله: ما الذى يبكيك يا رجل؟ فأخبره الجندى بما حدث.

فأخذه المقداد وذهب به إلى الأمير، فتكلم معه المقداد صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبيَّن له أن هذا الرجل لا يستحق كل ذلك العقاب، وأنه ظلمه.

فاعترف الأمير أمام الرجل وأمام صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾، فقال المقداد: والآن أقِدْهُ من نفسك، ومكّنه من القصاص!!

فما كان من الأمير إلا أن جلس أمام الجندى حتى يقتص منه أمام كل الجنود، ولكن ذلك الجندى عندما رأى ذلك عفا عن أميره.

فقال المقداد: لأموتن، والإسلامُ عزيز[1].

المقداد يصمم على الجهاد:

ولما كان المقداد بن عمرو حريصاً على الخروج فى كل الغزوات والسرايا، لا يريد أن تفوته سرية أوغزوة..

---

(١) رجال حول الرسول بتصرف يسير.

فقد قال أبو راشد الحبراني: رأيت المقداد بن عمرو فارس رسول الله ﴿ﷺ﴾ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة[1] بحمص، قد فَضَل عنها من عَظِمةِ[2]، يريد الغزو مع جنود الله..

فقلت له: لقد أعذر الله إليك.

فقال المقداد: أتت علينا سورة البعوث[3] ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾[4] فلا أجدني إلا خفيفاً.

لك الله يا مقداد، لا تستطيع الدواب حملك ولكنك تحرص على الجهاد.

وجاء وقت الذهاب:

وفي عام ثلاثة وثلاثين أوصى المقداد للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفاً، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم.

وفي الجُرفُ[5] مات المقداد بن عمرو على أثر شربة شربها من دُهْن الخِرْوَع..

فحُمل على رقاب الرجال حتى دفن في البقيع بمدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾...

---

(١) من يبادل النقود بغيرها.

(٢) كناية عن ضخامة جسمه.

(٣) سورة التوبة.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٥) مكان على ثلاثة أميال من المدينة.

وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان أمير المؤمنين وأصحاب رسول الله ﷺ، ممن كانوا بالمدينة..

وجلس عثمان بن عفان رضى الله عنه يثنى على المقداد بعد دفنه، فقال الزبير بن العوام:

لا أُلفيَنَّك بعد الموت تندُبُني   وفي حياتي ما زوَّدتَني زادي

فسلاماً على المقداد يوم بدر..

وسلاماً على المقداد فى أحد..

وسلاماً على المقداد فى جنات النعيم..

حمزة بن عبد المطلب

﴿ رضي الله عنه ﴾

﴿سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

حمزة بن عبد المطلب
(رضي الله عنه)

نسبه:

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى.

وأما أمه فهى هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة.

صفته:

ليس بالطويل ولا بالقصير، يسرك إذا نظرت إليه، يحبه كل من يراه، عليه سمة الصالحين، حكيما فى كلامه.

مولده:

ولد حمزة -رضي الله عنه- قبل يوم الفيل بأربعة أعوام، كما كان حمزة أخا لرسول الله ﴿ﷺ﴾ من الرضاعة، إذ غذتهما السيدة حليمة السعدية من ثدييها معا.

كما كانت أم حمزة السيدة هالة بنت أهيب أرضعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوما، وهو عند حليمة السعدية، كما أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب، وكانت قد أرضعت معهما أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى قبلهما.

وحمزة بن عبد المطلب هو أحد الذبحاء الذين نجوا بقدرة الله مع إخوته من نذر أبيهم..

حيث نذر إن أعطاه الله عشرة من الذكور فسوف يذبح أحدهم.

وكانت أخلاقه تدعوه إلى الطاعة المطلقة، فما أُثِر عنه أنه قال لوالده يوما: «لا»، بل كان مطيعا كل الطاعة، حيث سلم نفسه إلى أبيه؛ ليفى بنذره الذى قطعه على نفسه أن يذبح أحد أبنائه؛ إذا رزقه الله بعشرة من الذكور.

عسكرية مبكرة:

كبر حمزة فى البادية، واشتد عوده على الهواء النقى، بعيدا عن عفن عقائد أهل مكة؛ حيث عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، فنشأ محبا للفروسية والرمى، ولم لا؟

أليس هو الفارس الذى إذا رمى لا يخطئ الرمى؟

بلى.

أليس هو الذى صال وجال، وكاد الأعداء أشد الكيد.

ولما أتم حمزة رضاعه عند السيدة حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية عاد إلى مكة، حيث عشق الصيد، فكان لا يخطىء إذا رمى بأى شىء يراه أمامه.

وقد شارك مع قومه في حرب الفجار، وكان سنه آنذاك عشرين عاما، كما شارك رسول الله (ﷺ) فيها، وذلك قبل بعثته الشريفة.

ولنسمع ماذا قال رسول الله (ﷺ) فى هذه الحرب:

«قد حضرته مع عمومتى..

ورميت فيه بسهم..

وما أحب أنني لم أكن فعلت».

وكان يوم الفجار هذا بعد الفيل بعشرين عاما[1].

ومضت الأيام، وكرت السنون، وحمزة وسيدنا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يكبران معا..

رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يذهب لغار حراء يتعبد للّه تعالى الواحد القهار متسائلا:

من خلق السموات والأرض؟

من خلق الشمس والقمر؟

من خلق الدواب والشجر؟

أما حمزة فكان يدرب نفسه على الفروسية والصيد، وكأنه كان يؤهل نفسه لمهمة تنتظره في يوم ما..

ما هذه المهمة؟

ومتى يكون ذلك اليوم؟

إنه يوم المحنة..

يوم أحد..

وتمضى الأيام..

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/٨٦.

وتتعاقب السنون..

وتتصل السماء بالأرض؛ لتبعث إليها وهج الوحى ونور النبوة؛ لتستريح قريش، بل العالم كله من كل ما يعانى منه من اضطراب وفوضى وتخبط فى أمر الإله، ومن يكون الإله الحق؟

فيبعث اللّه تعالى رحمة العالمين محمداً بن عبد اللّه ﴿ﷺ﴾ نبيا ورسولا، لا إلى قومه خاصة بل إلى الناس عامة.

فيشغل هذا الرسول الجديد ﴿ﷺ﴾ بال قريش..

فهى اليوم لن يهدأ لها بال، ولن يقر لها قرار؛ لأنها أدركت أن فى هذا الدين القادم الجديد عليها فيه تقويض لعرشها..

وتنكيس لأعلامها..

وفقدانا لسيادتها..

إذن فلتحاربه كل الحرب، ولتعاديه كل العداوة.

وتحدث المصادمة بين الحق والباطل.

وتنشب نار الحقد والضغينة فى صدر أبى الحكم بن هشام الملقب بأبى جهل..

إنها نار يريد لها أن تأتى على كل شىء..

على الأخضر واليابس..

لماذا لم يكن هو النبى فى عشيرته؟ لماذا؟ ولماذا......؟

حمزة يرهب الفرعون:

هكذا ظلت تحدثه نفسه الخبيثة، ولكنه يرى أمامه حمـزة بـن عبـد المطلب.. بطلا مغوارا، وفارسا هماما، وراميـا لا تخطئ رميته، بيـد أن حمزة لما يسلم، ولكن أبا جهل كان يخشاه.

هنالك بدأ حمزة يشعر بما فى صدر أبى جهل نحو ابن أخيه ﴿ﷺ﴾، ولكنه مع كل هذا فهو مطمئن؛ لأنـه يعلم أن أبـا جهـل لا يستطيع أن يمس ابن أخيه بسوء مادام حمزة موجودا على ظهر هذه الحياة.

ولكن أبا جهل لجهله وطيشه وسفهه لم يقـدر عواقـب الأمـور، ولم يزن الأمور بميزانها الحق.

ففى ذات يوم أراد الله فيه الخير والنجاة لحمـزة عم النبى ﴿ﷺ﴾ حين خرج إلى صيده، وكان لا يخرج إلى الصيد إلا وفى صحبته أدواته، فمعه قوسه ورمحه وفرسه وإداوة يحمل فيها صيده.

قضى حمزة نهاره خارج مكة، ولم يعد إليها إلا عند الغروب، وفى طريق عودته شغله أمر ابن أخيه محمد ﴿ﷺ﴾، وما يكنه أبو جهل لـه في صدره من حقد وكراهية..

ولكنه وأثناء عودته حدث له ما غير مجرى حياته..

فما الذى حدث؟

كان من عادة حمزة إذا آب من الصيـد لا يذهـب إلى بيتـه قبـل أن يذهب إلى الكعبة، فيطوف بها، ولكنه فى هذه المرة تغيرت عادته، فلم يذهب إلى الكعبة كالعادة بل ذهب لمهمة أخرى.

فما هي يا ترى تلك المهمة؟

بينما هو راجع من صيده مرّ بخادمة لعبد الله بن جدعان فقالت له :

يا أبا عمارة : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد اليوم من أبي الحكم بن هشام؟ فلقد وجده ها هنا جالسا فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه ابن أخيك .

سمع حمزة ما قيل من هذه الجارية ، وأصغى إليها جيدا ، والدماء تغلي في عروقه من أجل ابن أخيه محمد ﴿ﷺ﴾ ، وأخيه في الرضاعة ، وظل يفكر مع نفسه ، ويهاتفها محدثا لها :

أيفعل أبو جهل هذا ، وهو يعلم أنني ما زلت بمكة؟!

والله لسوف أنال منك يا أبا جهل .

وكأن العناية الإلهية تلحظه وترعاه ، وتعده لما هو آت في حياته النورانية القادمة .

حمزة يعلن إسلامه:

فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ممن كان يقف يحادثهم ، وكان أبو جهل شغله الشاغل ، فظل يبحث عنه هنا وهناك ، ثم دخل حمزة المسجد ، فنظر إلى الجالسين جيدا ، وقرأ وجوههم ، إلى أن لمح بعين كعين الصقر أبا جهل وسط نفر من بني مخزوم جالسا بينهم ، فأقبل حمزة عليه مندفعا كسهم أطلق من قوسه ، حتى وقف على رأسه ، ثم رفع قوسه عاليا ، فأسقطه على رأس أبي جهل بضربة كان لها دوى في أركان البيت الحرام ، كما كان لها دوى عظيم في قلب سيدنا حمزة .

وحينئذ قال حمزة والدماء تسيل على وجه أبي جهل:

أتشتم محمد، وتسبه، وأنا على دينه أقول ما يقول؟

فإن كان فيك مروءة فانهض ورد على ذلك إن استطعت.

كانت كلمات حمزة كشرر ملتهبة، لفحت عقول الحاضرين، بل لفحت عقل أبي جهل بصورة جعلته لا يدرى ماذا يفعل؟

ولا يدرى ماذا يقول؟

ومن ثم فبعد أن زالت المفاجأة عن الحاضرين.. قام بعض الحاضرين -وكانوا من بنى مخزوم- إلى حمزة؛ لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل وكان ما زال وهول المفاجأة أنسته من هو:

دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه.

ثم أردف يقول فى نفسه:

اليوم يا أبا الحكم قد عز محمد وامتنع.

انتشر خبر إسلام حمزة فى كل أنحاء مكة، أعلاها فضلا عن أسفلها، وعرف كل رجل فى مكة أن حمزة قد أسلم، ولكن ماذا فعل حمزة بعد ذلك؟

انصرف من أمام أبى جهل، ثم عاد إلى بيته، وأغلق عليه بابه، وقال فى نفسه:

ماذا فعلت ياحمزة؟

وراودته أسئلة كثيرة..

ماذا حدث اليوم يا أبا عمارة؟

كيف تركت دين آبائك وأجدادك في لمح البصر هكذا؟

أتومن حقا أن محمد ابن أخيك وأخوك في الرضاعة هو خاتم الأنبياء حقا؟

ولم لا ..؟

أليس هو الصادق بيننا، والأمين على حوائج قريش؟

ظل حمزة يسأل نفسه هذه الليلة، ولم تر عيناه النوم، ثم خرج إلى الكعبة، وتوجه إلى السماء، ورفع يده، وقصد كل شيء يراه أمامه، فالسماء واسعة، والفضاء ليس له حدود.

توجه حمزة إلى السماء بوجهه، ونظر فيها، ثم نظر حوله، وأتبع نظراته بنظرات أخرى، وقصد كل قوة أمامه.

يقول سيدنا حمزة [1]:

بعد ما فعلته مع أبي جهل، قلت له ما قلت، وذهبت إلى البيت، فأدركني الندم على فراق قومي، وبت من الشك في أمر عظيم، لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة، فتضرعت إلى اللّه أن يشرح لي صدري للحق، ويذهب عني الريب، فاستجاب اللّه تعالى لي، وملأ قلبي يقينا، وغدوت إلى سيدنا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فأخبرته بما كان من أمري، فدعا اللّه تعالى أن يثبت قلبي على دينه.

---

(١) سيرة ابن هشام، خاتم النبيين، الطبقات الكبرى، انظر الفهارس.

كان إسلام حمزة فى السنة السادسة، منذ أنزل الله الوحى على سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾[1].

ولقد أصبح للمسلمين بإسلام سيدنا حمزة قوة لا يستهان بها، وأصبح الإسلام يراود كثيرا من شباب مكة؛ لأنهم يرون فى عقيدته، وقوته ما قد حظى به بعناية الله تعالى.

حمزة وإسلام عمر بن الخطاب:

كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى دار الأرقم بن الأرقم، يجلس بين أصحابه، حيث حمزة عن يمينه، وأبو بكر عن يساره، ومعهم على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، وبينما هم جلوس إذا بالباب يطرق.

يا ترى من الطارق؟

وتأتى المفاجأة الكبرى؛ حين يعلمون أن الطارق عمر بن الخطاب، وقد امتشق سيفه، وكان يومها ما يزال على دين قومه من الشرك.

فقال حمزة بن عبد المطلب: أتأذن لى يارسول الله، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه.

فينهض النبى ﴿ﷺ﴾ ويأخذ بتلابيب ثوب عمر، ويهزه الرسول ﴿ﷺ﴾ هزة عنيفة، فيتمايل هذا الجبار فى يد الرسول ﴿ﷺ﴾ ضعيفا هزيلا، وكأنه العصفور بلله القطر.

ولكن يخفف الرسول ﴿ﷺ﴾ من القبضة..

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى.

ويعلن عمر الاستسلام..

لماذا؟

لأن وهج نور النبوة قد سرى فى فؤاده، وقلبه، وعقله، وما هى إلا لحظات لا أظنها كثيرة حتى أعلن عمر إسلامه، ودخل عمر بن الخطاب الإسلام، وهو إجابة دعوة دعاها النبى ﷺ، وأمل ترقبه النبى ﷺ؛ حيث دعا اللّه قائلا:

«اللّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب»..

فكان عمر أحب الرجلين إلى اللّه، وإلى نبيه ﷺ.

حمزة فى غزوة بدر:

باتت قريش تتحفز لسيدنا رسول اللّه ﷺ، ومن معها بصناديدها، وشياطينها..

فأظهرت كل أحقادها الدفينة، وأظهرت كل قوتها، وخرجت بكل أسلحتها من ضغينة، وكراهية للحق، يريدون بذلك إطفاء نور اللّه فى الأرض، فتجهزوا وأسرعوا فى جهازهم، ولم يتخلف من أشرافها أحد..

سبحان اللّه.. يقودون أنفسهم للجحيم!

أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين؟

والتقى الجمعان فى يوم بدر الذى يعد أول مواجهة عسكرية بين الحق والباطل..

بين الحق متمثلا فى رسول الله ﷺ ومن آمن معه..

والباطل المتمثل فى طواغيت قريش أبو جهل وأترابه..

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى، وكان رجلا شرسا سيء الخلق.. فقال: والله لأشربن من حوضهم هذا أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه..

فلما خرج خرج إليه سيدنا حمزة، فالتقيا وجها لوجه..

عندئذ -وكعادة حمزة- ضربه ضربة واحدة، جمع فيها كل قوته، فطارت منها قدم المخزومى بنصف ساقه، وهو دون الحوض، ولم يكن قد وصل إليه بعد..

بيد أن إصابة المخزومى كانت كبيرة، ولكنه أصر على أن يبر فى يمينه، حينئذ لم يتركه حمزة، فتبعه، فقتله عند الحوض..

ثم بدأت المعركة تأخذ طابعا آخر، وهو طلب المبارزة، فخرج عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، ودعوا للمبارزة..

فخرج إليهم ثلاثة شباب من الأنصار، وهم عبد الله بن رواحة، وعوف، ومعاذ بن عفراء، فقال عتبة ومن معه: من أنتم؟

فقال المسلمون: رهط من الأنصار.

فقال عتبة: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى بعضهم وقال يا محمد: أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا..

عند ذلك كان رسول الله ﷺ قد اختار لهم ثلاثة رجال من المسلمين.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾:

قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على.

فقام فرسان الله الثلاثة طاعة لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾، وطلبا للشهادة قبل النصر، فلما أبصرهم عتبة بن ربيعة ومن معه قال:

من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب.

فقال عتبة: نعم، أكفاء كرام..

وبدأت المبارزة، وعلى صليل السيوف بارز حمزة شيبة بن ربيعة، ولكن حمزة لم يعط شيبة فرصة حتى يرفع سيفه، فضربه ضربة فقتله..

وبارز سيدنا على الوليد بن عتبة، ولم يكن أبو الحسن ليقل عن عمه فى القتال، فلم يمهل الوليد، ولم يعطه فرصه للمبارزة، فقتله..

أما عبيدة بن الحارث فبارز عتبة بن ربيعة، وكان عتبة يجيد القتال، فاختلفا فى ضربتين.. كلاهما أصاب الآخر إصابة بالغة، فلما رأى حمزة وعلى ما أصاب عبيدة كرا على عتبة، وضرباه ضربة رجل واحد، فقتلاه، وحملا عبيدة إلى أصحابه؛ ليسعفوه.. ثم حمت المعركة، والتقى الجمعان، واستغاث الرسول ﴿ﷺ﴾ برب العباد..

ونزلت الملائكة من السماء، وشهد جبريل القتال..

رأى أمية بن خلف وهو من أكبر كفار قريش رجلا على صدره ريشة نعامة، وكان عندئذ يحتمي في عبد الرحمن بن عوف؛ لينجو بنفسه.

فقال أمية لعبد الرحمن: يا عبد الإله من هذا الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟

فقال عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب.

فقال أمية: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل.

هذا حمزة في غزوة بدر أولى المعارك التي التقت فيها فئتان: فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأى العين، وانجلت المعركة، وانقشع غمامها عن قتل سبعين رجلا من المشركين، وأسر سبعين آخرين..

وبات على هذا لقريش ثأر عند محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾، فكانت غزوة أحد.

ولكن أين حمزة في غزوة أحد ثاني مواجهة عسكرية بين المسلمين والمشركين؟

قريش بعد بدر:

كانت مكة بعد غزوة بدر وما أصاب قريش فيها تغلي بأهلها، فقد رأى سادة قريش أن محمدا قد أصبح في منعة وقوة، وأن شأنه يزداد خطراً يوما بعد يوم، وكان على قريش أن تلم شعثها، وتستجمع قوتها، وتوحد صفوفها، فبعثوا برسلهم إلى القبائل العربية يدعونهم إلى مناصرتهم، وتأليب من كان معهم على محمد وأصحابه.

وأجمعت قريش جمعها، وصمموا على إخراج النساء معهن يذكرنهم بقتلى بدر، ويمنعنهم من الفرار أمام ضربات المسلمين الموجعة..

وهنا يبعث العباس بن عبد المطلب عم النبى ﴿ﷺ﴾ إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يخبره ومعه المسلمون بما تبيته قريش لهم.

ولنتنح الآن جانبا؛ لنقترب من الكعبة، حيث نلمح رجلا من سادة قريش يقف مع عبد حبشي يكلمه، ويتحدث إليه..

فما كان يقول له؟

إنه جبير بن مطعم، ذلكم الرجل الذى قُتِل عمه طعيمة فى بدر، حيث يقول لذلك العبد:

إن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة فأنت عتيق.

فقال وحشى أمام هذا العرض السخي: ومن يضمن لى الوفاء بذلك؟

فخرج وحشى معه إلى الكعبة؛ ليعطيه الميثاق والعهد، وجبير يسير أمامه حتى وصلا إلى الكعبة المشرفة، حيث كان سادة قريش يجلسون هنالك، فقال جبير:

يا معشر قريش أشهدكم بأن وحشى حر إن قتل حمزة بن عبد المطلب!

يا اللّه.. هل يصل الحقد والغيظ إلى هذا الحد؟ رجل يتنازل عن عبده إن شفى غليله، وأراح قلبه، وقتل حمزة عم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾؟

ماذا فعل حمزة ليشعل هذه القلوب غيظا وحقدا إلى هذا الحد؟

ولكن هنا يتبادر إلينا سؤال يقول:

هل جبير وحده هو الذى اشتعل قلبه كيدا وحقدا على حمزة؟

إننا عندما نستنطق الأحداث، ونستجلي الوقائع نقول: ليس جبيراً وحده في هذا الشأن، فهناك امرأة قد تكون أشد حقدا وكراهية وغيظا من حمزة بن عبد المطلب..

إنها هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان بن حرب، فقد ذهبت هي الأخرى إلى هذا الوحشي الوحش، تطلب عنده القصاص من حمزة.

ولكن ما المكافأة التي وعدته بها..

فالأول وعده أن يعتقه ويفك إساره، وأما هي فبم وعدت؟

لقد وعدته بشيء آخر يسيل له لعاب مثل هذا العبد، ولنستمع إليها، وهي تقول:

أبا دسمة.. اشف واستشف ولك كل حُلِيّ وسأزيدك.

ولكن لماذا هذا العرض السخي؟

كان هذا العرض لأن أباها وعمها وأخاها قُتلوا جميعا يوم بدر.

وليتها ترضى بقتل حمزة فقط، ولكن الأمر لأفظع من ذلك بكثير، فقد أقسمت أن تنال من كبد حمزة إن هي ظفرت به.

ويأتي يوم اللقاء، ويخرج عثمان بن أبي طلحة يحمل لواء الكفار، ودعا للمبارزة وقال أبياتا نذكر منها:

إن على أهل اللواء حقا   أن تخضب الصعدة أو تندقا

فخرج إليه أسد الله ورسوله ﴿ﷺ﴾، فضربه حمزة ضربة بسيفه على كاهله، فقطع يده، وكتفه، حتى انتهى إلى مؤتزره..

ثم رجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج، فسر رسول الله ﴿ﷺ﴾ بذلك، وكبّر المسلمون، وشدوا على المشركين يضربونهم، ويعملون فيهم سيوفهم، حتى أثخنوا فيهم الجراح..

وانكشف المشركون، وفروا أمام جنود الله الأشاوس.

انقلاب الموازين:

وترك الرماة مواقعهم، وانكبوا يجمعون الغنائم من المشركين الفارين منهزمين مخالفين بذلك أوامر القائد الأعلى محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾، فاختلت الموازين، وانقلبت الكفة، وتغير ميزان المعركة..

فالمهزوم قد صار منتصرا، والمنتصر قد صار مهزوما، وما كان لشيء من ذلك أن يحدث إلا وفق تقدير الله تعالى، ومشيئته، فللّه تعالى في هذه حكمة، تجلت هذه الحكمة في قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٠ - ١٤٣.

نعم تلك الأيام، يداولها ربنا بيننا، فيوم نساء، ويوم نسر، والأيام دول، فيوم لك، ويوم عليك.

ولنرجع إلى حمزة، وماذا فعل في يوم أحد، فلنسمعه يقول:

أنا أسد اللّه، وأسد رسوله، اللّهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يقصد أبا سفيان وأصحابه- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يقصد ترك الرماة مواقعهم-.

وظل يضرب بسيفه عن يمين وشمال، يطوح رءوس المشركين، ولم يقف أمامه سيف.

بين وحشى وحمزة:

ولكن الاعتراف إذا جاء من صاحب القضية يكون الصدق الذى لا صدق معه أو بعده، فلنترك وحشى المسلم اليوم والكافر العبد بالأمس يحكى لنا ما حدث على لسانه هو، فماذا قال؟

«كنت غلاما لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق، فخرجت مع الناس، وكنت رجلا حبشيا، أقذف بالحربة قذف الحبشة، قل ما أخطئ بها شيئا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة، وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس كالجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدا، ما يقوم له شيء، فواللّه إنى لأتهيأ له أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر؛ ليدنو منى، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى، وقال:

بارزنى ياحمزة.

فلما رآه حمزة أسد اللّه قال: هلم إلى يا ابن مقطعة البظور، ثم ضربه ضربة فلقت رأسه، فقتله وسط بركة من الدماء، وكان حمزة يقاتل ذلك اليوم بسيفين، ويقول: أنا أسد اللّه، وجعل يقبل، ويدبر، فبينما هو كذلك، فإذا به يعثر عثرة أوقعته على ظهره، وبصرت به.

يقول وحشى: عند ذلك وقفت من حمزة موقفا أرضاه، وجعلت أهز حربتى، حتى إذا اطمأننت إليها فدفعتها عليه، فوقعت فى ثنته أسفل بطنه، وخرجت من بين رجليه، فنهض؛ ليأتى نحوى، فخطا خطوتين متثاقلا، ثم لم يستطع المقاومة، وما زالت الحربة فى جسده حتى سقط على الأرض، وتركتها فيه حتى أيقنت أنه مات، ثم أتيته فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى المعسكر، وقعدت فيه؛ إذ لم تكن لى حاجة بغيره، إنما قتلته لأعتق».

عند ذلك رأت هند وحشيا ينفض يديه من المعركة، وعرفت أنه قتل حمزة، فدفعت بقلادتها، وقرطيها الذهبيين إليه، وقالت: هما لك يا أبا دسمة فاحتفظ بهما فإنهما، ثمينتان.

ولكن هل شفى غليلها قتل حمزة؟

هل اكتفت بقتله؟

الجواب على ذلك لا ..

لم تكتف بذلك، بل أسرعت هند إلى حيث يرقد أسد اللّه شهيدا، فبقرت بطنه، وجدعت أنفه، وفقأت عينه، وصلمت أذنيه، وأخرجت كبده، وحاولت مضغها؛ لكى تشبع الرغبة المسعورة المستعرة

بداخلها، ولكنها لما لم تستسغها لفظتها، فبدت وكأنها ذئب عكف على جسم فريسته ينهش منها، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم صرخت بأعلى صوت تملكه، وكأنها تخاطب أباها وأخاها وعمها قائلة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه بكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى أزاح وحشى غليل صدرى

ثم انصرف المشركون من أحد راجعين إلى مكة، وأبو سفيان بن حرب يردد: يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

الرسول (ﷺ) يستعرض الشهداء:

وبعد أن انسحبت قريش من ميدان المعركة تماما عاد رسول الله (ﷺ) وأصحابه إلى ساحة القتال؛ ليقف على شهداء أحد من المسلمين..

وهنا تقع عيناه على منظر بشع غريب، وعلى صورة لم تألفها العرب فى القتلى..

وجد عمه حمزة وقد مُثّلَ به أبشع تمثيل، وجده فى بطن الوادى، وقد فعلت به هند ما فعلت، فقال النبى (ﷺ):

«لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلا منهم».

ولما رأى المسلمون مدى ما غلب على النبى ﴿ﷺ﴾ من حزن لمقتل عمه حمزة قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم قتلة لم يمثلها أحد من العرب.

عند ذلك قال النبى ﴿ﷺ﴾: «لن أصاب بمثلك أبدا، ما وقفت موقفا أغيظ إلى من هذا، وجاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»[1].

عند ذلك أقبلت صفية أم الزبير بن العوام، وأخت حمزة رضى الله عنه، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ للزبير: «القها فارجعها، حتى لا ترى ما حدث لأخيها».

فقال لها الزبير: يا أمه إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يأمرك أن ترجعى.

فقالت: ولم وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، ثم أردفت قائلة:

لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فعاد الزبير بن العوام إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأخبره بذلك، فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «خل سبيلها».

وكانت السيدة صفية عندما سمعت بأمر أخيها أعدت له ثوبين، وجاءت بهما، فأخذهما رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكان إلى جانب حمزة شهيد من الأنصار، فكره رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يتخير لحمزة، فقال النبى ﴿ﷺ﴾:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣٩/٣.

«أسهموا بينهما، فأيهما طار له أجود الثوبين فهو له».

فأسهموا بينهما، فكفن حمزة في ثوب، وكفن الأنصارى الشهيد في الآخر.

ولما جاء رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بثوب حمزة الذى اختاره اللّه تعالى فجعل إذا خمر به وجهه انكشفت قدماه، وإذا خمرت قدماه بدا وجهه، فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «غطوا وجهه، واجعلوا على قدميه من نبات الأرض».

وصلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ على شهداء أحد، وكان حمزة الشهيد هو أول من صلى عليه رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، ثم جمع إليه بالشهداء الواحد تلو الآخر، حتى كبر عليه رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ سبعين تكبيرة.

وتمضى السنون، وتكر الأيام، وبعد خمسة وأربعين عاما على غزوة أحد، وعندما أراد معاوية بن أبى سفيان أن يجرى عينا لمياه السيول بأحد فكتب إليه عماله: إنا لا نستطيع أن نجريها إلا فوق قبور الشهداء.. شهداء أحد.

فقال معاوية: انبشوهم..

وكان جابر بن عبد اللّه وصاحب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، لم يزل على قيد الحياة، فقال سيدنا جابر: فرأيتهم يحملونهم على أعناق الرجال، كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة بن عبد المطلب أسد اللّه فانبعث منها دم.

هذا هو مقام من استشهد فى سبيل اللّه تعالى..

ولم لا؟

وقد قال رب العزة والجلال: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فسلام الله تعالى عليك فى الأولين والآخرين..

سلام عليك يا أسد الله وأسد رسوله ﴿ﷺ﴾..

سلام عليك يا سيد الشهداء..

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ – ١٧٠.

حذيفة بن اليمان

﴿رضي الله عنه﴾

﴿أعلم أصحاب محمد رسول الله

ﷺ﴾ بالمنافقين﴾

﴿على بن أبى طالب كرم الله وجهه﴾

حذيفة بن اليمان
رضي الله عنه

نسبه:

هو حذيفة بن حسيل بن جابر اليماني العبسي، أبو عبد الله، فهو من أعيان المهاجرين من بني عبس[1].

مولده:

سمي أبو حذيفة باليمان؛ لأنه قد قتل رجلاً من قومه بمكة المكرمة؛ ففر هارباً إلى المدينة المنورة خوفاً من أن يقتل بثأره..

وقد جاور في المدينة بني عبد الأشهل، وهم قوم سعد بن معاذ سيد الأوس وحالفهم، فأطلق عليه قومه اسم اليمان[2]، ثم زوجوه امرأة من خيرة نسائهم، فولدت له حذيفة وصفوان، وقد دام هذا الحال على اليمان فترة طويلة من الزمن، لا يدخل مسقط رأسه مكة المكرمة، حتى وإن كان له فيها حاجة ولا بد وأن يدخلها دخلها متخفياً.

وكانت الدعوة المحمدية آن ذاك في بداية أمرها، فأراد الله تعالى الخير بحسيل بن جابر وأهل بيته؛ فدخلوا الإسلام، وتعلموا أركانه، ومبادئه السمحة النبيلة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٠ ٣٠.

(٢) نسبة إلى اليمانية، وهم الأنصار.

نشأته:

نشأ حذيفة رضي الله عنه في أسرة إسلامية، وتربى، وعاش في كنف أبوين موحدين بالله الواحد الأحد، ومن السابقين الأولين..

احتل الإيمان أركان قلبه وجوارحه، وملأه شوقاً وحنيناً إلى رؤية الرسول ﴿ﷺ﴾، فقد كان يتمنى رؤية الرسول ﴿ﷺ﴾، ويشتاق إليها، بل ويذوب ولعاً وشوقاً لرؤية نبي الله وحبيبه..

وجاء اليوم الذي التقى فيه حذيفة بسيد الخلق..

فما أن وقعت عيناه على الرسول ﴿ﷺ﴾ إلا وغشيته الأنوار النبوية، وتساقطت دموعه كحبات اللؤلؤ المنثور..

ثم تمالك نفسه ولملم جوارحه، وقال: يا حبيبي يا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أمهاجر أنا أم أنصاري؟

فقال النبي عليه السلام ﴿ﷺ﴾: «إن شئت كنت من المهاجرين، وإن شئت كنت من الأنصار، فاختر لنفسك ما تحب».

فما كان من حذيفة إلا أن سارع قائلاً:

بل أنا أنصاري يا رسول الله.

ومنذ ذلك اليوم أصبح لحذيفة وأبيه شأناً آخر في الإسلام، فجاهدوا في المدينة حق الجهاد، أخذوا في نشر المبادئ الإسلامية السامية السمحة النبيلة..

حتى جاء الرسول ﴿ﷺ﴾ والصحابة مهاجرين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة..

فاستقبله أهلها بالفرح والسرور، وكان على رأسهم سيدنا حذيفة رضى الله عنه، فصاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ في حضره وسفره حتى إنه لا يفوته حديث ولا كلمة عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلا ويحفظها، ويعرف معناها- وسببها، ويعيها حق إيعاء.

حذيفة يوم بدر:

لما أذن الله رسوله ﴿ﷺ﴾ بالقتال يوم بدر، وكانت الهزيمة الكبرى للمشركين، والنصر الأعظم للمسلمين، حرص حذيفة على المصاحبة لسيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكان له موقف من أجمل المواقف يوم بدر هو وأبوه رضى الله عنهما..

يقول حذيفة: ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أننى خرجت أنا وأبى، فأخذنا كفار قريش، وكان بينهم أبو جهل.

وقالوا: أين تذهبون؟

فقلنا: المدينة.

فقالوا: إنكم تريدون محمداً .

فقلنا: ما نريد إلا المدينة.

فقالوا: ما جئتما إلا لتمدان محمداً.

فقلنا: ما أردنا إلا المدينة.

ثم أخذوا العهد علينا لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، وكانوا يأبوا ألا يطلقونا، فوافقناهم رأيهم..

فقدمنا المدينة ودخلنا على رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأخبرناه بما تعاهدناه على أنفسنا من عهد مع قريش وسألناه النصيحة والرأى.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : «نفى بعهدهم ونستعين الله عليهم»[1].

يقول حذيفة: فلما خاض النبى ﴿ﷺ﴾ والمسلمون يوم بدر، حزنت حزناً شديداً على ما فاتنى من خير لهذا اليوم العظيم، ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يبشرنا ويصبرنا ويهدينا.

وحزن المشركون لما أصابهم من هزيمة وعار فى يوم بدر، فأرادوا أن يردوا على المسلمين، فأعدوا العدة، واستعدوا أحسن استعداد.

فحدثت مناوشات بين المسلمين والمشركين قبل غزوة أحد، ولكن دون أن يلتئم الجرح فقد كان غائراً.

حذيفة فى غزوة أحد:

خاض حذيفة بن اليمان مع المسلمين هذه الغزوة. فأبلى أعظم البلاء، وظهر بأروع صور بطولية، وكان رضى الله عنه يحرص على الشهادة، وصنع من نفسه درعاً بشرياً يزود ويدافع به عن سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولكنه خرج من المعركة كباقى أصحابه رضوان الله تعالى عليهم سالمين.

وأما أبوه اليمان -حسيل- رضى الله عنه فقد استشهد فى غزوة أحد، ولكن ما أجمل أن نتعرف كيف استشهد اليمان يوم أحد، كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد استخلفه وبعض شيوخ الأنصار على المدينة كى يدافعوا عنها بما فيها من شيوخ وأطفال ونساء أى شر يقع عليهم.

(١) رواه مسلم فى الجهاد: ١٧٨٧، باب: ٢٥.

وكان مع اليمان رضى الله عنه سيدنا ثابت بن وقش رضى الله عنه وعدد من شيوخ الأنصار، فلما حمى وطيس المعركة واشتدت، وجد اليمان نفسه مدفوعاً إلى ثابت بن وقش يقول له:

«لا أبا لك ماذا ننتظر فوالله ما بقى لنا من العمر إلا بمقدار ما يظمأ الحمار، إنما نحن نموت اليوم أوغداً، أفلا نأخذ سيفينا ونلحق برسول الله ﷺ، لعل الله سبحانه وتعالى يرزقنا الشهادة مع نبيه وأصحابه».

فما كان من ثابت بن وقش وصاحبه إلا أن أخذا سيفيهما، وانطلقا فى أعماق المعركة.

وبدأت سيوفهم تلمع كالبرق، ويُسمع لها صوت كصهيل الخيل فى ميدان المعركة، وتطوح برؤوس المشركين يميناً وشمالاً وكأنهما[1] فى العقد الثالث من العمر.

واستشهد سيدنا ثابت بن وقش رضى الله عنه بعد أن أتته ضربة سيف من أحد المشركين فألقت به من فوق بعيره مضرجاً فى دماؤه الزكية، فنالت روحهُ مكانة الشهداء الأبرار.

وأما اليمان والد حذيفة رضى الله عنهما فقد قتل خطأ بيد أحد الصحابة.. وعندما شدوا عليه كان حذيفة ملتفتاً نحوه فظل يصيح بأعلى صوته: أبى.. أبى.. إنه أبى يا قوم..

ولكن لم يسمعه أحد وسط صهيل الخيل وصوت السيوف المتلاحمة.

---

(١) أى اليمان وثابت -رضى الله عنهما-.

فقال حذيفة رضى اللّه عنه لهم: يغفر اللّه لكم، وهو أرحم الراحمين، وبعد الانتهاء من المعركة أراد النبى ﴿ﷺ﴾ أن يأخذ لحذيفة دية أبيه، ولكنه قال: إنما أبى طالب شهادة، وقد نالها، اللّهم أشهد أنى قد تصدقت عليهم بديته.

وفى اليوم الثانى من المعركة خرج حذيفة مع من خرجوا مع الرسول ﴿ﷺ﴾ لتتبع المشركين، ورأى النبى ﴿ﷺ﴾ ألا يخرج معه إلا من شهد أحد..

وقال ﴿ﷺ﴾: «لا يخرجن معى إلا من شهد القتال»..

فاستجاب الذين أخلصوا دينهم للّه رغم ما كان بهم من جروح وآلام وبلاء، فأنزل اللّه تعالى فيهم قرآنا يتلى فقال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

حذيفة يصلى خلف النبى ﴿ﷺ﴾ ليلا:

كان رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يقوم الليل كله فما كان من حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنهما إلا أنه قد صلى خلف رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ذات ليلة، دون أن يراه النبى ﴿ﷺ﴾.

يقول حذيفة: صليت مع النبى ﴿ﷺ﴾ ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلى بها ركعة فمضى، فقلت يركع بها، فافتتح بآل عمران فقرأها، ثم افتتح بالنساء، فقرأها يقرأ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربى العظيم، فكان ركوعه مثل قيامه.

ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً كما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربى الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه، فصلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أربع ركعاتٍ، وهو لا يعلم أنى ورائه، فذكرت ذلك له، فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «ألا أعلمتنى؟».

فقال حذيفة ضاحكاً: والذى بعثك بالحق نبياً إنى لأجده فى ظهرى حتى الساعة.

ومع هذا فإن حذيفة تعلق قلبه بصلاة الليل لما عرفه هو من أسرارها ومعانيها.

المشهور من حديث حذيفة المعروف:

لقد عرف سيدنا حذيفة رضى الله عنه بحديثه المشهور المعروف؛ الذى يردده كل العلماء على المنابر وفى حلقات العلم.

روى فى صحيح الإمام البخارى ومسلم رضى الله تعالى عنهما عن سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما، قال: «كان الناس يسألون رسول الله﴿ﷺ﴾ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، أو يدركنى».

قلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «نعم» .

قلت : فهل بعد هذا الشر من خير؟

قال النبى﴿ﷺ﴾ : «نعم وفيه دخن» .

قلت : وما دخنه؟

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «قوم يستنون بغير سنتى ، ويهتدون بغير هديى ، تعرف منهم ، وتنكر» .

قلت : وهل بعد ذلك الخير الذى به دخن من شر؟

قال النبى﴿ﷺ﴾ : «نعم دعاة على أبواب جهنم مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها» .

قلت : يا رسول الله فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» .

قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام يا رسول الله ؟

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «تعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على جذع شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» .

وقد اكتسب سيدنا حذيفة رضى الله عنه من هذا السؤال ، ومن هذه الإجابة نوارنية خاصة ، وهى الفراسة الإيمانية التى يكتسبها المؤمن .

قال عنه أصحابه رضوان الله عليهم : إن حذيفة يقرأ الوجوه ويعلم أسرار القلوب.

حذيفة يتحدث عن نفسه:

يقول حذيفة: والله إنى لأعلم الناس بكل فتنةٍ هى كائنةٍ فيما بينى وبين الساعة، وما بى إلا أن يكون رسول الله ﴿ﷺ﴾ أسر إلىّ فى ذلك شيئاً لم يحدثه غيرى.

ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال النبى ﴿ﷺ﴾ وهو يعد الفتن: «منهن ثلاث لا يكون يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف؛ منها صغار، ومنها كبار».

ظل حذيفة بهذا الحرص وهذه الأمانة يداوم على كل حديث عن الفتن والشر، وينقل إلى أصحابه ما غاب عنهم، فصار معَلماً يخبر عن هذه الفتن.

حذيفة يوم الخندق رفيق الرسول ﴿ﷺ﴾ فى الجنة:

اجتمعت قريش عن بكرة أبيها والرسول ﴿ﷺ﴾ والصحابة بالمدينة، وحزبت قريش الأحزاب، وقلبت اليهود داخل المدينة وخارجها، وأصرت أن تقضى على المسلمين والدين الجديد.

أتت قريش وكنانة وتهامة والأحباش، وأقبلت غطفان وأهل نجد، وكان عدد الجند يزيد على العشرة آلاف مقاتل يريدون القضاء على الدين الجديد.

هنالك ظهرت صور الشجاعة، وتم حفر الخندق ليكون ذلك مفاجئاً لقريش وزعمائها، وليعلموا بأنه لا قبل لهم بدخول المدينة، وعند ذلك أراد الله تعالى النصر للمسلمين.

أرسل اللّه تعالى جنوداً من الطبيعة لم تكن متوقعة وهي الرياح الشديدة فقلعت جذور العدو اقتلاعاً، ولكن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ أراد أن يعرف آخر أخبار جيش الشرك الذى صار فى مهب الريح، فاختار رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ رجلاً يبحث عن أخبار أهل الشرك.

يقول سيدنا حذيفة: صلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ جزءاً من الليل ثم التفت إلينا فقال:

«مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع؟ أسأل اللّه تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة».

فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد، دعانى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «يا حذيفة اذهب فادخل مع القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا».

فذهبت وأنا من أشد الناس فزعاً، وأكثرهم برداً فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه و من تحته»..

فدخلت فى القوم والريح وجنود اللّه تفعل بهم ما تفعل، لا تقوم لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً..

ومرت لحظات كأنها الدهر ثم قال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش.. لينظر كل رجل منكم من جليسه، فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت له: مَنْ أنت؟

قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع[1] والخف[2] ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وتخلت عنا ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدةِ الريح ما ترون . . ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل .

ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلىّ : «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتينى ، ثم شئت ؛ لقتلته بسهم .

ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط[3] لبعض نسائه ، فلما رآنى أدخلنى وأدنانى إلى رجليه ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع وسجد ، وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر .

عندما سمع رسول الله ﷺ من حذيفة قوله هذا بدت عليه علامات السرور ؛ فحمد الله ، وأثنى عليه كثيراً ، ثم دعا لحذيفة بالخير ، ومن ثم فقد ظل حذيفة يعرف باسم رجل المهام الصعبة .

ويقف سيدنا حذيفة موقفاً آخر لما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ أن بنى الأصفر[4] قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام لحرب المسلمين

---

(١) الكراع : الخيل .
(٢) الخف : الإبل .
(٣) مرط : كساء .
(٤) هم الروم .

فأمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ الناس أن يستعدوا لحرب بنى الأصفر، وكان ذلك فى أواخر شهر رجب، والحر شديد، والمسافة بين المدينة وبين جند الروم كبيرة..

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يستعدون لجمع ثمار حقولهم، كما أن العام كان عام جدب وتقشف قلّت فيه الموارد ونقص الخير.

حث النبى ﴿ﷺ﴾ أصحابه على الخروج للقتال، والإنفاق فى الحرب، وتجهيز الجيش الذى سمى بجيش العسرة؛ لقلة الموارد، ويقف حذيفة بن اليمان -رضى الله عنهما- موقفاً من أنبل وأحسن المواقف، إذا به يتبرع بما له كله من مال وعتاد.

يقول حذيفة: بعث عثمان بن عفان إلى النبى ﴿ﷺ﴾ بعشرة آلاف دينار، فصُبت بين يديه، فجعل النبى ﴿ﷺ﴾ يقلبها بين يديه ظهراً لبطن، ويدعو له ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما أخفيت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالى عثمان ما عمل بعد هذا».

ثم خرج جيش العسرة وقائده رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى لقاء بنى الأصفر، وفى بعض الطريق أصاب جيش المسلمين عطشاً شديداً، ولا يوجد معهم ماء يروون به ظمأهم فشكوا، ذلك لرسول الله ﴿ﷺ﴾.

فما كان منه ﴿ﷺ﴾ إلا أن دعا ربه، واستسقى، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة مملوءة بالماء، فأمطرت، وألقت ما بها، فارتوى الناس، وارتوى البعير، وحملوا معهم ما يكفيهم من الماء لرحلتهم البعيدة الشاقة.

ولما وصل النبى ﴿ﷺ﴾ بجيشه المقدام إلى أرض تبوك لم يجد جنداً من جنود الروم يحاربهم، فلم يلقَ الرسول ﴿ﷺ﴾ حرباً، بل لقى هو وجنوده مغفرة من الله ورضوان.

وهناك سمع حذيفة أحد فرسان رسول الله ﴿ﷺ﴾ كلام من خير الأنام، وتعلم ووعى ما قاله النبى ﴿ﷺ﴾.

يقول الإمام أحمد فى مسنده: إن رسول الله خطب الناس -وهو مسند ظهره إلى نخلة فى أرض تبوك- فقال: «ألا تحبون أن أخبركم بخير الناس، وشر الناس، إن خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه، أو على ظهر بعيره، أو على قدمه حتى يأتيه الموت، وإن شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله لا يرعوى إلى شئ منه».

سمع سيدنا حذيفة هذا الكلام فعرف قصده فسّخر جهده وعزيمته لما قاله رسول الله ﴿ﷺ﴾.

يبد أن لحذيفة وجيش العسرة بقية جعلت حذيفة هو المؤتمن الوحيد على أسرار النبى ﴿ﷺ﴾ فى معرفة المنافقين وأحوالهم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه -خاتم النبيين- لقد تسلل إلى جيش الإسلام بعض المنافقين، ورجع المدينة المنورة طائفة منهم؛ ليخذلوا المؤمنين، وبقيت إخرى لتخذل إذا سنحت لها الفرصة فى السير، أو فى المعترك. ففوّت الله تعالى عليهم الفرصة التى ينتهزون أمثالها دائماً.

ولما تمت أمور تبوك، وتحولت إلى دعاية إسلامية صادقة، ولم تكن معركة قتال ينفثون فيها سموم التردد والهزيمة، ووجدوا النبى ﴿ﷺ﴾

راجعاً بجيش العسرة، وهو في يسر وأمن وسلام واطمئنان، ائتمروا بالرسول ﴿ﷺ﴾، ومكروا محاولين أن يطرحوه من عقبة عالية في الطريق.

وإذا كان قد أراد الخائنون إخوانهم أن يرموا عليه حجراً ثقيلاً وهو جالس بجوار جدارهم؛ فحفظه الله..

فقد أراد الخائنون من المنافقين أن يطرحوه من فوق عقبة في الطريق، ولكن الله تعالى أعلمه بما بيتوا في المرة الثانية كما أعلمه في الأولى.

لما بلغوا العقبة التي كان تدبيرهم الخبيث ومكرهم السيئ عندها، فلما بلغها النبي ﴿ﷺ﴾ أمر الجند أن يسيروا في بطن الوادي وقال:

«من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم».

وأخذ رسول الله ﴿ﷺ﴾ العقبة وأخذ المسلمون وكل الجيش بطن الوادي إلا الذين ائتمروا وبيتوا الشر، فقد أخذوا العقبة التي أخذها النبي ﴿ﷺ﴾؛ لينفذوا ما مكروا به، ومكروا مكراً، ومكر الله تعالى، والله خير الماكرين.

لقد علم النبي ﴿ﷺ﴾ مكرهم الخبيث..

إن أولئك المنافقين لما علموا ذلك، وما اتخذه النبي ﴿ﷺ﴾ لنفسه من طريق، استعدوا وتلثموا فأخفوا وجوههم لكيلا يعرفوا، فعرفوا بذلك التلثم الذي أرادوا أن يستتروا به، فكشفهم المسلمون به:

لقد هموا بأمر عظيم، وهو أن يطرحوا رسول الله ﴿ﷺ﴾ من فوق العقبة، فأمر رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يلازمه سيدنا عمار بن ياسر وسيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهم جميعاً -اللذان آخى

النبى بينهما يوم الهجرة- وأن يمشيا أمامه على أن يأخذ عمار بن ياسر بزمام الناقة، وأمر حذيفة بسوقها.

وبينا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى سيره هو ومن معه، أن سمعوا وكز أولئك الذين تآمروا لركائبهم، وتدافعهم عليها، وقد أدرك النبى ﴿ﷺ﴾ ماذا يريدون حساً، بعد أن علم بنياتهم من اللّه، وقد ساروا ورائهم من غير أن يعلموا، وظنوا أنهم مدركون ما يريدون.

وأمر رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ حذيفة بن اليمان، وهو الذى يسوق الدابة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، وبدا ما يتوقعه ﴿ﷺ﴾ من شرهم فى وجهه، فرجع حذيفة ومعه المجن.

رآهم حذيفة ملثمين، واستقبل وجوه رواحلهم، فضربها فى وجوهها بالمجن ضرباً، وأبصر القوم وهم ملثمون، وظن أن ذلك فعل المسافر يتقى باللثام حر الشمس أو حرور الهواء، ولكن المتآمرين فزعوا واضطربوا بإفزاع اللّه تعالى لهم.

ثم رجع حذيفة إلى النبى ﴿ﷺ﴾ فلما أدركه قال له الرسول ﴿ﷺ﴾: «اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش يا عمار»، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، ثم بعد ذلك خرجوا من العقبة، وهم ينتظرون الناس.

قال النبى ﴿ﷺ﴾ لحذيفة: «اذهب»،

وأرسله النبى ﴿ﷺ﴾ فذهب إليهم ومن معهم، وتبين به أنه انكشف أمرهم.

قال الرسول ﴿ﷺ﴾ لحذيفة: «هل عرفت مِنْ هؤلاء الركب أحداً؟».

قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان، وكانت ظلمة الليل قد غشيتهم، وهم ملثمون.

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟».

قال حذيفة : لا يا رسول الله.

قال الرسول ﴿ﷺ﴾ : «فإنهم مكروا ليسيروا ورائى حتى إذا طلعت إلى العقبة طرحونى منها».

قال حذيفة : إذاً نضرب أعناقهم.

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : «أكره أن يتحدث الناس، أن يقولوا : إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه، إن الله قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم، وسأخبر بهم إن شاء الله تعالى عند وجه الصبح، فانطلق يا حذيفة حتى إذا أصبحت فاجمعهم».

فأصبح حذيفة -رضى الله عنه- المؤتمن على هذا السر الكبير فسمى -رضى الله عنه- «صاحب سر رسول الله ﴿ﷺ﴾»، ومن شدة حفظه لسر سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ جاءه سيدنا عمر متخفياً ويقول له :

يا حذيفة أأنا من المنافقين؟

فقال صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ : لا ولا أزكى أحداً بعدك.

ولما نزل قول الله تعالى :

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1].

---

(١) سورة التحريم، الآية : رقم ٩.

علم سيدنا حذيفة أن المنافقين يفسدون العقول، فيصورون الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، وأنهم أشرار قد استمكن الشر منهم، وأن جهادهم كما حض عليه اللّه تعالى يورث صاحبه الخير والفوز يوم القيامة، وسوف يكون من جاهدهم مع النبيين والصديقين والشهداء يسبحون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها.

منذ ذلك الحين أعلن حذيفة الحرب ضد المنافقين ما امتدت به هذه الحياة، فكان دائماً يصدهم ويتحداهم ويكشفهم ويفضح أمرهم أمام الناس كى يعتزلوهم دون أن يسمى أحداً منهم، حرصاً على وصية رسول اللّه ﴿ﷺ﴾..

وكثيراً ما كان يقول للنبى ﴿ﷺ﴾:

نضرب أعناقهم يا رسول اللّه.

فيقول له النبى ﴿ﷺ﴾: «بل نترفق بهم، ونحسن صحبتهم ما بقوا معنا».

لأن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لم يبعث لعاناً، بل بعث رحمة حتى للكافرين..

ألم يقل لهم يوم الفتح الأعظم[1]: «إذهبوا فأنتم الطلقاء»..

فقد تجاوزت رحمته حتى الكفار!!

فقد قال﴿ﷺ﴾ لعبد اللّه بن أُبى بن سلول، عندما جاءه، وقال: يا رسول اللّه، أتولى أنا قتل أبى؛ حتى لا أرى قاتله يمشى على الأرض..

---

(١) فتح مكة المكرمة.

وكان أباه عبد اللّه بن أبى بن سلول هو رأس المنافقين، والعقل المدبر لهم.

فقال له النبى ﴿ﷺ﴾: «بل نترفق به، ونحسن صحبته، ما بقى معنا».

وانتقل الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى، وحال أمر المسلمين إلى سيدنا أبى بكر الصديق -رضى للّه عنه-، فكان حذيفة خير صديق لخير خليفة، يعينه على أعمال المسلمين، ويحذره من أخطار المنافقين، وكان ولاؤه للصديق -رضى اللّه عنه- فوق كل ولاء.

وجاءت حروب الردة واشتعلت نيرانها فى بنى عامر وهوازن وسليم وبنى تميم، ثم شبت فى اليمامة، فكانت حروباً طاحنة بين المسلمين والمرتدين، وأبلى حذيفة فى هذه الحروب بلاءً حسناً، بل أعظم البلاء، ثم عاد الهدوء إلى شبه الجزيرة وضواحيها.

ثم انتقل الصديق إلى الرفيق الأعلى وتولى أمر المسلمين عمر بن الخطاب -رضى اللّه عنه- الذى كان يعرف قدر سيدنا حذيفة فولاه المدائن، فسار بأهله متوجهاً للمدائن أميراً عليها.

حذيفة أميراً للمدائن:

قدم حذيفة المدائن على حمار سادلاً قدميه وبيده رغيف، ودهن يأكل ما بيديه، فلما أبصر أهل المدائن أميرهم على هذه الحالة عجبوا عجباً شديداً، مما رأوه بأعينهم، ولكن ذهب تعجبهم عندما دخل مسجد المدائن، وخطبهم..

وقبل الخطبة استهلهم بهذه الكلمات المبهرة التى تضىء لكل من يسمعها الطريق أمامه، فهى تشع أنواراً.

فقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن.

قالوا: وما مواقف الفتن يا أبا عبد اللّه؟

قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير، فيصدقه، ويمتدحه بما ليس فيه..

ثم قال: إن على أبواب السلاطين فتناً كمبارك الأبل، والذى نفسى بيده لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله[1].

ثم خطب حذيفة رضى اللّه عنه الناس.

حذيفة يقف خطيباً:

خطب حذيفة خطبة وكانت يوم جمعة فقال: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[2]..

ألا وإن القمر قد انشق..

ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق..

ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق..

ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة.

ومن خطبه أيضاً أنه قال: أيها الناس تعاهدوا ضرائب غلمانكم فإن كانت من حلال فكلوها، وإن كانت من غير ذلك فارفضوها، فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنه ليس لحم ينبت من سحتٍ فيدخل الجنة»، «واعلموا أن بائع الخمر ومبتاعه ومقتنيه كشاربه».

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) حياة الصحابة للكاند هلوى: ٤/١١٦.

حذيفة يرشد الصحابة:

دخل رضي الله عنه المسجد يوماً، فرأى رجلاً يصلي ولا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما انصرف من صلاته ناداه برفق، وقال له بأدب:

منذ كم وهذه صلاتك؟

قال الرجل: منذ وقت طويل.

قال حذيفة: ما صليت منذ هذا الوقت، ولو مت وهذه صلاتك مت على غير الفطرة التي فطر عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾.

فأقبل حذيفة يعلم الرجل قائلاً: إن الرجل ليخفف الصلاة، ويتم الركوع والسجود.

ودخل يوماً آخر فرأى في المسجد جماعة يقرأون القرآن فقال لهم: اتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، فلعمري لئن اتبعتموه فلقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً.

فكان رضي الله عنه يشدد عند الحلال، ويرغب عند الجمال، فقد قال عن نفسه: «إنا حُمِّلنا هذا العلم، وإنا نؤديه إليكم وإن كنا لا نعمل به»[1].

وكتب إليه سيدنا عمر فقال له: أن أعطِ الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فما كان من حذيفة إلا أن كتب إلى الفاروق يقول له: إنا قد فعلنا

---

(١) حياة الصحابة: ١١٧/٤.

وبقى شىء كثير، فكتب إليه عمر : إنه فيئهم الذى أفاء الله عليهم، ليس لعمر ولا لآل عمر.. اقسمه بينهم..

ما هذه العظمة يا أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾؟

ويا من تخرجوا من جامعة المصطفى ﴿ﷺ﴾.

ما هذه العظمة؟

والذى خلق الخلق وقسم الأرزاق ما يفعل هذا إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

يجلس حذيفة فى المسجد الكبير فى المدائن، ويلتف حوله أهلها، ويسألونه عن الخير وعن ما يوصلهم إليه، فيجيبهم، ثم يقول لهم : يا أيها الناس ألا تسألونى؟ فإن الناس كانوا يسألون رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر. أفلا تسألونى عن ميِّت الأحياء؟

قالوا : وما ميت الأحياء؟

قال حذيفة : إن الله تعالى بعث محمداً ﴿ﷺ﴾ فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحى بالحق من كان ميتاً، ومات بالباطل من كان حياً.

ثم ذهبت النبوة فكانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون ملكاً عضوضاً، فمن الناس من ينكر بقلبه ويده ولسانه والحق استكمل، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه كافاً يده وشعبة من الحق ترك، ومنهم من ينكر بقلبه كافاً يده ولسانه، وشعبتين من الحق ترك، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه فذلك ميت الأحياء.

الإمام علىّ بن طالب كرم الله وجهه يصف حذيفة:

سئل الإمام علىّ عن حذيفة فقال: حذيفة بن اليمان أعلم أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالمنافقين.

ولما سئل حذيفة عن الفتوى قال: إنما يفتي الناس أحد ثلاثة: رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه، وأمير لا يجد بداً، وأحمق متكلف.

وسئل عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيصير بها منافقاً، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتحضن على الخير، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لكم[1].

كما كان حذيفة يخرج كل جمعة إلى الكوفة على بغلة فارهة تقطع تلك المسافة الكبيرة ذهاباً وإياباً حتى يُعلّم من الناس بما يفتح الله عليه، وكان يحدث الناس بالحديث حتى يستفظعون، فقيل له: يا أبا عبد الله يوشك أن تحدثنا أن يكون فينا مسخ!!

قال حذيفة: نعم ليكونن مسخّ قردة وخنازير.

رأوه الصحابة يصلى فلما فرغ من صلاته قالوا: يا أبا عبد الله حدثنا عن الصلاة، فقال حذيفة: إن العبد إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم قام إلى الصلاة استقبله الله تعالى بوجهه، يناجيه فلم يصرفه عنه حتى يكون هو الذى ينصرف أو يلتفت يميناً أو شمالاً.

---

(١) المرجع السابق انظر الفهارس.

ولما سئل عن الفتن وماذا هو صانع إن أدركها قال: ما بي بأس سمعت من رسول الله، ولئن اقتتلتم لأدخلن بيتي فلئن دُخل عليَّ فلأقولن: ها بُؤ بإثمي وإثمك.

ولقد جلس حذيفة يوماً يحدث أصحابه ويقول ما من يوم أمَرّ لعيني ولا أجد لنفسي من يوم آتي أهلي فلا أجد عندهم طعاماً، ويقولون ما نقدر على قليل ولا كثير! وذلك أني سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول: «إن الله أشد تعاهداً للمؤمن بالبلاء[1] من الوالد لولده بالخير».

ومن مواقفه التي تدل على فراسته ونورانيته: أنه قد وصله خبر جندي من جنود المسلمين قد رفع سلاحه على أميره، فما كان من حذيفة إلا أنه غضب غضباً شديداً، وأنكر ذلك تماماً في كل مجلس يجلسه معلماً ومؤدباً.

وبينما هو جالس في أحد المجالس يعلم فيها أصحابه، وإذا بهذا الرجل يخترق المجلس، ويتخلل الناس حتى انتهى إلى سيدنا حذيفة -رضي الله عنه- وقال: يا صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ ألا تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟!

فرفع حذيفة رأسه فعرف وأدرك ما أراده السائل وقال:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن..

وليس من السنة أن تشهر السلاح وترفعه على أميرك.

(١) أي يجلبه له.

إنها فراسة المؤمن الذى قال عنها سيدنا رسول الله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» .

وقال عن القتل : جاءه رجل فقال له حذيفة : أيسرك أنك قتلت أفجر الناس؟ قال الرجل : نعم .

فقال حذيفة : إذاً تكون أفجر منه .

حذيفة أميراً وقائداً للجيش:

بعث سيدنا عمر بن الخطاب جنوده فاتحين مسالمين بلاد الفرس فأعطى قيادة الجيش لرجل من رجال المسلمين الأوائل وهو النعمان بن مقرن .

ثم كتب سيدنا عمر كتاباً إلى حذيفة يأمره فيه أن يلحق بجيش من الكوفة ؛ ليكون مدداً للنعمان بن مقرن ، رغم أن النعمان قد أخذ ثلثى جيش الكوفة .

ثم أرسل كتاباً آخر إلى هذه الجيوش يقول فيه : إذا اجتمع المسلمون فليكن كل أمير على فيلقه ، وليكن أمير هذه الجيوش هو النعمان بن مقرن ، فإذا قتل النعمان فحذيفة بن اليمان ، فإن قتل فجرير بن عبد الله ، فإن قتل فعليكم قيس بن مكشوح ، فإن قتل ففلان بن فلان ، فإن قتل ففلان ، حتى اختار رضى الله عنه سبعة أمراء ليخلفوا النعمان فى هذه المعركة التى هى من أكبر معارك المسلمين .

وكان عدد جيوش الفرس آنذاك مائة ألف وخمسين ألف مقاتل مجهزين بالسلاح والعتاد .

وبدأت المعركة ضارية عنيفة، وخاض كل أمير بفيلقه داخل أدغال المعركة بحثاً عن الشهادة أو النصر.

يقول جرير: لما انتهى النعمان إلى نهاوند في جيشه طرحت جيوش الفرس حسك[1] الحديد في الطريق، فبعث النعمان عيوناً له، فساروا ولا يعلمون ما في الطريق، فتأخرت خيولهم وقد دخل حسك الحديد في حوافرهم فلم يتقدموا، فلما عادت العيون، وأخبرت النعمان قائد الجيوش المسلمة بما حدث لهم من أمر الحسك.

قال النعمان: ما تريدون؟ قالوا: نتقهقر حتى يروا أننا هاربين من القتال؛ فيخرجوا في طلبنا، وبذلك يخلوا الطريق مما ألقوه عليه، فسمع النعمان -رضي الله عنه- كلام جنوده لما رآه من الصواب وتأخر بهم، فأزالت الفرس الحسك من الطريق، وخرجت في طلب النعمان، عندئذ عطف النعمان عليهم عطفة ضارية أزالتهم عن أماكنهم.

بيد أن النعمان لم يكد يخترق صفوف الفرس إلا ورمي بسهم نقله إلى مقام الشهداء، وقبل أن يقع رضي الله عنه على الأرض ومعه راية المسلمين، فإذا بصاحب سر رسول الله ﴿ﷺ﴾ يأخذها بيمينه التي بايع بها رسول الله ﴿ﷺ﴾، وبكل حكمة أمر سيدنا حذيفة بن اليمان أن لا يذاع خبر انتقال سيدنا النعمان حتى تلفظ المعركة آخر أنفاسها عن نصر من عند الله.

وبنور إلهي وفطنة ربانية ولي رضي الله عنه سويد بن مقرن مكان أخيه النعمان .!! وذلك تكريماً لهما رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) برادة الحديد الشائكة.

ظل حذيفة يهتف وهو على فرسه قائلاً: اللّه أكبر صدق وعده.

اللّه أكبر نصر جنده.

يا أتباع محمد .. يا أهل بدر هلموا إليّ وأقبلوا واضربوا في عدوكم، فها هي رياح النصر آتية، يا أبطال أحد، يا أبطال الخندق ويا أبطال اليمامة يا رجال تبوك.

ها هي جنان اللّه تستعد لاستقبالكم، وتتهيأ لكم، فلا تجعلوها تنتظر كثيراً، ولا تطيلوا فإنها لكم، والذى نفسي بيده لقد كنا نقاتل مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ونطلب الشهادة قبل النصر، فيأتينا اللّه بنصره، ويؤيدنا بجنودٍ لم نرها، فهيا أقبلوا وانطلقوا داخل صفوف عدوكم، فإن اللّه ظاهر دينه، ومنجز وعده، وناصرنا إن شاء اللّه.

وظل يضرب بسيفه، ويقى بدرعه ضربات العدو حتى انتهت المعركة بانتصار ساحق للمسلمين.

قال المؤرخون عن معركة نهاوند بقيادة حذيفة بن اليمان بأنها المعركة التى ليس لها مثيل، ولم يكن لها نظير فى تاريخ الحروب التى خاضها المسلمون ضد الفرس، والتى جعلت جنود فارس يفرون من ميدان المعركة وهم لا يدرون إلى أين يذهبون، وكان نصر المسلمين فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وسميت معركة نهاوند بفتح الفتوح.

نقول سميت معركة نهاوند بفتح الفتوح؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى قد فتح على المسلمين كل مدن فارس بعدها على يد البطل حذيفة بن اليمان.

فقد فتحت أذربيجان بعد قتال شديد استمات أهلها فيه، ولكن اللّه تعالى منَّ على حذيفة فى ذلك اليوم ففتحت عنوة، أما مدينة الدينور التى فتحها سعد بن أبى وقاص -رضى اللّه عنه- من قبل، فقد انتفضت بعده، ففتحها حذيفة -رضى اللّه عنه- عنوة سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة، وفى نفس العام غزا حذيفة -رضى اللّه عنه- «ماسبذان» ببلاد فارس، ففتحها أيضاً، واختتم حذيفة فتوحاته العظيمة بفتح مدينة همذان بعد قتال شديد دام أكثر من يوم، وكان ذلك فى نهاية سنة اثنتين وعشرين من الهجرة.

ثم عاد حذيفة بن اليمان بعد ذلك إلى حلقاته يُعلّم ويُحفّظ حتى مر به العمر، وتقدمت به السنون، وانتقل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب إلى الرفيق الأعلى وحذيفة بالمدائن، وتولى أمر المسلمين سيدنا عثمان بن عفان، فكان حذيفة خير من يطيع لأى أمر من قِبَل سيدنا عثمان بن عفان، ثم انتقل حذيفة بن اليمان إلى المدينة المنورة مجاوراً ذا النورين -رضى اللّه عنهما-.

ولما قُتّل سيدنا عثمان فى الفتنة الكبرى وكان ذلك سنة خمس وثلاثين من الهجرة فزع الناس إلى حذيفة، ودخلوا عليه فقال -رضى اللّه عنه-: هذه أول الفتن، ثم رحل حذيفة إلى المدائن، وأقام بها إلى أن دعى إلى لقاء ربه، وكان ذلك فى أول خلافة الإمام على كرم اللّه وجهه عام ستةٍ وثلاثين من الهجرة. وكان قد مرض مرضاً شديداً، ثم ثقل عليه، حتى أنه كان يغيب ويفيق.

حذيفة على فراش الموت:

دخل عليه نفر من أصحابه فيهم أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه، وكان فى جوف الليل أو عند الصبح، فقال حذيفة: أى ساعة هذه؟

فقالوا: جوف الليل أو عند الصبح.

فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار.. أعوذ بالله ثم قال: اشتروا لى ثوبين أبيضين، فإنهما لن يتركا علىَّ إلا قليلاً حتى أبدل بهما خيراً منهما، أو أسلبهما سلباً قبيحاً.

ثم ذهب أبو مسعود الأنصارى ووصلة بن ذفر، فابتاعا له حلة يمنية مخططة بثلاثمائة درهم، ودخلا عليه فلما رآهما سيدنا حذيفة قال: أريانى ما ابتعتما. فدفعوها إليه.

فقال حذيفة: ما هذا لى بكفن!!

إنما يكفى ملاءتان بيضاوان ليس معهما قميص فإنى لا أترك إلا قليلاً حتى أبدل خيراً منهما أو شراً منهما، فابتاعا له ريطتين بيضاوين..

ولما حضر إليه ملائكة الله ظل يقول:

حبيب جاء على فاقة..

لا أفلح من ندم!!

أليس بعدى ما أعلم!!

الحمد لله الذى سبق بى الفتنة قادتها وعلوجها[١].

---

(١) كفار العجم.

ثم صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وخالقها، فكان خير صاحب لخير نبى وخاتم ﷺ.

وكان خير معين لأول خليفة..

وخير مطيع لذى النورين -رضى الله عنه-، فلم يكن ليعصى له أمراً.

ثم كان خير مدافع للإمام على كرم الله وجهه.

فسلام عليك يا حذيفة وعلى أبيك وعلى كل من كان على نهجك.

أبو عبيدة بن الجراح

﴿رضي الله عنه﴾

﴿ما منكم من أحد إلّا لو شئت لأخذت
عليه بعض خلقه، إلّا ابا عبيدة﴾

﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

«أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة:
٢/٧٥١٥»

أبو عبيدة بن الجراح

نسبه من أبيه (1):

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

نسبه من أمه (2):

هو عامر بن أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر.

إذن فهو يلتقى مع سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى النسب فى فهر، فهو القرشى الفهرى المكى والذى يكنى بأبا عبيدة بن الجراح.

صفته:

كان رجلاً طويل القامة، نحيف الجسم، معروق الوجه، خفيف اللحية، أثرم الثنيتين(٣)، وكان رجلاً حسن الخلق، لين الشكيمة، يسر من يراه، ويألفه من يلقاه، إن نشدته بين العباد، وجدته التقى النقى قوام الليل، وإن طلبته بين الرجال الأبطال، وجدته، الفارس الشجاع، خواض المعارك لإعلاء كلمة الله تعالى.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/٣٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/٢٤٠.

(٣) أثرم: مكسور الأسنان، الثنيتين: هما السنان الأماميان فى مقدمة الفم.

حياته:

نشأ أبو عبيدة فى الجاهلية بعيداً عن طباعها، ولم تعرف عنه سوءاتهم وسقطاتهم، فكان شاباً مستقيماً مفكراً أميناً، اشتغل بالتجارة فجاب[1] الأقطار، وبرز بين لداته[2]، موفوراً نظيف السريرة، صافى الروح، حتى إذا أشرق فجر الإسلام تفتح له قلبه وطابت نفسه.

شهد أبو عبيدة مطلع النور فى مكة بلد الحرم، فشرح الله صدره للإيمان، وكان من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم على يد أبى بكر الصديق.

أسرع أبو عبيدة إلى صديقه أبى بكر، يستمع إليه، ويفكر معه، فتكشفت له حياة الجاهلية بضلالها وكفرها، وظهرت له الدعوة المحمدية بجلالها، فلما سأله أبوبكر: يا ابن الجراح، هل اهتدى قلبك، واهتدى عقلك؟

قال أبو عبيدة: أجل يا أبا بكر، هيا بنا إلى صاحبك، فإنه ليدعو إلى الخير، وأنه لرسول رب العالمين.

فمضى به، وبعبد الرحمن بن عوف، وبالأرقم بن أبى الأرقم، وبعثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وبعبيدة بن الحارث إلى النبى ﷺ فأسلموا فى ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، إذ كانت هى محطة الانطلاق الأولى لنشر الدعوة الإسلامية[3].

---

(١) سار فيها.

(٢) من ولد معه فى زمن متقارب.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى، وسيرة ابن هشام بتصرف يسير.

كـانت قريـش تتجـه صـوب هـؤلاء الذيـن تركـوا ديـن آبـائهم وأجدادهم، واتبعوا يتيم أبى طالب محمد ﴿ﷺ﴾، فحاولت كل قبيلـة أن تمنع فتيانها ممن تبعوا محمد ﴿ﷺ﴾، وتردهم إلى ما كانوا عليه.

ولكـن أتسـتطيع قريـش أن تمنـع شـعاع النـور الإلهـى أن ينفـذ إلى القلوب؟

هيهات.. هيهات.. إن قريش حاولت، وحـاولت، واستخدمت كـل أساليب البطش والتعذيب، ولكـن دون فائدة، فلقد رسخ الإيمان فى القلوب، وذاقوا حلاوته.

فقد عاش أبو عبيدة محنـة المسـلمين وتجربتهم القاسية فى مكـة، بكل ما حفلت به من تضحية وثبـات وصمـود وفـداء، وعـانى مـن أذى قريش ما عانـاه أصحابـه رضى اللّه عنهم أجمعين، وذاق وقاسى من بطشهم وقسوتهم ما ذاقوه، فما لانت ولا خارت له قوة، ولا فترت له حماسة، ولا ضعف له إيمان.

وإنما زاده ذلك تمسكاً واستمساكاً بدين اللّه، وتعلقاً بكتـاب اللّه، وتفقهاً بشرع اللّه، وحباً للّه، وإقبالاً على رسول اللّه ﴿ﷺ﴾..

وقد بلغ من إقباله على الرسول ﴿ﷺ﴾ وحرصه على حفـظ القـرآن الكريـم، أنـه كـان لا يـترك لحظـة إلا اغتنمهـا، ولا فرصـة إلا إبتدرهـا، وأسرع إليها..

فأصبح من حفظة القرآن الكريم[1].

---

(١) المرجع السابق.

أبو عبيدة والهجرتين:

ولما رأت قريش أن أصحاب محمد ﴿ﷺ﴾ لن يتركوه فضيقت عليهم الخناق، وجعلت ترهقهم أشد الإرهاق، وتذيقهم من ألوان العذاب ما لا يتخيله بشر حتى باتوا لا يطيقون الحياة فى مكة.

ولما أذن الرسول ﴿ﷺ﴾ للمسلمين بالهجرة من مكة إلى أرض الحبشة، كان أبو عبيدة بن الجراح فى طليعة المهاجرين إلى اللّه بدينهم، الفارين من جحيم أبى جهل وأتباعه إلى حمى الملك العادل النجاشى بإيمانهم[١].

ولكن أبا عبيدة سرعان ما عاد إلى جوار النبى ﴿ﷺ﴾؛ ليسعد بالهجرة معه إلى يثرب، فكان أبو عبيدة ممن هاجروا الهجرتين.

أبو عبيدة فى غزوة بدر:

لما كان يوم بدر أخذ الجيش المحمدى فى تقتيل صناديد قريش وزعماء الشرك الذين كانوا يفتنون الناس عن دينهم، ويأسرون فريقاً، وقد اشتدت النازلة بالمشركين.

فهذا بلال بن رباح يقطف رأس أمية بن خلف، والزبير يصول ويجول وسط ميدان المعركة، وأسد اللّه وأبو دجانة، وسعد، وغيرهم، أما بطل قصتنا فكان له فى ذلك اليوم حكاية لا تنسى، وعتها كتب السيرة، وحفظها التاريخ...

فما هى تلك الحكاية التى شغلت معظم كتاب السير؟

---

(١) المرجع السابق بتصرف يسير.

المواجهة الصعبة:

نقول إن أبو عبيدة ظل يوم بدر، يصول ويجول، وسط ميدان المعركة كأخوانه من أبطال المسلمين، ولكن..

تركز مصير المعركة لديه فى رجل واحد..

ظل هذا الرجل يخترق الخِضَمَّ المقتتل كالسهم، باحثاً عنه، ولكن أبا عبيدة كان يتحاشى لقاءه ويبعد عنه قدر المستطاع.

وما كان الرجل بلبيب، بل راح يأتيه من يمين، ومن شمال، وكلما ابتلع طوفان المعركة أبو عبيدة بن الجراح غاص الرجل وراءه حتى يدفعه إلى السطح من جديد.

فيقترب منه، ويبسط السيف إليه؛ ليقتله، ولكن الموج البشرى المحتدم يبتلع أبا عبيدة من أمام هذا الرجل مرة أخرى، ويغوص وراءه كى لا يفلت.

وأخيراً وجد أبو عبيدة نفسه يطوح بسيفه رأس هذا الرجل المملوء كفراً، وعناداً، واستكباراً، وبسقوط هذا الكافر تنفس أبا عبيدة الصعداء.

فكثيراً ما وقف هذا الرجل حائلاً بينه وبين دين اللّه، وها هو يسقط صريعاً أمامه وأمام قريش كلها، ورأت من هو القاتل، ومن هو المقتول، فتاهت العقول، وشخصت الأبصار، فالأقدار قد تحكمت، والأمور قد وصلت إلى ذروتها، وفار التنور عن آخره...

لا تتعب نفسك عزيزى القارئ فى معرفة ذلك الرجل المقتول..

إنه عبد اللّه بن الجراح والد أبى عبيدة.

سبحانك يا الله!! تدبر الأمور، وترسم المقادير لنأخذ الحكمة حين يُضرَب بها أروع الأمثال، فكما قال أحد الرواة: إن أبا عبيدة لم يقتل أباه، بل قتل الكفر والشرك المتمثلان في شخص أبيه.

فأنزل الله عز وجل في شأن أبي عبيدة وأبيه قرآنا يتلى:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]..

لا تتعجب أيها القارئ الكريم مما فعله أبو عبيدة، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال يوماً لجلسائه: تمنوا، فتمنى كل واحدٍ منهم ما جال بخاطره، ولكن عمر كانت له أمنية أخرى، فما هي تلك الأمنية التي لم تخطر على بال أحدهم؟

قال عمر بن الخطاب: ولكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة!![2].

عمر بن الخطاب يتمنى الإمارة:

وفي يوم من أيام يثرب المنورة المضيئة بوجه رسول الله ﴿ﷺ﴾ وصحابته الكرام، كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ في المسجد يتلقى الوفود

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء والطبقات بتصرف.

المسلمة، فإذا بأسقفا نجران -العاقب[1] والسيد[2]- من وفد نجران يدخلان عليه ليبحثا معه الموقف، فعرض عليهما الرسول ﴿ﷺ﴾ الإسلام، وقرأ عليهما القرآن.

فقالا للرسول ﴿ﷺ﴾: ابعث معنا رجلاً من أصحابك قوياً أميناً يأخذ منّا الحق، ويعطينا إياه، ويحكم بيننا فى أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا..

فقال لهم الرسول ﴿ﷺ﴾: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، حق أمين، حق أمين».

وأمرهم النبى ﴿ﷺ﴾ أن يأتوه عند صلاة الظهر.

كان هذا الحوار على مرأى ومسمع حشد كبير من الصحابة، فاستشرفوا لها جميعاً، وتمنى كلٌ منهم أن يذهب بهذا الثناء من رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، وأن يقع عليه اختيار خاتم النبيين.

يقول عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة قط، حبى إياها يومئذٍ، رجاء أن أكون صاحب هذا الثناء من رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

فذهبت إلى صلاة الظهر مهجراً[3]، فلما صلى بنا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ الظهر، نظر عن يمينه، وعن يساره، فجعلت أتطاول له؛ ليرانى، فلم يزل يلتمس ببصره فينا حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه وقال: «اخرج معهم، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه».. فقلت عندئذٍ: ذهب بها أبا عبيدة.

---

(١) العاقب: هو أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، واسمه (عبد المسيح).
(٢) السيد: هو صاحب رحلهم، ومجتمعهم، واسمه (الأيهم).
(٣) مهجراً: أى مبكراً.

قريش تتعجل الغد:

لقد وصلت الأمور فى قريش إلى درجة الغليان، وذلك إثر هزيمة بدر التى منيت بها، ولما كان الحال هكذا كانت الاجتماعات فى دار الندوة مستمرة، والمشاورات كثيرة كلها تؤكد على ضرورة الحرب، وأنه لا سبيل لقريش ألا القضاء على محمد ﴿ﷺ﴾ وأتباعه.

فسارعوا فى تجهيز أنفسهم، وحرضوا عبيدهم، ووعدوهم بالحرية، وتعجلوا الأيام التى كانت تمر عليهم ثقيلة لا نهاية لها.

ووقف الشيطان وصرخ، فزادت الضغينة والبغضاء، ونصبت المكائد، وذهبت المرؤة التى عرف بها العرب، فكان يوم أحد.

أبو عبيدة يقسم على أبى بكر:

ولما كانت غزوة أحد، خاضها أبو عبيدة بن الجراح وأبلى فيها أعظم البلاء وأكرمه، وقاتل قتال الأبطال.

ولما رأى الناس يتدافعون ويفرون هاربين، وقف فى وجه السيل المتدفق، من المنهزمين، وهو يحمل سيفه، وأراد أن يردهم ويعيدهم إلى صوابهم، ولكنه لم يستطع.

بيد أن أبو عبيدة كان يشغله يوم أحد أمراً آخر ومهمة كبيرة.

فما هو ذلك الأمر وما هى تلك المهمة؟!!

أبصر أبو عبيدة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ من بعيد وهو يقاتل بمفرده وسط صناديد قريش، فأسرع بجواره، وصنع من نفسه درعاً بشرياً؛ ليقى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ من رماح المشركين وسهامهم الغادرة.

وعندما رأى الرسول ﴿ﷺ﴾ يمسح الدم بيمينه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟».

عند ذلك طار صوابه وجن جنونه، ولكن لماذا لا نترك الكلام لأبى بكر الصديق يحدثنا بنفسه، ويصف لنا ما حدث؟

فروايته لهذا المشهد لها الأثر الكبير فى نفوسنا...

يقول الصديق: لما كان يوم أحد، ورمى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى وجهه حتى دخلت فى وجنته حلقتان من المغفر(١) فأقبلت أسعى إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وإنسان قد أقبل من قِبل المشرق يطير طيرانا.

فقلت: اللّهم اجعله طاعة، حتى توافينا إلى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني(٢) فقال: أسألك باللّه يا أبا بكر إلا تركتنى، فأنزعه من وجنة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

فتركته، فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتى المغفر فنزعها، وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبى عبيدة.

ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم(٣).

لك اللّه يا أبا عبيدة.. خشى إن اقتلعهما بيده أن يؤلم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فعض على أولاهما بثنيته عضاً قوياً محكماً شديد الإحكام فاستخرجها، ووقعت ثنيته فلم يبال، ثم عض على الأخرى بثنيته، فاقتلعها، فسقطت ثنيته الثانية، فكان كما قال أبو بكر: من أحسن الناس هتماً.

---

(١) المغفر: الدرع.

(٢) بدرنى: سبقنى.

(٣) الطبقات الكبرى ابن سعد: ٢/٤٣.

أمين الأمة يحرص على طاعة الرسول ﴿ﷺ﴾ :

بلغ رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن جمعاً من الناس من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يهاجموا مدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأن ينالوا منها على غرة من أهلها، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة.

عندئذٍ دعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ الصحابي عمرو بن العاص رضى الله عنه، فعقد له لواءاً أبيضاً، وجعل معه رايةً سوداء، وكان معه من المهاجرين والأنصار ثلاثمائة فارس.

فسار عمرو بمن معه حتى وصلوا مكان يسمى ذات السلاسل وهى وراء وادى القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام، فوجدوا أن العدو قد أعد لهم جمعاً كبيراً لا قبل لجيش المسلمين بهم.

عند ذلك بعث عمرو رجلاً(١) من المسلمين إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ يستمده، فبعث النبى ﴿ﷺ﴾ مائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهم وكوكبة من صحابة النبى ﴿ﷺ﴾، وجعل أميرهم أبو عبيدة بن الجراح.

لحق أبا عبيدة ومن معه بعمرو بن العاص، وهنالك حان وقت الصلاة، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت علىَّ مدداً وأنا الأمير.

فقال أبو عبيدة : لقد أوصانى حبيبى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن نكون جميعاً ولا نختلف، فأطاع له بذلك أبو عبيدة وصلى عمرو بالناس.

---

(١) هو رافع بن مكيث الجهنى صحابى جليل له مواقف حسنة فى الإسلام.

نقول: لقد كان أبو عبيدة حريصاً على طاعة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ كحرصه على أداء الفرائض جميعاً، فلم يطلب منه النبى ﴿ﷺ﴾ شيئاً قط، وتأخر أو تعلل بأى سبب من الأسباب، بل كان يسارع ملبياً ومجيباً قائلاً: سمعاً وطاعة لرسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

ولقد شهد أبو عبيدة مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ المشاهد كلها، فقد عاش رضى اللّه عنه طوال حياته غازياً حتى قيل عنه: إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون منذ عهد الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى أن وافاه اليقين.

بل ظل يقود جيوش المسلمين من نصر إلى نصر حتى فتح اللّه على يديه كل الديار الشامية.

أبو عبيدة يوم السقيفة:

على أثر التحاق الرسول ﴿ﷺ﴾ بالرفيق الأعلى، اجتمع حشد كبير من الأنصار؛ ليبايعوا الصحابى الجليل سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة، وعلم أبو بكر بذلك، فذهب إليهم ومعه أبوعبيدة وعمر؛ ليدرأوا الفتنة فى مهدها، وليكبحوا جماح الطائفية.

فعندما وصل وفد المهاجرين الثلاثة إلى حيث يجتمع الأنصار، فإذا بالموقف ملتهباً تتطاير شظاياه كالرصاص المقذوف، كل ذلك ورسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لم يدفن بعد، وكادت تحدث أكبر فتنة فى تاريخ الإسلام.

عندئذٍ همَّ عمر بن الخطاب؛ ليتكلم فى ذلك الحشد الملتهب الثائر، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر.

ثم قال الصديق: يا معشر الأنصار.. أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل..

ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً..

وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

واقترب أبو بكر من عمر وأبوعبيدة وتوسطهما، وأخذ ذراعيهما، ورفعهما بكلتا يديه..

عند ذلك تدخل أبو عبيدة فى الأمر، وتكلم، فقال:

يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغيَّر.

ثم انطلق فى البكاء على حال المسلمين وما هم فيه، ثم كفكف أبو عبيدة دموعه وقال: ما كنت لأتقدم بين يدى رجل أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا، فأمَّنا حتى مات رسول الله ﷺ [1].

وقال عمر بن الخطاب: والله لئن أُقَدَّم فيضرب عنقى فى غير إثم، أحب إلىّ من أن أؤمرَّ على قوم فيهم أبو بكر.

بهذه الكلمات العِذّابِ الوضاءة غربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات..

فتقدم عمر وبايع الصديق، ثم تقدم أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح فبايع الصديق، ثم أقبلت الأنصار فبايعت.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/٢١١، وسير أعلام النبلاء: ٢/٤٧٢ بتصرف يسير.

أبو عبيدة والصديق أبو بكر:

كان أبو عبيدة الجندى الأمين والفارس المطيع لرسول الله ﴿ﷺ﴾، وكذلك كان لخليفته أبى بكر، فكان خير ناصح له فى الحق، وكان يده التى يبطش بها على الأعداء.

فبعد أن فرغ أبو بكر من قتال المرتدين، بعث أبو عبيدة ابن الجراح ويزيد بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة إلى البلقاء[1].

فسار أبو عبيدة وصاحباه فصالحوا أهل بصرى، فكانت أول ما فتح من مدائن الشام[2].

وتوالت الفتوحات:

وفى سنة ثلاث عشرة من الهجرة توفى خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ أبو بكر الصديق لثمان بقين من جمادى الآخرة، وعهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكان أبو عبيدة لعمر -كما كان لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ولخليفته الصديق- نعم الصاحب والمعين، ودان له بالطاعة.

أبو عبيدة قائداً للجيوش:

لما كان يوم دمشق، سار أبوعبيدة إليها، وخالد بن الوليد على مقدمة الناس، وكان قائد جيوش الروم رجل يقال له «باهان»، والتقى المسلمون والروم فى معركة من أكبر معارك المسلمين مع الروم.

---

(١) هى اليوم محافظة فى الأردن، سير أعلام النبلاء.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/٦-٥.

ودار القتال فيما حول دمشق، فاقتتلوا في ذلك اليوم قتالاً شديداً، ثم هزم اللّه الروم، ودخلوا دمشق، وغلقّوا أبوابها على أنفسهم، فنازلها المسلمون حتى فتحت، وأعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وفي أثناء القتال كان قد قدم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أبي عبيدة كان فيه:

إني قد استعملتك، وعزلت خالداً، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرأ خالد الكتابَ، وأخفى ذلك الخبر، حتى فتحت دمشق، وجرى الصلح على يدي خالد، وكُتب الكتابُ باسمه.

فلما علم خالد من بعض الجند قال: يرحمك اللّه يا أبا عبيدة، ما دعاك إلى أن لا تعلمني، فقال أبو عبيدة وعيناه في الأرض والخجل يأكله: إني كرهت أن أروعك، وكرهت أن أكْسِر عليك حَرْبك، وما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل، كلنا في اللّه أخوة[١].

وينتقل أبو عبيدة من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر حتى فتح اللّه على يديه دمشق، وأجنادين[٢]، وفحِل[٣]، ومرج الصُفَّر[٤]، واليرموك التي استأصل اللّه فيها جيوش الروم، ويصبح أمين الأمة هو أمير الجيوش جميعاً في بلاد الشام، بل ويصبح أميراً للأمراء[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥٣٢/٢ بتصرف يسير.
(٢) موضع معروف بالشام من ناحية فلسطين.
(٣) اسم موضع بالشام.
(٤) موضع قرب دمشق.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١٣/٣.

بين عمر وأبي عبيدة:

وفي إحدى المعارك في بلاد الشام، بلغ عمر أن أباعبيدة حُصِر بالشام هو وجيشه، وقد نال منه العدو، فكتب إليه عمر، وأمر بالبريد، فعندما وصل خطاب أمير المؤمنين إلى أمين أمة محمد ﴿ﷺ﴾ أبي عبيدة بن الجراح، وقرأه فوجد فيه:

أما بعد، فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة، إلا جعل الله بعدها فرجاً، وإنه لا يغلبُ عُسر يسرين ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

فما كان من أبي عبيدة إلاّ أن كتب إلى أمير المؤمنين كتاباً جاء فيه:

أما بعد، فإن الله يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(٢)].

فحين وصل البريد إلى عمر وقرأه صعد فوق المنبر، وقرأه على الناس مرة ثانية، وقال: «يا أهل المدينة: إنما يُعَرِّض بكم أبو عبيدة أو بي، ارغبوا في الجهاد»[(٣)] وحثهم على الخروج في سبيل الله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) سير أعلام النبلاء.

عمر بن الخطاب في بلاد الشام:

لم يكن أبوعبيدة يوماً فظاً غليظاً ولم يتأفف من أحد صغيراً كان أو كبيراً، فعندما حاصر أهل إيلياء(١)، وأحكم الحصار، فسألوه الصلح على أن يكون عمر هو الذى يعطيهم ذلك، ويكتب لهم أماناً.

فلم تأخذه الحمية، ولم يتضجر، بل قال لهم: لكم ما طلبتم، فكتب أبو عبيدة إلى عمر، فَقَدِمَ عمر إلى الأرض المقدسة، وكتب لهم الكتاب، وأعطاهم الأمان، فكان الصلح.

عمر في بيت أبو عبيدة:

وحينما قدم عمر بلاد الشام، تلقاه الأمراء والعظماء، فسألهم: أين أخي أبو عبيدة؟

قالوا: يأتيك الآن، فما هي إلا لحظات وأتى أبو عبيدة، فسلم عليه، ثم قال للناس: انصرفوا عنا، ثم قال عمر: اذهب بنا إلى منزلك، فقال أبو عبيدة: وما تصنع عندى؟

ما تريد إلاّ أن تُعصِّرَ عينيك عليّ!!

فصحبه أبو عبيدة إلى منزله، فلما دخل أمير المؤمنين لم يرَ شيئاً، فقال:

أين متاعك؟ لا أرى إلاّ سيفاً ودرعاً، وأنت أمير!!

ثم سأله: أعندك طعام؟

---

(١) إيلياء هى مدينة القدس.

فقام أبو عبيدة وأتى بكُسيرات، فبكى عمر بكاءً شديداً، فقال له أبوعبيدة: قد قلت لك إنك ستُعصّرَ عينيك عليّ يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل[1].

عندئذٍ قال عمر: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة[2].

الطاعون يجتاح بلاد الشام:

وفي سنة ثماني عشر من الهجرة اجتاح الطاعون بلاد الشام، لم يعرف الناس مثله قط، فكان يأخذ الصغير والكبير، الرجال والنساء، فكان يحصد الناس حصداً.

فما كان من عمر بن الخطاب بعد علمه بهذا الوباء إلا أن كتب إلى أبي عبيدة كتاباً قال فيه:

إنه قد عرضت لي حاجة، ولا غنى بي عنك فيها، فعجل إليّ.

فلما وصل البريد إلى أبي عبيدة، وقرأ الكتاب قال:

عرفت حاجة أمير المؤمنين، إنه يريد أن يستبقي من ليس بباق.

فكتب إليه كتاباً رداً على ذلك الكتاب قال فيه: إني عرفت حاجتك، فحلّلني من عزيمتك، فإني في جندٍ من أجناد المسلمين، لا أرغب بنفسيّ عنهم.

فلما قرأ عمر بن الخطاب الكتاب، بكى حتى بللت دموعُه ثيابَه..

---

(١) موضع القيلولة ويريد هنا الموت.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/٣.

فقيل له : أمات أبو عبيدة؟

قال : لا ، ولكن الموت منه اقترب .

وقبل مرضه الذى مات فيه بقليل ، خطب الناس يوماً فقال : يا أيها الناس إني أمرؤ من قريش ، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت أني فى إهابه .

ثم قال : وددت أني كنت كبشاً ، فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحتسون مرقي .

كل ذلك يا أبا عبيدة ، وأنت من السابقين الأولين ، ومن أهل بدر والفتح والمشاهد كلها ، وأمين الأمة وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، لك الله يا أبا عبيدة ، وحياك ، وحيا ديناً أنجبك ، ورسولاً علمك .

أبو عبيدة يستكثر الخير!!

انتشر الطاعون فى بلاد الشام وقضى على حياة الآلاف ، فقال أبو عبيدة : اللهم نصيبك فى آل أبى عبيدة!!!

فخرجت فى خنصره بثُرة[1] ، فجعل ينظر إليها ، فقالوا له مطمئنين : إنها ليست بشيء .

فقال لهم : ولكني أرجو أن يبارك الله فيها ، فإنه إذا بارك فى القليل كان كثيراً .

وعلم معاذ بن جبل بمرض أبو عبيدة ، فأرسل الحارث بن عميرة ليسأل عنه ..

---

(١) هى بداية انتشار المرض .

فلما أتاه الحارث وجده قد طعن في يده، فتكاثر في نفس الحارث ما رأى وحزن على أمين الأمة، وعند ذلك قال أبو عبيدة: أقسم أنى ما أحب أن يكون لى مكانها حُمْرَ النعم.

أبو عبيدة يلحق بالرسول ﷺ:

لم يمكث أبو عبيدة كثيراً، إذ كثر عليه المرض، وظل طريح الفراش، فلما دخل عليه أصحابه وجدوا امرأته جالسه عند رأسه، وهو مقبل بوجهه على الجدار، فقالوا لها: كيف بات أبو عبيدة؟

قالت: بات بأجر.

فقال أبو عبيدة: إني والله ما بت بأجر.

فلما سمع أصحابه هذا الكلام ساءهم ما سمعوه من أمين الأمة!!

فقال لهم: ألا تسألوني عما قلت؟

قالوا: إنا لم يعجبنا ما قلت فكيف نسألك؟

قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله، فبسبعمائة، ومن أنفق على عياله أو عاد مريضاً، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جُنّة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده، فهو له حِطة»[1].

ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المطعون شهيد، والمبطون شهيد، والغريق شهيد، والحَرِق شهيد، والهَدَم شهيد، والمرأة تموت بجُمْعٍ شهيدة، وذات الجنب شهيدة»[2].

---

(١) تكفيراً للذنوب.

(٢) طبقات ابن سعد ٢: ٢٤٢/٢.

ثم نظر أبو عبيدة إلى الجالسين حوله فقال لهم: إني موصيكم بوصية لن تزالوا بخير إن تمسكتم بها.

أقيموا الصلاة، وصوموا رمضان، وتصدقوا، وحجوا، واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن المرء لو عمر ألف حولٍ ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذى ترون... والسلام عليكم ورحمة الله[1].

ثم التفت إلى معاذ بن جبل وقال له: يا معاذ صل بالناس، ثم فاضت روحه الطاهرة الزكية إلى بارئها، مغتبطة بما بذلت وأعطت وبما زهدت وعفت، وبما أتم الله عز وجل عليها من جزيل النعمة والثواب..

فسلام عليك يا أمين أمة خاتم النبيين..

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

---

(١) صور من حياة الصحابة، طبقات ابن سعد بتصرف يسير.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

جعفر بن أبي طالب

﴿رضي الله عنه﴾

﴿رأيت جعفر بن أبى طالب ملكا فى الجنة.. مضرجة قوادمه بالدماء.. يطير فى الجنة﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

جعفر بن أبى طالب
(رضى الله عنه)

نسبه:

هو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى.

أما نسبه من جهة أمه فهو جعفر بن فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصى..

فأمه هاشمية، فهى وأبو طالب أبناء عم.

حياته:

نشأ جعفر بن أبى طالب فى بيت من أعرق بيوت قريش نسبا وحسبا..

فأبو طالب كان سيدا من سادات قريش، ومن أشرافها، وكان جده عبد المطلب له شرف سقاية الحجيج.

فأبوه هو أبو طالب عم النبى ﴿ﷺ﴾ الذى تكفل به منذ طفولته بعد موت جده عبد المطلب، وحتى زواجه من سيدة نساء العالمين السيدة خديجة رضى الله عنها.

فقد أرسلت رضى الله عنها إلى أبى طالب تخطب منه رسول الله ﴿ﷺ﴾؛ ذلك لأنه يعرف ابن أخيه معرفة جيدة..

وشاءت أقدار الله أن يبعث هذا النور المحمدى داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

فانتشر الإسلام فى أرض مكة، واجتمع أهلها حوله من العبيد ومن الأحرار..

والفقراء والأغنياء..

فلم يفرق بين غنى وفقير، أو عبد وحر؛ إذ أن القاعدة الأساسية:

«لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى والعمل الصالح».

فالتقوى فى هذه الدعوة المحمدية هى المقياس الذى يقاس عليه عمل العاملين.

قريش تفاوض أبا طالب فى أمر محمد:

لقد غار أهل مكة على دين آبائهم وأجدادهم فمشوا إلى أبى طالب حتى دخلوا عليه فى داره فدار حوار بين رجال من قريش وبين أبى طالب.

ومن هؤلاء الرجال أبو جهل، وعقبة بن أبى معيط، وعمارة بن الوليد بن المغيرة.

فما الهدف الذى اجتمعوا له؟ وما هى القضية التى أقلقتهم، وأقضت مضاجعهم؟

إنه لا بد أن تكون قضية محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾.

أجل.. نعم إنها هى.. هى..

قالوا : يا أبا طالب، أنت سيدنا ، وأفضلنا فى أنفسنا ، وقد رأيت هذا الذى فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا ، وطعنهم علينا ، وتسفيههم أحلامنا ..

يا أبا طالب قد جئناك بفتى من قريش كما ترى، وهو من أفضل شباب قريش جمالا ونسبا ، ونهادة وشعرا ، ندفعه إليك؛ فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة، وأفضل فى عواقب الأمور مغبةً.

فماذا قال لهم أبو طالب، ولاسيما أن الذى يريدون قتله هو ابن أخيه؟

قال أبو طالب : والله ما أنصفتمونى ، تعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابن أخى تقتلونه؟!!

ما هذا بالنصف!

تساموننى سوم العزيز للذليل، وما أنا بذلك.

فلما رأت قريش موقف أبى طالب جوار ابن أخيه أرادوا أن يخرجوا من هذا المأزق أمام سيد قريش فقالوا :

إذاً فأرسل إليه فلنعطه النصف، فأرسل إليه عمه أبو طالب فجاء النبى ﴿ﷺ﴾ إليه ملبيا نداء عمه.

فقال أبو طالب : يا ابن أخى هؤلاء عمومتك وأشراف قومك، وقد أرادوا أن ينصفوك.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : قولوا أسمع.

قالوا : تدعنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك .

فقال أبو طالب : قد أنصفك القوم ، فاقبل منهم .

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : «أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطىَّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم؟» .

فقال أبو جهل : إن هذه لكلمة مربحة .. نعم وأبيك لنقولنها وعشرا أمثالها .

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : «قولوا : لا إله إلا اللّه» .

فاشمأز القوم ، ونفروا منها ، وغضبوا ، وقاموا من مجلسهم ، وهم يقولون : اصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يُراد .

ثم قالوا : واللات والعزى لن نعود إليه أبدا ، وما خير من أن يغتال محمدا .

ثم خرجوا من بيت أبى طالب ، وكان النهار فى آخره ، فلما كان المساء من هذا اليوم جاء أبو طالب وبعض أعمام النبى ﴿ﷺ﴾ إلى منزله فلم يجدوه ، وظنوا أن محمدا قد فقد ، فجمع أبو طالب كل أعمام النبى ﴿ﷺ﴾ ، وكل فتيان بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ثم قال وهو السيد المطاع : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ، ثم ليتبعنى إذا دخلت المسجد ، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية(١) ، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقالوا جميعا : نفعل .

---

(١) ابن الحنظلية : هو أبو جهل ، والحنظلية هى أمه . كنى بها .

ثم مرّ بالمسجد زيد بن حارثة، وهم جلوس، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب على هذا الحال.

وعندما رأى أبو طالب زيد بن حارثة مقبلا عليهم فقال له: يا زيد أحسست ابن أخي؟

فقال زيد: نعم، كنت معه آنفا.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتا أبدا حتى أراه.

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكان هو وأصحابه في بيت عند الصفا يقال له: بيت الأرقم بن الأرقم.

فقال زيد يا رسول اللّه: إن عمك أبا طالب وبنيّ هاشم وبني المطلب رأيتهم في المسجد مؤتمرين على قريش، وقد ظنوا أنك قتلت.

فجاء رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ إلى أبي طالب، فقال أبو طالب واللّهفة على وجهه: يا ابن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟

فقال النبي ﴿ﷺ﴾: نعم..

فقال أبو طالب: يا ابن أخي ادخل بيتك، فدخل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾..

ولما كان الصباح، وأصبح أبو طالب ذهب إلى بيت النبي ﴿ﷺ﴾، فأخذه في يده، ومشى إلى المسجد، ومرّ بأندية قريش ووراءهم الفتيان الهاشميون والمطلبيون.

فقال يا معشر قريش: هل تدرون ما هممت به؟

قالوا: لا.

فأخبرهم أبو طالب الخبر، وما كان ينوى أن يفعله، ثم قال لفتيانه: اكشفوا عما فى أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم ومعه حديدة صارمة.

فقال أبو طالب: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسرت قريش، وكان أبو جهل أشد انكسارا[1].

قريش تنوى مقاطعة محمد ومن آمن معه:

عندما رأت قريش أن أبا طالب لن يتخلى عن ابن أخيه قرر زعماؤها مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب، فما كان من بنى هاشم وبنى عبد المطلب إلا الوقوف بجانب أخيهم وابن عمهم أبى طالب، وأقاموا معهم فى شعبه.

ظل هذا الحصار الرهيب قرابة ثلاث سنوات، قال بعض المؤرخين:

«أكل بنو هاشم وبنو المطلب ورق الشجر؛ ليسدوا جوعهم».

وكم حارب أبو طالب قريش بلسانه فينظم القصيدة وراء القصيدة، ومن بعض ما قاله:

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى
ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذنب
ولاتتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا
أواصرنا بعد المودة والقرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا
لضراء من عض الزمان ولا كرب[2]

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/١٣٧ - ١٣٨.

(٢) خلفاء الرسول ﷺ، ص: ٣٥٩.

ولكن سيدنا محمدا ﷺ يخبر عمه بغيبيات من الله تعالى، فيقول له إنه أوحى إليه أن الله سبحانه وتعالى أمر الأرضة أن تأكل صحيفة قريش التى كتبوها فى المقاطعة، وكانوا قد علقوها فى جوف الكعبة.

حينئذ ذهب أبو طالب إلى قريش وهم جلوس فى المسجد، وقال:

يا معشر قريش: إن ابن أخى أخبرنى بأن الله قد سلط الأرضة على صحيفتكم، فأكلتها إلا باسمك اللهم.. فهلم صحيفتكم؛ فإن تك كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يك كاذبا دفعته إليكم.

فرضى زعماء قريش بهذا.

هذا الموقف الذى وقفه أبو طالب يدل دلالة قاطعة على أن نسمات الإيمان ترعرعت فى قلبه؛ لأنه إن لم يكن متأكدا من صدق ابن أخيه لما قال: وإن يك كاذباً دفعته إليكم.

فذهب زعماء قريش إلى جوف الكعبة، فوجدوا أن الأرضة قد أكلت هذه المقاطعة، فبهتوا جميعا، وكان نصر الله..

وفى تلك الدار الصغيرة يرقد الشيخ الكبير يوصى قريشا..

فيقول أبو طالب:

يا معشر قريش: أوصيكم بتعظيم هذا البيت؛ فإن فيه مرضاة الرب، وقوام العيش.. صلوا أرحامكم، ولا تقطعوها؛ فإن صلة الرحم منسأة فى الأجل.

اتركوا البغى فقد أهلك القرون من قبلكم.

يا معشر قريش: أجيبوا الداعى.. وأعطوا السائل.. فإن فيهما شرف الحياة، وشرف الممات.

وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة..

ألا وإني أوصيكم بمحمد خيرا..

فإنه الأمين فى قريش، والصادق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به..

ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن..

وايم الله لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأكراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت..

ولكأنى به وقد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها..

والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد.. ولا يهتدى بهديه إلا سعد..

ولو كان فى العمر بقية لكففت عنه الهزاهز[1]، ولدفعت عنه الدواهى.

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بنى هاشم، واختصهم بوصية أخرى فقال فيها:

وأنتم يا معشر بنى هاشم: أجيبوا محمدا، وصدقوه، تفلحوا وترشدوا[2].

---

(١) الهزاهز: الاقتتال الشديد والمعارك.

(٢) خلفاء الرسول: ٣٥٤، ٣٥٥.

جعفر سليل المجد والشرف:

إنه عبد مناف المكنى بأبى طالب والد جعفر وعلى وعقيل، فمن صلب هذا الرجل جاء بطل قصتنا جعفر بن أبى طالب ذو الجناحين..

فورث المجد من بنى هاشم.. وورث الشجاعة من أبيه، ومن عمه حمزة.

جاء جعفر من صلب هذا الرجل الذى لم يوص إلا بالخير والإيمان بمحمد وأتباعه.

فهل سب أو لعن دين الله كما فعل غيره من صناديد قريش؟

هل قال غير ذلك؟

أو أمر بغير هذا؟

كلا والحمد لله.

فهذا ولده جعفر بين أيدينا، والذى افتخر به سيدنا الحسين بن على -رضى الله عنهما-، وبنسبه، وحسبه، وشرفه، كما جاء فى الصواعق لابن حجر:

أنا ابن على الحبر من آل هاشم
كفانى بهذا مفخرا حين أفخر

وجدى رسول الله أكرم من مشى ... وعمى يدعى ذا الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقا ... وفينا الخير والنور والهدى يذكر

هذا جعفر أخو الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم جميعا..

كان أسن من أخيه الإمام على بعشر سنين..

كما أنه أسلم بعده بقليل على يد أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه هو وزوجه أسماء بنت عميس..

وكان قبل أن يدخل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ دار الأرقم ويدعو فيها إلى دين اللّه سرا[1].

أسلم قبله ثلاثون رجلا وواحد ، وكان هو الثانى والثلاثين[2].

ولما رأى أبو طالب النبى ﴿ﷺ﴾ وعليا يصليان ، وعلى عن يمينه ، فقال أبو طالب لولده جعفر : صل جناح ابن عمك، وصل عن يساره.

فأسلم جعفر رضى اللّه عنه والدعوة سرا..

ولكن اللّه تعالى أمر حبيبه المصطفى أن يجهر بالدعوة بعد ذلك..

وذَكَرَ آلهة قريش.. وبيّن حقيقتها .. فناصبوه العداء ..

واتفقوا على خصومته إلا من عصم اللّه.

ثم إن قريشا تذامروا فيما بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ الذين أسلموا معه ، فقامت كل قبيلة على من أسلم منها يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم.

الرسول ﴿ﷺ﴾ يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة:

وعندما رأى النبى ﴿ﷺ﴾ أصحابه، وما هم فيه من العذاب والبلاء ، وما هو فيه من العافية لمكانه من اللّه تعالى ، ثم من عمه أبى طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه فقال لهم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ :

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٠/٢٤ .

(٢) سيرة ابن هشام.

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»[1].

عند ذلك خرج بعض أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا من العذاب الذى يصيبهم من صناديد قريش، وفرارا إلى الله تعالى بدينهم.

فكانت هى أول هجرة فى تاريخ الإسلام، ومن نتائجها إسلام النجاشى ملك الحبشة.

المهاجرون الأوائل:

وكان أول من خرج مهاجرا إلى أرض الحبشة هو سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، ومعه زوجته السيدة رقية بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾، والزبير بن العوام رضى الله عنه، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ الطيبين الطاهرين.

ثم خرج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، وزوجه أسماء بنت عميس؛ ليكونوا فى صحبة هؤلاء الركب المهاجر إلى الله تعالى.

وكانت هذه الهجرة الحبشية بمثابة سفينة النجاة يركبها الأصفياء والأتقياء تاركين وراءهم ذكريات طفولتهم وشبابهم وعشيرتهم وبيوتهم..

كل ذلك بلا ذنب إلا أنهم قالوا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

---

(١) سيرة ابن هشام.

أم سلمة تحكى لنا وقائع الرحلة:

ولكن لماذا لا ندع شاهدة عيان تحكى لنا ما حدث بالتفصيل؟

إنها السيدة أم سلمة زوج رسول الله ﴿ﷺ﴾ رضى الله عنها .

تقول أم المؤمنين: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جوار وهو «النجاشى» .

أمننا على ديننا ..

وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه.

قريش تبعث بسفرائها إلى النجاشى:

وتكمل أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها :

فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم(١) .

فجمعوا له أدما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا إليه... ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص.. وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم..

ثم قدما إلى النجاشى هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

---

(١) الأدم : الجلد .

تقول أم سلمة رضى اللّه عنها :

فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم..

وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم؛ ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقال البطارقة: نعم.

ثم قدما هداياهما إلى النجاشى، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك: إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم..

ولم يدخلوا فى دينك..

وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليه، وعاتبوهم فيه.

تقول السيدة أم سلمة -رضى اللّه عنها-:

ولم يكن شيئا أبغض إلى عمرو وصاحبه من أن يسمع كلامهم النجاشى.

فقالت بطارقته وهم حوله:

صدقا أيها الملك.. قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليه، فأسلمهم إليهما؛ فليردوهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي ثم قال: لا والله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاورونى، ونزلوا بلادى، واختارونى على من سواى، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان الرجلان فى أمرهم..

إن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم..

وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاورونى.

ثم أرسل النجاشى إلى أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض:

ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﴿ﷺ﴾، كائنا فى ذلك ما هو كائن، ويتكلم بدلا منا جعفر بن أبى طالب، ولا يتكلم أحد غيره.

ثم ذهبنا إلى النجاشى، فوجدناه، وقد دعا أساقفته، فنشروا كتبهم، وقد لبسوا طيالسهم، واعتمروا قلانسهم.

وكان فى مجلسه عمرو بن العاص، وصاحبه.

فقال النجاشى: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

جعفر يشرح القضية:

وهنا تقدم ابن عم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ جعفر بن أبى طالب فقال:

أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللّه؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، وحقن الدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام.

وعدد سيدنا جعفر على النجاشى محاسن الإسلام التى جاء بها رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

ثم أردف قائلا: فصدقناه، وآمنا به، واتبعنا ما جاء به من عند اللّه، فعبدنا اللّه وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

فما كان من قومنا -أيها الملك العادل- إلا أن عدا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ وذلك ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة اللّه تعالى، وأن نستحل الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا، وبين ديننا.. خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك..

قالت السيدة أم سلمة رضى الله عنها :

عند ذلك قال النجاشي سائلا جعفر بن أبي طالب -رضى الله عنه- وهل معك مما جاء به من عند الله من شيء؟

فقال جعفر : نعم.

فقال النجاشي : فاقرأه عليّ.

فقرأ جعفر بن أبى طالب -رضى الله عنه- :

﴿كهيعص، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[١].

وأكمل جعفر صدرا من هذه السورة، فلما فرغ جعفر رضى الله عنه من القراءة، بكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حتى بللوا كتبهم حين سمعوا ما تلى عليهم من كتاب الله تعالى.

النجاشي يعترف بالإسلام:

ثم قال النجاشي :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وهنا التفت النجاشي إلى عمرو بن العاص وصاحبه قائلا :

انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون[٢].

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١ -٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ١٠، ١١ بتصرف.

لقد امتلأ كيان جعفر -رضى الله عنه- بالنور المحمدى فى وعاء يسمعه منه، فملأ -رضى الله عنه- كيان النجاشى، فكان خاضعا ذليلا سبقته عناية الرب العلى، فقدر له الإسلام الجلى.

وإن دل هذا الموقف على شيء فإنما يدل على عظمة أهل البيت..

بيت النبى ﴿ﷺ﴾ الطاهرين الذين شربوا من حوض حبيبهم النبى ﴿ﷺ﴾ فسقوه لمن خلفهم.

تقول السيدة أم سلمة رضى الله عنها:

فلما خرجنا من عند النجاشى قال عمرو بن العاص:

والله لآتينه غدا، ولأذكرن له من أمرهم ما يملأ صدره غيظا منهم، ويملأ فؤاده كرها لهم.

فقال عبد الله بن أبى ربيعة: وكان أتقى الرجلين فينا:

لا تفعل؛ فإن لهم أرحاما وإن خالفونا.

فقال عمرو بن العاص: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

عمرو يحاول الوقيعة:

ثم غدا عمرو بن العاص وصاحبه على النجاشى، فقال له عمرو: أيها الملك.. إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم، وسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل النجاشى إليهم؛ ليسألهم عن ذلك.

تقول السيدة أم سلمة :

ثم نزل بنا من الغم والحزن ما لم ينزل بنا مثله قط ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض :

ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟

فقال سيدنا جعفر –رضى الله عنه– :

نقول فيه الذى جاء به نبينا ﴿ﷺ﴾ : هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

ودعانا النجاشى ، فدخلنا عليه ، وكان عنده بطارقته على ما كانوا عليه عندما رأيناهم أول مرة ، ووجدنا عنده عمرو بن العاص وصاحبه .

فلما وقفنا بين يديه سألنا :

ما تقولون فى ابن مريم وأمه؟

فتكلم جعفر قائلا :

نقول كما قال الله تعالى : روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التى لم يمسها بشر .

فرفع النجاشى عودا من الأرض وقال :

يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما خرج عيسى بن مريم عما جاء به نبيكم مقدار هذا العود .

ثم قال : ما يسؤونى هذا .. أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل ..

والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته، فأكون أنا الذى أحمل نعليه وأوضؤه[1].

ثم التفت إلى المسلمين وقال لهم:

انزلوا حيث شئتم فأنتم آمنون..

من سبكم غرم..

من سبكم غرم..

من سبكم غرم..

ما أحب أن لى جبل من ذهب وأن يؤذى رجل منكم.

وأما عمر بن العاص وصاحبه فقد نظر إليهما النجاشى، وقال: ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بهما، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى، فأطيعهم فيه.

النجاشى يخيب أمل السفراء:

فخرج عمرو وصاحبه مهزومين مطرودين مردودا عليهما ما جاءا به، وأما المسلمون فأقاما عند النجاشى بخير وأرفع وأكرم جوار[2].

استطاع جعفر -رضى الله عنه- أن يسيطر على قلب النجاشى، وعقله، وكل عواطفه، بما حباه الله من صدق الحديث، وقوة الحجة، وسلاسة الأسلوب، وقوة الإيمان ونقائه، ورجاحة العقل، وسمو الأخلاق، ووضوح اليقين، فأسلم النجاشى وحسن إسلامه.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٢٢ من حديث ابن مسعود.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١.

جعفر يعود إلى المدينة:

ظل سيدنا جعفر -بن أبى طالب رضى اللّه عنه- هو وزوجه السيدة أسماء التى أنجب منها عبد اللّه، ومحمد، وعون فى بلاد الحبشة زمنا طويلا..

حيث ذهب إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة، وبقى بها حتى أواخر السنة السابعة من الهجرة النبوية الشريفة.

حيث عاد إلى المدينة ورسول اللّه ﴿ﷺ﴾ قد فتح خيبر، وبذلك يكون سيدنا جعفر بن أبى طالب ومن معه من الصحابة الكرام قد مكثوا فى الحبشة خمسة عشر عاما تقريبا.

وقد كان لوجود جعفر على أرض الحبشة فى هذه الفترة الطويلة نتيجة فعالة، فكان قبسا من نور النبوة، وفيضا من معانيها المباركة، فقد قال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لسيدنا جعفر: «أشبهت خَلقى وخُلقى».

كتب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ إلى النجاشى فى شهر ربيع الأول من سنة سبع من الهجرة أن يبعث بمن بقى عنده من أصحابه، وذلك بعد فتح خيبر، وكان جماعة من المسلمين قد رحلوا عن الحبشة لما علموا بهجرة النبى ﴿ﷺ﴾ من مكة إلى المدينة المنورة، وكان منهم سيدنا الزبير بن العوام وغيره.

نقول كتب النبى ﴿ﷺ﴾ إلى النجاشى بحمل من عنده من الصحابة، ففعل النجاشى، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية، وكان فيهم سيدنا جعفر بن أبى طالب، وزوجه أسماء، وأولاده الثلاثة، وأبو موسى الأشعرى، وغيرهم.

قدم جعفر وأصحابه المدينة المنورة يوم فتح خيبر، فقبله الرسول ﴿ﷺ﴾ بين عينيه والتزمه وقال:

«ما أدرى بأيهما أُسَرّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟».

وكأن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يخاطب كل من كانوا مع سيدنا جعفر فى الحبشة في شخص جعفر؛ لأنهم صاروا رجلا واحدا، وقلبا واحدا، وجسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر..

حيث أشرك الرسول ﴿ﷺ﴾ المهاجرين إلى الحبشة فى كل الغنائم التى غنمها المسلمون من خيبر.

وشاءت قدرة الله تعالى أن يفتح الوجود كله لسيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومن معه بعد هذه الرحلة الصعبة، والعقبات المتراكمة، والامتحانات الإلهية الشديدة:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١).

والكل فى اشتياق إلى بيت الله الحرام، فسيدنا جعفر أمضى خمسة عشر عاما فى الحبشة، وسيدنا على وأبو بكر وغيرهم من الصحابة قد أمضوا أكثر من سبعة أعوام بعيدين عن بيت الله الحرام.. فاشتد شوقهم إلى بيت الله تعالى.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أراد أن يشهدهم هذه اللحظات الجميلة، لحظات فتح الوجود للنبى ﴿ﷺ﴾ وللصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين.. إنها لحظات فتح مكة.

وامتطى الجميع أشواقهم إلى البيت الحرام وهم يتلهفون إلى هذا اليوم العظيم فكانت عمرة القضاء.

حكاية لا تنسى:

كان لسيدنا جعفر بن أبى طالب -رضى ا لله عنه- موقف عظيم، وحكاية لا تنسى، فما هى هذه الحكاية؟

كانت ابنة سيدنا حمزة أسد اللّه تطوف بين الرجال إذ أخذ سيدنا على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم أجمعين بيدها، فألقاها إلى فاطمة بنت رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى هودجها، فاختصم فيها على، وجعفر، وزيد بن حارثة حتى ارتفعت أصواتهم.

فقال زيد: ابنة أخى، وأنا أحق بها. وكان زيد وصى حمزة.

فقال جعفر: ابنة عمى، وخالتها عندى، وأنا أحق بها؛ لمكان خالتها عندى أسماء بنت عميس..

إذ كانت أمها هى سلمة بنت عميس.

وقال سيدنا على بن أبى طالب: ابنة عمى، وأنا أخرجتها، وأنا أحق بها[1].

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى: ٢٥/٣٠.

فقال رسول الله ﷺ: «هلموا اقض بينكم فيها وفي غيرها».

فجاءوا رسول الله ﷺ، وجلسوا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا زيد فمولى الله ورسوله، وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي، وأما أنت يا جعفر فتشبه خَلقي وخُلقي، وأنت يا جعفر أولى بها، تحتك خالتها، ولا تنكح المرأة على خالتها ولا عمتها».

فقضى بها لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

عندئذ قام سيدنا جعفر فحجل حول النبي ﷺ أي دار حوله.

فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا جعفر؟».

قال جعفر: يا رسول الله.. كان النجاشي إذا أرضى أحدا قام فحجل حوله[1].

جعفر أبو المساكين:

ولندع أبا هريرة رضي الله عنه يصف لنا صاحبنا جعفر بن أبي طالب، فماذا قال فيه؟

يقول أبو هريرة: كان خير الناس لنا معشر المساكين، فقد كان يمضي بنا إلى بيته، فيطعمنا ما يكون عنده، حتى إذا نفد طعامه أخرج لنا ما يوضع السمن، وليس فيها شيء، فننشقها ونلعق ما علق بداخلها.

ولما رآه رسول الله ﷺ يحب المساكين، ويعطف عليهم ويأخذهم إلى بيته، ويطعمهم، ويسقيهم اللبن بالتمر، ويخرج لهم ما عنده، ولا يبخل بأي شيء، فمنحه الرسول ﷺ لقب أبو المساكين.

---

(١) من كتاب جعفر بن أبي طالب للدومي والعناني ص: ٨١.

فقد كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يرى من مشاعر سيدنا جعفر الفياضة تجاه المساكين، وصدق مشاعره رضى الله عنه.

يقول أبو هريرة: كان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يكنيه (أبو المساكين)..

ويقول: إن كنت لألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية وهي معي؛ كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما في بيته.

بيد أن جعفر لم يمكث في المدينة المنورة أكثر من بضعة أشهر..

فقد قدم المدينة في سنة سبع من الهجرة، ولما وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وبين صناديد قريش فترة صلح الحديبية فقد أراد المسلمون أن يصل الإسلام إلى كل بقاع الأرض؛ لينال الناس جميعا من نوره، فكانت رسائل النبى ﴿ﷺ﴾ إلى الملوك والرؤساء.

فأرسل النبى ﴿ﷺ﴾ إلى المقوقس ملك مصر، وهرقل ملك الروم، والنجاشى ملك الحبشة، وكل ملوك الجزيرة العربية، فوصلت كتب النبى ﴿ﷺ﴾ إلى كل من أرسل إليه ما عدا رجلا واحدا، وكان ذلك في بداية العام الثامن للهجرة.

فمن هذا الرجل؟

إنه ملك بصرى، فقد بعث رسول الله ﴿ﷺ﴾ الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك بصرى بكتاب يدعوه إلى الإسلام، فلما نزل صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى قرية تسمى مؤتة [1] اعترض طريقه شراحبيل بن عمرو الغسانى، فقتله، ولم يقتل أى رجل ممن أرسلهم النبى ﴿ﷺ﴾ غيره.

---

(١) قرية ببلاد الشام قريبة من البلقاء، والبلقاء دون دمشق وتقع حاليا بالأردن.

الفرسان الثلاثة في مؤتة:

فلما وصل خبر مقتل الصحابى إلى المدينة حتى اشتد ذلك على المسلمين، واشتد ذلك على رسول الله ﴿ﷺ﴾، فنادى فى الناس، فأسرعوا، وتجهزوا للقاء العدو، وعسكر جيش المسلمين بالجرف، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو يعين على قادة الجيش: «أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضى المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم».

ثم عقد رسول الله ﴿ﷺ﴾ لهم لواء، وكان لواءاً أبيضاً، وأعطاه لزيد بن حارثة، ثم أوصاهم أن يأتوا المكان الذى قتل فيه صاحبه الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا كان خيرا لهم، وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم، ثم أوصاهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال:

«اغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله، لاتغدروا، ولا تقتلوا وليدا، ولاتقتلوا امرأة، ولا صغيرا رضيعا، ولا كبيرا فانيا، ولاتغرقن نخلا، ولا تهدموا بيتا».

ثم ودعهم النبى ﴿ﷺ﴾، ونادى فيهم وهم راحلون:

«دفع الله عنكم، وردكم صالحين غانمين».

فما أن وصلوا إلى هناك إلا وقد سمع العدو بمسيرهم؛ فكمن لهم فى مؤتة فى مائة ألف فارس، ثم أتبعهم مائة ألف آخرين، فكان جيش الروم

مائتى ألف مقاتل أمام ثلاثة آلاف يطلبون الجنة، فلما رأى المسلمون عدد العدو وعدته قالوا: نكتب إلى رسول الله «ﷺ» فنخبره الخبر، فشجعهم جعفر وابن رواحة وزيد رضى الله عنهم، وقالوا لهم:

ما نقاتل عدونا بعددنا، ولكن بإيماننا، والله معنا.

فما أن التقى الجمعان، وحمى وطيس المعركة، فأخذ اللواء زيد بن حارثة، فقاتل، وقاتل المسلمون معه حتى قتل زيد طعنا بالرماح.

وقبل أن يسقط اللواء من يد حب رسول الله «ﷺ» حتى وثب جعفر من على فرسه، والتقط اللواء من يده، فكان أول شىء صنعه سيدنا جعفر بعد أخذه لواء الرسول «ﷺ»، أنه قام بعقر فرس له أشقر، فكان أول فرس عقر فى الإسلام، وذلك حتى لا ينتفع به أحد من الأعداء إن قتل، وأيضا لقطع الطريق أمامه من الفرار، واندفع سيدنا جعفر داخل صفوف العدو يقاتل كالليث عاديا وراح ينشد ويقول:

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها

وظل سيدنا جعفر يضرب بسيفه كل من يقابله عن يمينه وعن يساره، ورآه جندى رومى، ورأى أنه لا سبيل للروم إلا قتل هذا العربى، فاعترض الرومى جعفر بن أبى طالب، واختلفا ضربتين قطعت فيها يمين جعفر، وقبل أن يسقط لواء رسول الله «ﷺ» من يده اليمنى أخذه بيده اليسرى، فضربه الرومى على شماله، فقطعت هى الأخرى

فاحتضنه بعضديه، فما كان من هذا الكافر إلا ضربه ضربة ثالثة قطعته إلى نصفين، فأخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل، ولحق بأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ولما انقشع غبار المعركة وجدوا جعفرا قد شق إلى نصفين، ووجدوا أحد نصفيه في كرم، فوجدوا في نصفه هذا بضعة وسبعين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، ووجد به طعنة قد أنفذته، وكل هذه الطعنات، وهو مقبل غير مدبر، أي كلها في صدره، وفي نصفه فقط..

وكان ممن حضر هذه المعركة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول:

كنت معهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفرا، فوجدنا فيما أقبل من جسمه بضعا وتسعين من طعنة ورمية.

يقول ابن إسحاق[١]:

ولما أصيب القوم قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ أخذ الراية زيد بن حارثة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا، ثم صمت رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال رسول الله ﴿ﷺ﴾:

ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا، ولقد رفعوا إلى الجنة.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/١١.

وذهب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ بعد ذلك إلى بيت جعفر، ودخل على أسماء بنت عميس فقال:

يا أسماء أين بنو جعفر؟

فجاءت بهم إليه، فضمهم إليه وشمهم، ثم ذرفت عيناه، فبكى، فقالت أسماء: أى رسول اللّه لعله بلغك عن جعفر شيء؟

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: نعم.. قُتِلَ اليوم.

فقامت أسماء وهى تصيح، واجتمعت إليها النساء، فجعل الرسول ﴿ﷺ﴾ يقول:

يا أسماء لاتقولى هجرا، ولا تضربى صدرا.

فخرج رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وهو يقول: واعماه.

ثم قال: «على مثل جعفر فلتبك الباكية، اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم».

وروى أن النبي ﴿ﷺ﴾ لما نعى لأسماء جعفرا مسح على رأس عبد اللّه بن جعفر، وعيناه تذرفان الدمع، حتى لحيته تقطر، ثم قال:

«اللّهم إن جعفرا قد قدم إلىّ أحسن الثواب، فاخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته».

ثم قال: يا أسماء.. ألا أبشرك؟

قالت: بلى.. بأبى أنت وأمى.

قال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «فإن اللّه جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة».

فقالت أسماء : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فأعلم الناس بذلك.

فقام النبى ﴿ﷺ﴾، وأخذ بيد عبد الله بن جعفر، يمسح بيديه رأس عبد الله حتى رقى المنبر، وأجلس عبد الله أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يُعرَف فى وجهه، فتكلم، فقال :

«إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، ألا وإن جعفرا قد استشهد وقد جعل الله له جناحين يطير بهما فى الجنة» .

ويظهر أثر ذلك فى أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾، ومنهم سيدنا حسان بن ثابت حيث رثاه بمرثية قال فيها :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر ... وهم إذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة ... سفوحا وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وقال كعب بن مالك يرثى جعفرا :

صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فنق عليهن الحديد المرفل
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر
حيث التقى وعث الصفوف
فتغير القمر المنير لفقده
والشمس قد كسفت وكادت تأفل

فسلام عليك يا من بكت السماء والأرض عليك..

الزبير بن العوام

﴿رضي الله عنه﴾

﴿لكل نبي حواري

وحواري الزبير بن العوام﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

الزبير بن العوام

«رضي الله عنه»

نسبه من أبيه:

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى.

نسبه من أمه:

هو الزبير بن العوام بن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى.

إذن فهو يلتقى مع النبى «ﷺ» من جهة أبيه وأمه فى الجد الرابع قصى بن كلاب.

أخواله:

هم أعمام النبى «ﷺ»، أما حمزة سيد الشهداء فهو أخو السيدة صفية أم الزبير لأمها وأبيها.

أولاد عمومته:

أشهرهم حكيم بن حزام الذى قال عنه رسول اللّه «ﷺ» ليلة الفتح.. فتح مكة: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن».

عمته:

هى سيدة النساء السيدة خديجة بنت خويلد رضى اللّه عنها، زوج النبى «ﷺ»، وأولى أمهات المؤمنين.

فأى شرف بعد هذا الشرف؟

وأى نسب أو قرابة بعد تلك..

فكفاك يا ابن العوام فخرا أن تنتسب لهؤلاء.

صفاته وحياته:

كان الزبير بن العوام ربعة في الرجال، ليس بالطويل البين الطول، ولا بالقصير البين القصر، يسر من رآه، أسمر اللون، كثيف الشعر، كان شعره ينزل على أكتافه، خفيف اللحية والعارضين.

لقد تزوجت السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﴿ﷺ﴾ رجلا يدعى الحارث بن حرب -أخو أبى سفيان بن حرب- ثم توفى عنها فى الجاهلية، ثم تزوجت بعد ذلك بالعوام بن خويلد، فولدت له الزبير، وهند، والسائب، وعبد الكعبة.

وعبد الكعبة هذا لم يذكر إلا فى قليل من كتب السيرة، إذ يبدو أنه توفى صغيرا، والذى حدث أن العوام توفى والزبير ما زال صغيرا، فتولت السيدة صفية تربيته، فكانت له الأم والأب معاً.

بيد أن السيدة صفية لم تنتظر ليتم الزبير، فلم تعامله معاملة المدللين المترفين من أترابه، بل غرست فيه الشجاعة والإقدام والبطولة، فكانت تعامله معاملة خشنة قوية، وكانت تعلمه برى السهام، وإصلاح القسى، كما نشأ مغرما بركوب الخيل، وذلك من كثرة ما كانت تعلمه عليها، وتقذف به فوق ظهورها.

أما إذا أخطأ فى شىء فكانت تضربه ضربا مبرحا قويا يؤلمه، وتقول له: لا تعد إلى هذا الشىء..

وكانت تعلمه الصواب والمثل، وتقول له: يا زبير الصواب كذا وكذا.

وقد عاتب أحد أعمامه أم الزبير في معاملتها لولدها، فقال لها: قتلته وأضلعت فؤاده، أهلكت هذا الغلام.

ولكن السيدة صفية ردت عليه ردا جميلا بأبيات شعرية تقول فيها:

من قال قد أبغضته فقد كذب
وإنما أضربه لكي يلب
ويهزم الجيش ويأتي بالسلب

واشتد أزر الزبير وقوى بنيانه، ورأته أمه رجلا نبيلا، فدعت له متمنية له الخير كله.

ومرت السنون وراء بعضها، وأرسل الله سبحانه وتعالى سيد البشر ورسول الإنسانية، سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾، فكان إسلام الزبير وأمه مبكرا، فقد أسلم الزبير على يد أبي بكر الصديق، وهو حديث السن لم يتجاوز ست عشرة سنة من عمره، فكان خامس خمسة دخلوا الإسلام، وكان من الأولين، ومن العشرة المبشرين بالجنة.

الزبير وتعذيب قريش للمسلمين:

ولما كثر المسلمون، وظهرت بوادر الإيمان، وشاع أمر الإسلام، وتحدث به الناس، عندئذ ثار أناس كثيرون من الكفار المشركين في قريش على الإسلام، ونبي الإسلام، وتفننوا في تعذيب الضعفاء منهم، بيد أن قريشا أصبحت مجنونة بما تسمعه عن سيدنا محمد، وعن الدين الجديد الذي جاء به، فلم يقتصر التعذيب على العبيد والضعفاء

فحسب، بل تولت كل قبيلة تعذيب كل من أسلم مع الرسول ﴿ﷺ﴾ من بين أفرادها من الأعيان، فتولى أحد أعمام الزبير تعذيبه لما علم أعمامه بإسلامه، تولى أحدهم تعذيبه؛ حتى يردوه إلى ما كان عليه، فكان الزبير يأبى أشد الإباء .

كان عمه يلفه في حصير، ويدخن عليه، حتى يشعر الزبير باختناق وحرارة شديدة، عند ذلك يقول له عمه :

أصبأت وتركت دين آبائك وأجدادك، واتبعت محمدا؟

اكفر به، وأنا تاركك، وسأدرأ عنك هذا العذاب..

فيجيبه الزبير وهو معلق تحت دخان عمه :

والله يا عم لا أرجع إلى الكفر أبدا .

فلما رأى عمه بأنه لن يرجع عن هذا الدين خلى سبيله وتركه .

الزبير يثأر لرسول الله ﴿ﷺ﴾ :

في ذات يوم والإسلام في أوج ظهوره ظهر إبليس في صورة أعرابي، وأشاع إشاعة تقول إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد قتل بأعلى مكة، فخرج الزبير وبيده سيفه، وصار يتجول في حواري وأزقة مكة؛ ليتبين الخبر أولا، ثم يفعل ما يراه صوابا، فكان كلما مر بقوم عجبوا من أمره وتساءلوا :

أهذا الغلام يحمل سيفا؟!

فيرد أحدهم قائلا : إنه الزبير بن صفية .

ظل يبحث ويتجول؛ ليتيقن من هذه الإشاعة حتى لقى النبى ﴿ﷺ﴾، وهو فى أعلى مكة، فقال النبى ﴿ﷺ﴾: ما شأنك؟

فقال الزبير: سمعت أنك قتلت، وأخبره الخبر..

فقال الرسول ﴿ﷺ﴾: ما كنت تصنع؟

فقال الزبير: كنت أضرب بسيفى هذا من فعلها.

فدعا له النبى ﴿ﷺ﴾ ولسيفه، وكان سيف الزبير هو أول سيف سُلَّ فى الإسلام.

ولما زادت قريش فى اضطهاد المسلمين، وأرادت فتنتهم عن الدين الجديد فى صور متعددة من التعذيب التى برعوا فى إتقانها.

فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «تفرقوا فى الأرض» واختار لهم أرض الحبشة، فهاجر الناس إليها متسللين سرا، وكان عددهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة.

لقد كان الزبير بن العوام -رضى اللّه عنه- أحد فرسان رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، الذين دافعوا عنه بالسيف والرمح والكلمة، فهذا الشاعر يقول عنه عليه-رضوان اللّه تعالى-:

فكم كربة ذب الزبير بسيفه　　　عن المصطفى واللّه يعطى ويجزل

فقد غزا مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ سبعا وعشرين غزوة، لم يتخلف الزبير عن واحدة منها..

كما كان كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين، ولم يطلب الإمارة لنفسه قط.

الزبير بن العوام في غزوة بدر:

وشهد الزبير بن العوام -رضي الله عنه- غزوة بدر الكبرى، وكانت أول لقاء بين فئتين، فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، وفي هذه الغزوة كان للزبير موقف عظيم أعز الله به الإسلام، وأذل به الشرك.

فلقد علم الرسول ﴿ﷺ﴾ أن هناك قافلة لقريش قادمة من الشام، وعلى رأسها زعماء الكفر والشرك، فأراد الرسول ﴿ﷺ﴾ أن يعترض طريق هذه القافلة؛ حتى يعلمهم أن الله قد أعز محمدا وصحبه، فبلغ الخبر لقريش، فتجهزوا، واستعدوا، وجمعوا عددهم، وفي نياتهم حرب النبي ﴿ﷺ﴾، فاستشار النبي ﴿ﷺ﴾ أصحابه، ماذا يصنع؟ فسمع منهم ما أثلج صدره، وأراح نفسه، وطمأن باله..

حيث قال بعضهم: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالله لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته، لخضناه معك، وما تخلف عنك واحد منا.

هنا يتهلل وجه النبي ﴿ﷺ﴾ بشرا فيقول: ابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

الزبير رجل الاستطلاع والمخابرات:

ويقوم الزبير بن العوام بدور رجل المخابرات والاستطلاع، ومعه علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- ؛ ليجمعا الأخبار عن قريش وعددها واستعداداتها، فألقوا القبض على جماعة كانوا على الماء من قريش، فأخذوهم، وأتوا بهم النبي ﴿ﷺ﴾.

فاستجوبهم الرسول ﴿ﷺ﴾ قائلا :

أين قريش؟

فقالوا : خلف هذا الوادى .

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : كم هم؟

قالوا : كثير .

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : كم عددهم .

قالوا : لا ندرى .

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : كم ينحرون من الإبل؟

قالوا : من عشر إلى تسع .

فقال ﴿ﷺ﴾ : «القوم ما بين الألف والتسعمائة» .

وكانوا فعلا قرابة الألف، حيث كان عددهم كما تنطق به بعض الروايات تسعمائة وخمسون رجلا .

فلما ولد صباح يوم الجمعة استعرض النبى ﴿ﷺ﴾ الجيش، فكان معه من الفرسان ثلاثة : الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود ، ومرثد بن أبى مرثد ، فجعل النبى ﴿ﷺ﴾ الزبير على الميمنة، والمقداد على الميسرة، وكان الزبير معمما بعمامة صفراء أرخى طرفها على أكتافه..

ولقد أبلى الزبير فى بدر أعظم البلاء ، فانطلق كالسهم المريش يعمل سيفه فى رءوس الكافرين وأبدانهم حتى حمل من جراء ذلك وسما يشهد له عند الله تعالى..

ذلك الوسام ضربتان فى عاتقه غائرتان، كان ولده عروة يدخل فيهما أصابعه.

ومثلما أبلى الزبير البلاء العظيم فى بدر أبلى كذلك فى أحد وزيادة، فقد كان لهذا الفارس فى أحد مواقف مشهودة مشهورة، فحينما دعا طلحة بن أبى طلحة العبدرى حامل لواء المشركين للمبارزة فأحجم الناس عنه، ثم دعا ثانية للمبارزة، فأجابه الزبير بن العوام، وكان طلحة على جمل، فوثب الزبير وثبة جعلته على ظهر جمل هذا الكافر، فاقتحم الزبير بطلحة الأرض، ثم ذبحه الزبير بسيفه البتار.

هنا قال النبى ﴿ﷺ﴾: «لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه؛ لما رأيت من إحجام الناس عنه».

ثم أقبل رجل من المشركين، وعليه الدرع والسلاح حتى صعد على مكان مرتفع من الأرض فنادى:

من يبارز؟

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ لرجل من القوم:

«أتقوم إليه؟».

فقال الرجل: إن شئت يا رسول الله.

مبارز عنيد:

بيد أن الزبير بن العوام أخذ يتطلع؛ ليراه رسول الله ﴿ﷺ﴾، فلما نظر إليه النبى ﴿ﷺ﴾ قال له:

«قم يا ابن صفية».

فانطلق الزبير إليه حتى استوى معه، فاضطربا، ثم عانق أحدهما الآخر، ثم تدحرجا، فقال النبى ﴿ﷺ﴾:

«أيهما وقع الحضيض أول فهو المقتول».

ثم دعا للزبير، ودعا الناس، فوقع الكافر، ووقع الزبير على صدره، فقتله رضى اللّه عنه، وأرضاه.

وهكذا سطر الزبير لنفسه صفحة فى سجل الخلود والرضوان بمواقفه النادرة، وبشجاعته المنقطعة النظير، فعندما فتح اللّه على رسوله ﴿ﷺ﴾، وتملك فيها زمام الأمور، ودان الناس له فيها بالطاعة والولاء بعد اللّه عز وجل، خط البيوت فى المدينة، ولكنه مع ذلك لم ينس الذين حملوا أرواحهم على راحاتهم، ومنهم الزبير بن العوام -رضى اللّه عنه-، فجعل له بقيعا واسعا فى المدينة.

وبدأت الدنيا تفتح أبوابها للزبير، ولقد قال أحد الصالحين:

«إذا أعطت الدنيا خيرها، فالمؤمنون بها أولى».

ويطيب المقام بطيبة الطيبة، ويرزقه اللّه بأولاد..

ولكن كيف كان يختار لهم الأسماء؟

إنه -رضى اللّه عنه- لم يكن يسميهم على أسماء والده أو أحد أعمامه أو أجداده، وإنما كان يسميهم على أسماء شهداء المسلمين..

ولك -عزيزى القارئ- نترك مجال الفكر والاستنباط؛ لتستخلص بنفسك ماذا يعنى هذا المنهج الذى انتهجه الزبير فى تسمية أبنائه..

ولكن نقدم لك نماذج من هذه التسميات، فمثلا سمى ولده:

عبد الله تأثرا بعبد الله بن جحش..

والمنذر تأثرا بالمنذر بن عمرو..

وعروة تأثرا بعروة بن مسعود..

وحمزة تأثرا بحمزة بن عبد المطلب..

وجعفر تأثرا بجعفر بن أبى طالب..

ومصعب تأثرا بمصعب بن عمير..

وعبيدة تأثرا بعبيدة بن الحارث..

وخالد تأثرا بخالد بن سعيد..

وعمرو تأثرا بعمرو بن سعيد بن العاص..

فهل بعد هذه الكوكبة الفاضلة من فضل.

الزبير وفتح خيبر:

وللزبير فى فتح خيبر فضل لا ينكر، حيث لما أراد الله تعالى للمسلمين أن يفتحوا خيبرا قال رسول الله ﴿ﷺ﴾:

«لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد».

فأجاب الجميع الدعوة، وقاتل المسلمون يوم خيبر اليهود أشد القتال، وكان أعداء الله أكثر قوة فقاتلوا قتالا شديدا.

وكعادة العرب فى الحرب كانت المبارزة أولا..

حيث خرج مرحب اليهودى، ودعا للمبارزة، فخرج إليه على بن أبى طالب -رضى الله عنه- فقتله، وأعمل سيفه فيه ففلق رأسه.

وخرج ياسر أخو مرحب بعد مقتل أخيه، ونادى ياسر بأعلى صوته: من يبارز؟

فخرج إليه الزبير بن العوام؛ ليبارزه، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: إن ياسراً سيقتل الزبير يا رسول الله.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ مطمئنا قلبها:

«بل ابنك يقتله إن شاء الله».

وخرج الزبير بين صفوف المتحاربين، وبدأت المبارزة حامية رهيبة، وصوت السيوف له رنين كصوت الرعد، ثم انقض الزبير على ياسر كالليث عاديا فقتله..

فقالوا: يا أبا عبد الله، والله كان سيفك اليوم صارما غضبا.

فقال الزبير: والله ما كان صارما ولكننى أكرهته.

لكل شىء إذا ما تم نقصان:

وتمضى الأيام، وتكر السنون، وتتعاقب الليالى..

ويخرج الزبير بن العوام -رضى الله عنه- وخرج معه طلحة، وكانت معهما السيدة عائشة..

فبلغ ذلك عليا بن أبى طالب -كرم الله وجهه-

فالتقى طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين فى البصرة.

ووقعت أكبر فتنة فى تاريخ الإسلام وهى فتنة «موقعة الجمل» التى وقعت سنة ست وثلاثين من الهجرة النبوية الشريفة.

ذلك أن مروان بن الحكم لما رأى طلحة بن عبد اللّه الذى لقبه الرسول ﴿ﷺ﴾ بـ«طلحة الخير».

فقال مروان: لا أطلب ثأرى بعد اليوم.

ثم رمى طلحة بسهم فقتله، فلما بلغ ذلك سيدنا عليا قال:

«بشروا قاتل طلحة بالنار».

ونادى على بن أبى طالب على الزبير بن العوام فى هذا اليوم العصيب قائلا: يا أبا عبد اللّه..

فأقبل الزبير حتى التقت أعناق دوابهما.

فقال سيدنا على بن أبى طالب: أنشدك باللّه أتذكر يوم كنت أناجيك فأتانا رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فقال:

«تناجيه، فواللّه ليقاتلنك وهو لك ظالم».

فما كان من الزبير بن العوام لما سمع من أبى الحسن إلا أن ضرب وجه دابته، وانصرف من هذا القتال المشبوه.

وفى هذا اليوم دعا الزبير ولده عبد اللّه، وقال له:

«يا بنى إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإنى لا أرانى إلا سأقتل اليوم مظلوما، وإن من أكبر همى لَدَيْنى، يابنى بع مالنا فاقض دينى، وإذ أعجزك دينى فاستعن بمولاى».

فقال عبد الله : «أى أبت مَن مولاك» .

قال الزبير : الله .

فلما سمع بذلك عمير بن جرموز لحقه بوادى السباع ، ودعا معه فضالة بن حابس ، ونفيل بن حابس ، فحمل عليه ابن جرموز ، فطعنه طعنة غدر من خلفه ، ولكنها خفيفة ، فحمل عليه الزبير ، فلما ظن ابن جرموز أن الزبير قاتله دعا من كان وراءه .. يا فضالة .. يا نفيل ، ثم قال عدو الله الحاقد ابن جرموز : الله .. الله يا زبير!!

فلما سمع الزبير اسم الله يخرج من فم هذا الكافر الحاقد الملعون كفّ عنه ، وخلى سبيله ، ثم سار بعيدا عن هذا المكان ومن فيه ، عند ذلك حمل عليه ابن جرموز ، ومن معه من الأشقياء ، فطعنه ابن جرموز طعنة أثبتته ، فوقع من فوق صهوة جواده فاعتوروه ، وكالوا له الطعنة تلو الطعنة حتى أجاب نداء ربه ؛ فصعدت الروح الطاهرة لبارئها ، وكأن الله تعالى لم يرد للزبير أن يطول به العمر ؛ ليعيش فى جو تسيطر عليه الفتن ، وتعلوه الأحقاد ، وتبدو عليه سحن التشرذم والتشرد والتفكك ، فاختار الله تعالى الزبير إلى جواره حيث أعد له وللشهداء أمثاله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، هناك عند المليك المقتدر .

يا الله .. يا لفظاعة القلوب .. ويا لقسوة الأكباد!!!

هل اكتفى ابن جرموز عدو الله ومن معه بقتل الزبير؟

الجواب الذى ينطق به سجل التاريخ : لا .. لا

لقد جزّ صاحب القلب الجلمود الصلد، الخالي من أدنى قدر من الإنسانية، أو الآدمية، اجتز ابن جرموز -لعنه اللّه- رأس الزبير بن العوام، فحمله، حتى أتى به، وبسيفه سيدنا عليا بن أبى طالب ظنا منه -وذلك أكذب الظن- أن عليا سيفرح ويسر بما فعله ذلك الكافر الوحش..

ولكن كانت المفاجأة التى لم يكن يتوقعها ابن جرموز حيث قال على -رضى اللّه عنه-:

«بشروا قاتل ابن صفية بالنار».

ثم أخذ على سيف الزبير قائلا:

«سيف واللّه طالما جلا به عن وجه رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ الكرب».

ثم يوارى جسده الطاهر الثرى، وقد ارتسمت فيه أوسمة لا تمحوها الأيام ولا الرمال، ولا تراب الأرض..

أوسمة ثلاثة، اثنتان منها فى بدر الكبرى، والثالثة فى اليرموك، زودا وفداء وتضحية لدين اللّه، ونصرة لرسوله ﴿ﷺ﴾.

نعم.. لقد شرفت تربة وادى السباع بأن ضمت إلى صدرها علما بارزا، وفارسا مناضلا، وصاحبا من أصحاب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.. وأينا كهؤلاء!!

ويبكيه على -رضى اللّه عنه- بكاء حاراً..

ولم لا؟ وقد كان كل واحد منهما يشرع سيفه دفاعا عن العقيدة والدين، فقد جمعهما هدف مشترك، وغاية نبيلة تتلخص فى حماية دين الله، وحماية رسوله ﴿ﷺ﴾.

نعم لقد بكاه على متمنيا فيما تمنى حيث قال:

إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1].

لقد غربت شمس ذلك الصحابى، وأفل نجمه، وطويت صفحته، بعد حياة عامرة بالجهاد والشجاعة والبسالة والتضحية والفداء.

كان عمر هذه الحياة أربعا وستين سنة.

رحم الله الزبير، وجزاه عن الإسلام، وما قدمه له بأعظم الأجر، وجميل المثوبة.

وسلام عليك إلى أن نلقاك فى الفردوس الأعلى...

---

(١) سورة الحجر، الآية ٤٧.

سعد بن عبادة

﴿رضي الله عنه﴾

﴿اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل
سعد بن عبادة﴾
﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

سعد بن عبادة
رضي الله عنه

نسبه:

هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج[1].

صفته وحياته:

فهو سيد من سادات الخزرج ذات الكلمة المسموعة والرأى السديد والمشورة، وسمّى بالكامل.

فلقد كان كثيراً ما يواجه المتاعب بسبب صراحته المعهودة عليه، فما رأى موقفاً إلا أدلى برأيه فيه، وإن كان الخطأ على ولده، فطبيعته وتكوينه يحتمان عليه ذلك.

كان سعد بن عبادة واسع الثراء كثير المال، وكثيراً ما شاهدو، وهو يعطف على الفقراء والمساكين، وكأن العناية الإلهية تعده لأكثر من هذا، وكان فى دعائه يقول: «اللّهم إنه لا يصلحنى القليل، ولا أصلُح به، اللّهم هب لى حمداً ومجداً»[2].

ولكن لماذا عجلنا وتخطينا الزمن، ورحنا نتأمل حياة هذا الرجل الأنصارى وهو فى قمة مجده؟

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٧٣/٢.

ألا يحسن بنا أن نستشرف هذه العظمة فى بدايتها الرائعة؟

فلنرجع للوراء حيث الأحداث العظيمة التى يرتبها الخالق الواحد الأحد .

وحيث يعرض رسول الله ﴿ﷺ﴾ نفسه على القبائل بعد أن اقترفت قريش كل أساليب البطش والتعذيب، وهى تريد بذلك إطفاء النور الذى أنزله الله على نبيه وحبيبه ﴿ﷺ﴾ .

وبعد أن بايع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ الإثنى عشر نقيباً قال لهم : «اذهبوا إلى رحالكم»[١] .

فقال أحد الأنصار : واللّه الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بسيوفنا .

فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ : «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» .

فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى أصبحوا ، فأتى عليهم رجال من قريش يتبينوا الموقف، فأنكر نفر من أهل يثرب ذلك تماماً ، وحلفوا ما حدث، وهم صادقون، لأنهم لم يعلموا شيئاً مما جرى .

ثم نفر الناس من منى، فعلمت قريش بما حدث، وأرادت أن تدرك الأمر قبل فوات الأون، فخرج نفر من قريش فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة ورجلاً آخر[٢] بمكان يسمى -آذاخر- .

---

(١) سيرة ابن هشام، خاتم النبيين.

(٢) هو المنذر بن عمرو من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾، وله مواقف حسنة فى الإسلام وقد شهد المشاهد كلها.

فماذا حدث لسعد بن عبادة؟!

أسير في قريش:

أخذوا سعد بن عبادة؛ فربطوا يديه إلى عنقه، ثم أقبلوا به حتى دخلوا مكة يضربونه ويجذبونه من مقدمة رأسه، إذ كان شعره كثيفاً.

أما صاحبه الذي كان معه فقد فر هارباً، ولم تدركه قريش.

ولكن ألا يحسن بنا أن نترك سعد بن عبادة؛ ليروى لنا أحداث قصته مع زبانية قريش بنفسه؛ فشعوره بها أعمق، وروايته لها أدق.

قال سعد بن عبادة: «فوالله إنى لفى أيديهم، إذ طلع عليّ نفر من قريش، فيهم رجل وضيءالوجه، شعشاع، حلو من الرجال، فقلت فى نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير، فعند هذا.

فلما دنا منى رفع يده، ولكمنى لكمة شديدة، فقلت فى نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى ويجروننى، إذ آوى إلى رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك.

أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟

قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجارته، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وكنت أجير للحارث بن حرب بن أمية.

فقال الرجل: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما من جوار وعهد، ففعلت ذلك، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة.

فقال لهما : إن رجلاً من الخزرج يُضرب الآن بالأبطح، ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً.

قالا : ومن يكن هذا الرجل؟

فقال لهما : سعد بن عبادة.

قالا : صدق والله، إنه كان ليجير لنا تجارتنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده.

قال سعد : فجاءا فخلصاني من أيديهم(1).

علم سعد بن عبادة عِلم اليقين بما يحدث في مكة بعد الذي فعلته قريش معه.

فقال في نفسه : كيف وأنا رجل من يثرب يحدث لي هذا؟

وظل يفكر في المسلمين والفقراء والعبيد الذين أسلموا وآمنوا بالواحد الأحد..

ماذا يحدث لهم الآن يا سعد؟

ترى ماذا يحدث لهم..؟

وبدأت تراوده الأفكار ويتخيل العذاب الذي تصبه قريش على رؤوس هؤلاء المساكين الذين لا جوار لهم.

هكذا بدأ الزعيم الأنصاري يحدث نفسه، وعلم أن سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ لن يظل أو يمكث في مكة مع هؤلاء المشركين، ولسوف يكون له أنصاراً ينصرونه، ويقفون ورائه وبجانبه، يشدون من أزره.

---

(1) خاتم النبيين : ١/٤٤٦.

وقرر الزعيم الأنصارى أن يجعل حياته وثروته وكل ما يملك من قوة ونصر فى نصرة الإسلام والمسلمين.

ويأتى أمر الله بالهجرة إلى يثرب؛ ليخلّص الضعفاء والمساكين من بطش وجبروت قريش، لأنها أصبحت مجنونة لا تعرف سوى العذاب والتعذيب.

ويأتى أمر الله بالهجرة، وتوضع قواعد الدولة الإسلامية فى يثرب بيد أعظم البشرية وخاتم الأنبياء، ويأتى يوم بدر.

فأين سعد بن عبادة من غزوة بدر الكبرى؟

قال ابن سعد: كان يتهيأ للخروج إلى بدر، ويأتىَ دور الأنصار يحضهم على الخروج، فنهس[1]، فلزم فراشه.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «لئن كان سعد ما شهد بدراً، لقد كان حريصاً عليها»[2].

يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما: ركب رسول الله ﴿ﷺ﴾ حماراً، وأردفنى ورائه؛ ليعود سعد بن عبادة قبل موقعة بدر، فسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أُبى بن سلول[3].

وكان ابن سلول لم يسلم بعد، وفى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفى المجلس أيضاً عبد الله بن رواحة[4] رضى الله عنه.

---

(١) أى مرض.
(٢) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة: ٥٠٩٧/٣، سير أعلام النبلاء: ١٦٩/٣.
(٣) هو رأس المنافقين فى المدينة، وسلول هى أمه.
(٤) هو من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ العظماء، ومن الصحابة الذين لهم باع كبير فى تاريخ الإسلام، شهد المشاهد كلها، واستشهد يوم مؤتة بعد تضحية وبذل بكل ما يملك من مال وقوة.

فلما غشيت المجلس غُبار الدابة غطى ابن أُبى أنفه بردائـه، فقـال: لا تغبروا علينا، فسلم النبى ﴿ﷺ﴾ ووقف، ونزل فدعاهم إلى اللّه، فقرأ عليهم القرآن.

فقال ابن أُبى: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به فى مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد اللّه بن رواحة: بلى يا رسول اللّه، فاغشنا بـه فـى مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتقاتلون، فلم يزل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يخفضهم حتى سكتوا، فركب رسول اللّـه ﴿ﷺ﴾ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له: «أى سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب»[1].

قال سعد: يا رسول اللّه اعف عنه، واصفح، فلقد أعطاك اللّه ما أعطاك، ولقد اجتمع أهل هذه البلدة[2] على أن يتوجوه، فيعصبوه ملكاً..

فلما رُدَّ ذلك بالحق الذى أعطاك اللّه شرق[3] بذلك، فذلك الذى فعل به ما رأيت.

هكذا هو سعد بن عبادة بدافع سريرته البيضاء النقية يقوم معتذراً للنبى ﴿ﷺ﴾ –وهو مريض– عن واحد من أهل الشرك، فإنه –أى عبد اللّه بن أبى– لم يسلم بعد، وإن كان بعد إسلامه لمن كبار المنافقين، بل كان زعيماً لهم.

---

(١) كنية عبد الله بن أُبى.

(٢) يقصد بها يثرب.

(٣) أى لم يقدر على إساغة وابتلاع كلامك.

سعد بن عبادة في غزوة ودان:

ولقد أصبح لسعد بن عبادة شأنٌ آخر، وأصبح ركناً قوياً له ثقله في كفة المؤمنين الراجحة في مجال الحرب وفي مجال السلم.

فها هو النبي ﴿ﷺ﴾ يخرج لأول مرة في غزوة ودان، وكانت هذه الغزوة في صفر من السنة الثانية للهجرة لملاقاة عير لقريش قد خرجت، فترصد لها النبي ﴿ﷺ﴾.

ولكن وصل بعد فصل العير عنها، ولقي بني ضمرة فتوادع معهم أن ينصروا المسلمين، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، ولهم النصرة على من يعاديهم.

أما دور سعد في هذه الغزوة فقد تركه النبي ﴿ﷺ﴾ قائداً للمدينة لمدة خمس عشرة ليلة.

وبدأ سعد في بذل ماله لكل من يراه محتاجاً ومسكيناً وعابر سبيل، نعم ولما لا وهو جواد بالوراثة لأبيه وجده؟ وقد علّم أولاده من بعده وفي حياته هذا السخاء والكرم.

فكرم سعد وسخائه وجوده يظهر يوم الهجرة، فكان الرجل من الأنصار يذهب لبيته ومعه رجل أو رجلين من المهاجرين، وكان سعد يذهب بالثمانين إلي بيته، فيأكلون، ويشربون، ويلبسون، كما كان سعد بن عبادة من أمهر الرماة وأشجع الفرسان البواسل.

وها هو سيدنا عبد اللّه ابن عباس ابن عم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ يقول: «كان لرسول اللّه ﴿ﷺ﴾ في المواطن كلها رايتان، مع علي بن أبي طالب راية المهاجرين، ومع سعد بن عبادة راية الأنصار»[(١)].

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي. انظر الفهارس.

وهذا هو رسول الله ﴿ﷺ﴾ يرسله مع سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة عندما علم بأن اليهود تحزب الأحزاب لحرب المسلمين والقضاء على الإسلام.

نقول لما انتهى إلى النبى ﴿ﷺ﴾ الخبر بعث سعد بن عبادة، وهو يومئذ سيد الخزرج، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة فقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم من نقض العهد الذى بيننا وبينهم أم لا؟!».

يقول سعد بن عبادة: فخرجنا حتى أتيناهم، فوجدناهم على أخبث حال، نالوا من رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأنكروا العهد، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وقالوا منكرين: من النبى؟!!

فلم يطق سعد بن معاذ صبراً فشاتمهم وشاتموه، فقلت له: يا ابن معاذ دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة، ثم عدنا إلى النبى ﴿ﷺ﴾، وذكرنا له غدرهم، ولكن بلحن القول[1] لا بصريحه؛ حتى لا يفت ذلك فى أعضاد الناس.

وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ حين بعث سعد بن عبادة وأصحابه قال لهم: «فإن كان حقاً فالحنوا إلىّ لحناً أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به أمام الناس».

نقول عندما أبلّغ سعد وصاحباه رسول الله ﴿ﷺ﴾ بذلك قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «الله اكبر أبشروا يا معشر المسلمين»[2].

---

(١) أى بكلام غير مباشر.

(٢) خاتم النبيين انظر الفهارس.

واشتد البلاء على المسلمين، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فأراد النبى ﴿ﷺ﴾ أن يرد عنهم كيد المشركين.

حين ذلك أراد ﴿ﷺ﴾ أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض، بإثارة الطمع فى بعضهم، فيتخلون عن باقيهم.

فأرسل إلى غطفان ومن معها من عرب نجد، فطلب إليها المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة، فقبلوا ذلك طمعاً منهم، وأن يعودوا.

وكتبوا من جانبهم، ولم يكن من النبى ﴿ﷺ﴾ شهادة ولا عزيمة صلح بغير مشورة أهل الثمار، فلما عرض عليهم من بعد أن جاء الكتاب، وكان ذلك العرض، أن بعث إلى سيد الخزرج سعد بن عبادة وسيد الأوس سعد بن معاذ، فذكر لهما ذلك، واستشارهما.

فقال السعدان: يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه، أم شىء أمرك به الله لابد لنا من العمل به؟

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «بل شئ أصنعه لكما، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرها»[1].

هنالك ترك سعد بن عبادة الكلام لسعد بن معاذ؛ لأنه من طبيعة ابن عبادة أنه شديد فى الحق، وشديد فى تشبسه بما يراه لنفسه من حق، فيكون تصميمه لا فرار منه، ولا رجعة فيه، فقد ترك الحرية لرسول الله ﴿ﷺ﴾.

---

(١) حياة الصحابة: ٢/٢١٦.

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهؤلاء لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا شراءً أو بيعاً.

أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا إليه، وأعزنا به وبك نعطيهم أموالنا؟

والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

عندئذ قال سعد بن عبادة: هذا كنت ما سأقوله لك يا رسول الله.

فلما سمع رسول الله (ﷺ) هذا الكلام قال: «فأنت وذاك»[1].

وعلى هذا المنوال لم يكن سعد فارساً قوياً من فرسان الإسلاميين يبطش كل ما هو باطل وبكل ما هو زائل فحسب، بل كان حكيماً يؤخذ برأيه

سعد بن عبادة يوم الفتح:

وهنا يوم فتح مكة، يوم الفتح الأكبر، فيبدو على صورته النقية الصافية التي لم تتغير بعد إسلامه، فهو رجل يقول ما يستشعره ويحسه بقلبه، لا يكتم شيئاً أبداً.

فهذا هو رسول الله (ﷺ) يقول:

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

---

(١) خاتم النبيين بتصرف، انظر الفوارس.

فتجهز الناس ليوم الفتح الأكبر، فأمر النبي ﷺ الذى كان دخوله مكة دخول المسالم الذى يريد أن يفتح القلوب للإيمان.

نقول أمر النبي ﷺ براية المهاجرين مع عامر بن الجراح[1]، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة.

السعد بن عبادة يرى مكة أمامه:

عندما رأى سعد بن عبادة مشارف مكة أمامه، فاسترجع مع نفسه ما حدث له يوم العقبة، وما فعلته قريش معه من تعذيب وإفراط فى الضرب والإهانة، فصاح قائلاً: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

فسمعه أحد المهاجرين فسارع إلى رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله اسمع ما قال سعد، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة.

قال النبي ﷺ:

«بل اليوم يوم المرحمة، اليوم نعظم فيه وتعز فيه الكعبة المشرفة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً».

ثم أمر النبي ﷺ على بن أبى طالب أن ينزع الراية من سعد، وأن يعطيها لقيس ابنه، ولكيلا يكون فى نفس سعد بن عبادة شيء من نزعها، إذ أنها أعطيت لابنه[2] ولأن النبي ﷺ يريد أن لا يحمل

---

(١) هو أبى عبيدة بن الجراح سبق ترجمته.

(٢) هو قيس بن سعد من أصحاب النبي ﷺ السابقين، وقد شهد المشاهد كلها، وكان من أدهى العرب، وكان مع على بن أبى طالب يوم صفين والجمل.

راية الأنصار إلا أنصارى، لتكون حمية الأنصار، وليكون لهم مقام الفتح برجالهم وبقيادتهم.

واشترك سعد فى تحطيم الأصنام التى كانت تحيط بالبيت الحرام، إذ كانت قريش تحيط البيت الحرام بالتماثيل المنحوتة من الأحجار والأخشاب، ولما كان يوم الفتح حُرِّق ما كان مصنوعاً من الأخشاب، وحُطِّم ما كان منحوتاً من الأحجار، وطُهر البيت من كل دنس.

سعد بن عبادة يوم حنين:

وأتى يوم حنين الذى قال فيه ربنا تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

انهزمت هوازن هزيمة ساحقة فى حنين، ففروا مذعورين، تاركين أموالهم وأطفالهم وبعيرهم ونسائهم وكل ما يملكون، فكانت غنائم المسلمين كثيرة، لم يحصل عليها المسلمون من قبل.

فأعطى النبى ﴿ﷺ﴾ وأجزل العطاء فى قريش وفى قبائل العرب، وزاد ﴿ﷺ﴾ فى العطاء للمؤلفة قلوبهم، وهم الذين دخلوا الإسلام قبل حنين بأيام قليلة؛ حتى يساعدهم على التغلغل فى الإسلام.

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٢٥-٢٧.

ولكن أين الأنصار من هذه العطايا؟

ألم تقاتل مع رسول الله ﴿ﷺ﴾؟

ألم تقطر سيوفهم بدماء هؤلاء الذين أُجزل لهم في العطاء؟

عندئذ وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﴿ﷺ﴾ قومه، وأعادوا هذا الكلام حتى استجاب لطبيعته البيضاء النقية والصريحة الواضحة بطل قصتنا سعد بن عبادة.

فدخل على رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الذى أصبت.

قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

ألم نقل لقد استجاب لطبيعته البيضاء النقية الواضحة؟

فقال له النبي ﴿ﷺ﴾ سائلاً:

«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»

فأجابه بنفس صراحته المعهودة عليه قائلاً: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.

عند هذا قال الرسول العظيم ﴿ﷺ﴾: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون، فردوا، فلما اجتمعوا أتى سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار يا رسول الله.

فأتاهم النبى ﴿ﷺ﴾، فنظر إليهم نظرة أذابتهم فى حب اللّه ورسوله ﴿ﷺ﴾، وابتسم ابتسامة أضاءت عن نوارنية لا يعرفها إلا الأنصار.

ثم وقف فيهم خطيباً، فحمد اللّه بما هو أهل له، وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار.. مقالة بلغتنى، ومَوْجدة وجدتموها فى أنفسكم..

ألم آتكم ضلالاً فهداكم اللّه بى؟

وعالة فأغناكم اللّه بى؟

وأعداءً فألف بين قلوبكم؟»

قالوا: للّه ورسوله المن والفضل، ثم قال ﴿ﷺ﴾: «ألا تجيبونى معشر الأنصار؟[1]» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول اللّه؟

فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «أما واللّه لو قلتم لَصَدَقْتُم ولصُدِّقْتم.

أتيتنا مكذباً فصدقناك.

ومخزولاً فنصرناك.

وطريداً فآويناك.

وعائلاً فواسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم من لُعَاعَةٍ من الدنيا، تألّفت بها قوماً ليسلموا.

ووكلتكم إلى إسلامكم.

---

(١) سيرة ابن هشام، طبقات ابن سعد، خاتم النبيين بتصرف يسير.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم.

فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون.

ولولا الهجرة لكنت إمرأ من الأنصار.

ولو سلك الناس شعباً وواديا، وسلك الأنصار شعباً وواديا، لسلكت شعب الأنصار وواديها.

الأنصار شعار، والناس دثار لهم.

اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكوا حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

لقد دعا الرسول ﴿ﷺ﴾ بالرحمة لأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فحقت عليهم الرحمة والرضا من الله ورسوله ﴿ﷺ﴾..

ومنذ هذا اليوم صارت لسيدنا سعد بن عبادة مكانة كبيرة عند رسول الله ﴿ﷺ﴾، فقربه منه، وأكرمه.

الرسول يكرم سعد وولده قيس:

فقد دخل سعد ومعه ابنه قيس يوماً على النبى المعصوم﴿ﷺ﴾.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «ها هنا وها هنا»، وأجلسهم عن يمينه، وقال: «مرحباً بالأنصار، مرحباً بالأنصار».

فقام قيس بن سعد بين يدى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال له النبى ﴿ﷺ﴾: «اجلس».

فجلس قيس وقَبّلَ يدى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وقدمه، فقال النبى ﴿ﷺ﴾: «وأنا من الأنصار، وأنا من فراخ الأنصار»[(١)].

فقال سعد بن عبادة: أكرمك اللّه كما أكرمتنا.

فقال النبى﴿ﷺ﴾: «إن اللّه أكرمك قبل كرامتى، إنكم ستلقون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»[(٢)].

هكذا يبشر النبى ﴿ﷺ﴾ سعد بن عبادة، وولده قيس بالجنة، يا لها من عظمة، والرجل يسمع من نبى اللّه ﴿ﷺ﴾ وخاتم النبيين هذا الكلام.

كرم سعد بن عبادة:

وكان سعد بن عبادة جوّاداً بالخير، سبَّاقاً للمعروف، فهذا عروة بن الزبير يقول: أدركت سعد بن عبادة وهو ينادى: مَنْ أحبَّ شحماً أو لحماً فليأت سعد بن عبادة.[(٣)]

وهذا سيدنا أنس يقول: دعا سعد بن عبادة النبى ﴿ﷺ﴾، فأتاه بتمر وكِسر، فأكل، ثم أتاه بقدح من لبن، فشرب، فقال رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: «أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلت عليكم الملائكة».

ثم أردف قائلاً: «اللّهم اجعل صلواتك على آل سعد بن عبادة».

---

(١) أى أولاد الأنصار.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوى: ١/٣٧٩.

(٣) المرجع السابق.

واستجاب الله تعالى دعوة سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾، فكان سعد يصنع الوليمة في شهر رمضان، ويفطر عليها أكثر من ثلثمائة رجل.

ويقول عنه أحد أصحابه: إنه أتى النبي ﴿ﷺ﴾ بصحفة أو جفنة مملوءة مخاً، فقال النبي ﴿ﷺ﴾: «يا أبا ثابت ما هذا؟».

فقال سعد: والذي بعثك بالحق لقد نحرت أربعين ذات كبد، فأحببت أن أشبعك من المخ، فأكل النبي﴿ﷺ﴾ ودعا له بخير(١).

وكما سبق أنه كان دائماً يقول: اللّهم إنه لا يصلحني القليل، ولا أصلح عليه..

فكان دائماً يحرص على أن يدعو له الرسول ﴿ﷺ﴾ ولأهل بيته.

النبي ﴿ﷺ﴾ يزور سعد بن عبادة في بيته:

فهذا قيس بن سعد يقص لنا ما حدث يوم زارهم سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ في دارهم.

يقول قيس: زارنا النبي ﴿ﷺ﴾ في منزلنا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله».

فرد أبي رداً خفياً حتى يكثر علينا من السلام.

فقال النبي ﴿ﷺ﴾: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

فرد سعد رداً خفياً، ثم كررها النبي ﴿ﷺ﴾ مرة ثالثة، ثم رجع، فأتبعه أبي، وقال: يا رسول الله، إني كنت أسمع تسليمك علينا، وأرد

---

(١) سيرة ابن هشام، طبقات ابن سعد، انظر الفهارس.

عليك رداً خفيفاً لتكثر علينا من السلام، فانصرف معه النبي ﴿ﷺ﴾، وأمر له سعد بغسل، فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران، فاشتمل بها، ثم رفع النبي﴿ﷺ﴾ يديه، وهو يقول: «اللّهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة».

ثم أصاب النبي﴿ﷺ﴾ من الطعام، فلما أراد الانصراف قرب له أبي حماراً قد وَّطأ عليه بقطيفة، فقال أبي: يا قيس اصحب رسول اللّه، فصحبته، فقال لي النبي﴿ﷺ﴾: «اركب معي» .. فأبيت!!!

فقال النبي﴿ﷺ﴾: «إما أن تركب وإما أن تنصرف».

فانصرفت[1].

سعد بن عبادة شديد الغيرة:

وكما كان سعد جواداً سخياً، يحب الفقراء، ويعطف عليهم، كان أيضاً غيوراً شديد الغيرة على أهله.

فها هو المغيرة يقول: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ[2].

فبلغ ذلك رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فقال النبي ﴿ﷺ﴾: «أتعجبون من غيرة سعد؟ واللّه لأنا أغير منه، واللّه أغير مني، ومن أجل غيرة اللّه حرم اللّه الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه لعذر من اللّه..

---

(١) حياة الصحابة: ٣/٢٠٦.

(٢) كناية عن ضربه بالسيف معرضاً.

من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين، ولا أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك عدَّ الله تعالى الجنة»[1].

وهذا أبو هريرة رضى الله عنه يقول:

قال سعد بن عبادة: لو وجدت مع أهلى رجلاً لم أمسَّه حتى آتى بأربعة شهداء؟!!

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «نعم».

فقال سعد: كلا والذى بعثك بالحق، إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك.

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم، إنه لغيور، وأنا أغير منه، والله أغير منى»[2].

قالوا: يا رسول الله لا تلمه؛ فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، ولا طلق امرأة قط، فاخبر رجلاً منا أن يتزوجها من شدة غيرته.

فقال سعد: يا رسول الله، والله إنى لأعلم أنها حق، وأنها من عند الله[3]..

ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه، ولا أن أحركه حتى آتى بأربعة شهداء!!!

فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته.

---

(١) باختصار من سير أعلام النبلاء.

(٢) سيرة ابن هشام.

(٣) أى الأربعة شهداء.

ومع شدة غيرته على أهله وجوده وفضله على الفقراء والمساكين، كان كثير الدعاء إلى اللّه، وكان كثير السهر، يطلب من اللّه، ويرجوه، ويقرأ القرآن بالليل والناس نيام، ويتفكر فى خلق السموات والأرض والجبال والدواب.

سعد بن عبادة يذهب مكة حاجاً:

وها هو سعد يعود إلى مكة المكرمة مرةً أخرى؛ ليؤدى فريضة الحج مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى حجة الوداع، وسمع من رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ما سمع، وعلم ما علمه غيره من الصحابة المقربين من اقتراب أجل النبى ﴿ﷺ﴾.

ثم عاد مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ إلى المدينة المنورة بعد أن أدى مناسك الحج.

ونزلت سورة النصر، وفهم كل حرف، وعرف أنها تدل على اقتراب أجل النبى ﴿ﷺ﴾، ثم انتقل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى.

فما ذا حدث فى سقيفة بنى ساعدة يوم أن انتقل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ إلى جوار ربه؟

سعد بن عبادة يوم السقيفة:

تعالوا بنا نستمع إلى سيدنا عمر بن الخطاب، وهو يروى لنا ما حدث هناك فى السقيفة؛ فروايته لهذا الموقف الخطير لها الأثر الكبير؛ فإنه كان موجوداً بالسقيفة.

يقول عمر رضى الله عنه :

«أن الأنصار خالفونا فاجتمعوا بأشرافهم فى سقيفة بنى ساعدة، فقلت لأبى بكر رضى الله عنه : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلين صالحين، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم، وقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين؟

قلنا : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار[1].

قالا : فلا عليكم ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم.

قلت : والله لنأتيهم، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة.

فإذا بين ظهرانيهم رجل ملتف فى كساء فقلت : من هذا؟

فقالوا : سعد بن عبادة.

فقلت : ماله؟

فقالوا : وجع[2].

فلما جلسنا نشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله.

ثم قال أما بعد : فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم[3].

وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر.

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) أى مريض.

(٣) أى أتيتم من البادية.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد أعددت فى نفسى مقالة قد أعجبتنى، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر.

فكرهت أن أُغضبه.

فتكلم وهو أعلم منى، وأوقر.

فو اللّه ما ترك من كلمة أعجبتنى من مقالتى التى أعددتها إلا قالها فى بديهته، أو مثلها، أو أفضل، حتى سكت.

ثم قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهله، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، فهم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قاله غيرها.

كان واللّه أن أقدّم فيضرب عنقى، لا يقربنى إلى ذلك إثم، أحب إلىّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر.

ثم قال قائل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، ثم كثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف.

فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار[1].

كل هذا وسعد بن عبادة جالس ملتف لم يتكلم قط!!!

---

(١) سيرة ابن هشام بتصرف يسير.

وبعد أن بويع لأبى بكر بالخلافة عاهد سعد الله تعالى أن يكون مع خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ كما كان مع النبى ﴿ﷺ﴾، لا يتأخر عن الجهادّ فى سبيل الله إن أمكنه، وأن يجير كل محتاج بمال، وأن يبذل كل ما لديه من مواد للمحتاجين.

وبعد انتقال الصديق إلى الرفيق الأعلى، بويع لسيدنا عمر للخلافة، وفى ذات يوم لقى عمر بن الخطاب سعد بن عبادة رضى الله عنهما فى طريق المدينة، فقال عمر: إيه يا سعد.

فقال سعد: إيه يا عمر.

فقال عمر: أنت صاحب ما أنت صاحبه؟

فقال سعد: نعم أنا ذاك، وقد أفْضَى إليك هذا الأمر، كان والله صاحبك أحب إلينا منك، وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك.

هذه الكلمة إن دلت فإنها تدل على أن سعد بن عبادة لا يحب أن يكون فى قلبه شىء من أحد ويكتمه، فهذه تعتبر -والله أعلم بذلك- سريرة بيضاء، يقول ما فى قلبه ولا يكتمه.

ولكن سيدنا عمر -رضى الله عنه- أجابه بكل أدب ولين فى القول قائلاً:

إن من كره جوار جاره تحوّل عنه.

فقال سعد: أما إنى غير مستنسئ بذلك، وأنا متحوّل إلى جوار من هو خير منك[1].

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢/ ٤٧٠.

لم يلبث سعد بن عبادة فى المدينة إلا قليلاً، حتى خرج، وشد الرحال، مهاجراً إلى الشام، وذلك فى أول خلافة سيدنا عمر بن الخطاب.

وفى حوران ببلاد الشام أقام سعد بن عبادة، ولكنه لم يمكث كثيراً، فذات يوم جلس يقضى حاجته فى نفق، فاقتتل، فلما رجع قال لأصحابه: إنى لأجد دبيباً، فمات من ساعته شهيداً.

فسمعوا الجن تقول:

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

ولم يُعرَف من الصحابة الأبرار قد قتلته الجن غيره.

فسلام عليه فى الأولين..

وسلام عليه فى الآخرين..

صاحب رسول الله ﴿ﷺ﴾.

أبو سفيان بن الحارث

﴿رضي الله عنه﴾

﴿قد رضيت عنه وغفر الله له

كل عداوة عادانيها﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

أبو سفيان بن الحارث
(رضي الله عنه)

نسبه:

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة.

حياته:

كان -رضي الله عنه- أشد الناس شبها برسول الله (ﷺ)، فهو ابن عمه، وكان أخا لرسول الله (ﷺ) من الرضاعة، فقد غذتهما السيدة حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب، المكناة بحليمة السعدية من ثدييها معا..

كان أبو سفيان بن الحارث صديقا حميما لرسول الله (ﷺ) قبل البعثة، تجمعهما علاقة الأخوة والنسب، فقد كان لدة من لدات رسول الله (ﷺ)، وتربا من أترابه، فقد ولدا في زمن متقارب، ونشأ كل منهما في أسرة واحدة.

فهل بعد ذلك قرابة أقرب، أو أواصر أقوى من الذي كان بين سيدنا رسول الله (ﷺ) وبين أبي سفيان بن الحارث؟!

لذلك فقد كان من المتوقع من أبي سفيان أن يكون أول من يستجيب لدعوة سيدنا محمد (ﷺ)، لما يعلمه عنه من أمانة وصدق، ووفاء ومودة ؛ لأنه لم يعهد عليه منذ النشأة الأولى التي

جمعتهما سويا كذبا قط، ولا هزوا قط فقد كان ﴿ﷺ﴾ معروفا بالصادق الأمين قبل أن يتلقى النور الإلهى باختياره رسولا للعالمين.

ولكن القدر الإلهى لعب دوراً عظيما فى هذا الموقف؛ ليظهر لنا شيئا عجيبا، فقد كان له من الإخوة ثلاثة هم: ربيعة بن الحارث، وعبد اللّه بن الحارث، ونوفل بن الحارث، سارعوا جميعا بإعلان إسلامهم، والوقوف بجانب هذه الدعوة الوليدة..

دعوة محمد بن عبد اللّه ﴿ﷺ﴾ التى تدعو إلى الأخلاق الحسنة، والمعاملات النبيلة، والبر والتقوى، وصلة الرحم، والعفو عند المقدرة..

لقد أعلنوا العزم على المضى قدما يناصرون الدعوة، ويشدون من أزر ابن عمهم محمد ﴿ﷺ﴾، ويدفعون عنه كل عادية، ولم لا؟ وهم يعلمون عنه ما لا يعلمه غيرهم من حسن خلق، وصدق وأمانة..

ولكن أين أبو سفيان من هذا التأييد؟

الموقف مختلف تماما.. فما كاد أبو سفيان يسمع أن محمدا ﴿ﷺ﴾ قد اصطفاه اللّه بالنبوة والرسالة..

وأنه العاقب فلا نبى بعده..

بل إنه أخذ يدعو عشيرته الأقربين إلى الدخول فى هذا الدين الجديد..

بل وصل الأمر إلى ما هو أبعد من هذا، ألا وهو إعلان الدعوة إلى الدخول فى الإسلام علانية..

فما كان من أبى سفيان إلا أنه استشاط غضبا .. فانتفخت أوداجه .. واحمر وجهه غيظا .. وشبت نار الضغينة فى نفسه، والحقد فى قلبه ..

ماذا نتوقع أن يحدث؟

تحولت الصداقة إلى عداوة .. والإخوة إلى خصام .. والقرب إلى صد وهجران .. والرحم إلى قطيعة .. والمحبة إلى كراهية!!!

كان أبو سفيان فارسا من فرسان قريش الأقوياء، وشاعرا من أعلى شعرائها شأنا ومقاما، فوهب قوته لقريش، ولسانه لمحاربة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومعاداة دعوته ..

بل لقد جند كل طاقاته للنكاية بالمسلمين والإسلام، فما خاضت قريش حربا ضد المسلمين إلا كان معها، بل فى مقدمتها، ولا عذبت أحدا من المسلمين إلا كان له فى هذا التعذيب نصيب الأسد ..

فلقد تطاول على رسول الله ﴿ﷺ﴾ حين أيقظ شيطان شعره، فأوسع النبى ﴿ﷺ﴾ سبا وهجاء، فقال فيه كلاما فاحشا موجعا .

وظل أبو سفيان على هذا الحال ما بين معارض ومحارب، ومجادل ومهاج، وتتقلب به الأحوال، فتهب عليه الريح، فتحوله حيث شاءت على هذا الوضع ...

عشرون عاما فى عناد وتكبر ..

وعظمة واستعلاء ..

وأنفة واستعظام ...!!!

إسلامه:

ولكن هل ياترى سيظل على هذا الوضع؟ وهل سيستمر على هذا الحال؟

الله سبحانه وتعالى مقلب القلوب، ومصرف الأحوال، قادر على أن يغير الحال من حال إلى حال..

لقد ظهرت بادرة التحول، ولاحت في الأفق علامات التغيير..

نعم الله قادر على أن يغير القلب من الحقد إلى الحب..

ومن الكفر إلى الإيمان.. سبحانه على كل شيء قدير..

فلقد أدركت أبا سفيان سابقة الحسنى الإلهية، والعناية الربانية المتمثلة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1].

وجاء يوم الفتح الأكبر.. يوم الفتح الأعظم.. يوم فتح مكة.

إنني لا أعتبر هذا اليوم عظيما؛ لأن مكة فتحت فيه فقط، بل لأن الله تعالى فتح القلوب الموصدة من العباد للمصطفى ﴿ﷺ﴾، فدخل الناس في دين الله أفواجا..

فتح الله في هذا اليوم أعينا عميا، وآذانا صما.. نعم لقد فتحت الدنيا بأسرها فهو فتح عام: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١.

فتحت قلوب العارفين بعد أن أظلها نور الإيمان.. وعمرها الإسلام.. وأشرقت الأرض بنور ربها.

لقد اقترب النور من مكة المكرمة، وكُتِب لأبى سفيان بن الحارث النجاة من النار..

فها هو الإسلام يداعب جنبات قلبه..

وسحائب الإيمان تهز أوتار نفسه..

وما بينه وبين الإسلام إلا قليل..

سبحان الله!!

دعونا نتعرف على الطريقة التى دخل فيها أبو سفيان إلى الإسلام..

لا بل دعونا نعرف كيف دخل الإسلام إلى قلب أبى سفيان؟

فلنترك الحديث لأبى سفيان عينه يروى لنا قصة ميلاد الإسلام فى قلبه؛ فشعوره بها أعمق، وروايته لها أدق فهو صاحب القصة، وأساس الحكاية.

قال أبو سفيان: لما استقام أمر الإسلام، وقرّ قراره، وشاعت أخباره، توجه الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى مكة المكرمة؛ ليفتحها، فضاقت علىّ الأرض بما رحبت!

وقلت: إلى أين أذهب؟

بل مَن أصاحب؟؟

ومع مَن أكون؟؟؟

ثم جئت زوجتى وأولادى وقلت: استعدوا للخروج من مكة، فقد أوشك وصول محمد ﴿ﷺ﴾، وإنى لمقتول لا محالة إن أدركنى المسلمون.

فقالوا لى:

أما آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد دانت لمحمد ﴿ﷺ﴾ بالطاعة، واعتنقت دينه، وأنت ما تزال مصرا على عداوته، وكنت أولى الناس بتأييده؟

وما زالوا بى يعطفوننى على دين محمد ﴿ﷺ﴾، ويرغبوننى فيه، حتى شرح الله تعالى صدرى للإسلام.

قمت من نومى، وقلت لغلامى مذكور:

هيئ لنا نوقا وفرسا، وأخذت معى ولدى «جعفرا»، وجعلنا نغذ السير نحو الأبواء بين مكة والمدينة، فقد بلغنى أن الرسول ﴿ﷺ﴾ نزل فيها، ولما اقتربت من الأبواء أبصرت مقدمة جيش لجب، أدركت أن الرسول ﴿ﷺ﴾ سوف يقصد مكة لا محالة..

ولديها فكرت.. ماذا أصنع؟

إن الرسول ﴿ﷺ﴾ قد أهدر دمى من طول ما حملت سيفى، وأطلقت لسانى ضد الإسلام مقاتلا وهاجيا، فإذا رآنى أحد من جيش المسلمين فسيسارع إلى القصاص منى، وعلىّ أن احتاط فى الأمر حتى ألقى بنفسى بين يدى الرسول محمد ﴿ﷺ﴾ أولا قبل أن تقع علىّ عين أحد من المسلمين..

ولكن كيف يتحقق ذلك؟

يقول أبو سفيان: لقد تنكرت حتى أخفى معالمي، ومضيت أمشى على قدمىَ آخذا بيدى ولدى جعفر، وسرنا حتى قطعنا شوطا طويلا، وطلائع المسلمين تمضي ميممة شطر مكة المكرمة جماعة إثر جماعة، فكنت أتنحى عن طريقهم فرقا منهم، وخوفا من أن يعرفنى أحد من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾.

وفيما أنا أفكر فى هذا الأمر إذ طلع الرسول ﴿ﷺ﴾ فى موكبه فتصديت له، ووقفت تلقاءه، وحسرت عنه وجهى، فما أن ملأ عينيه منى، وعرفنى حتى أعرض عنى إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه فأعرض عني وحول وجهه، فتحولت إلى ناحية وجهه حتى فعلت ذلك مرارا.

يقول أبو سفيان بعد إعراض النبى ﴿ﷺ﴾ عنه، وحرصه على أن تتقابل عينه مع عينى الرسول ﴿ﷺ﴾:

واللّه كنت لا أشك وأنا مقبل على النبى ﴿ﷺ﴾ أنه سيفرح بإسلامى، وأن أصحابه كذلك سيفرحون بإسلامى لفرح الرسول ﴿ﷺ﴾ بذلك.

موقف الصحابة من أبى سفيان قبل إسلامه:

ولكن كيف كان موقف صحابة رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ حينما شاهدوا إعراض الرسول ﴿ﷺ﴾ عن أبى سفيان مرارا؟

يصور لنا ذلك أبو سفيان فيقول:

إن المسلمين حينما رأوا إعراض الرسول ﴿ﷺ﴾ عني تجهموا لي، وأعرضوا عني جميعا..

لقد لقيني أبو بكر بن أبي قحافة -رضي الله عنه- فأعرض عني أشد الإعراض.

ولكن ما شأن عمر بن الخطاب من أبي سفيان؟

لقد كان هو الآخر غاضبا على أبي سفيان بن الحارث، رغم علمهم جميعا بدرجة القرابة التي بين الرسول ﴿ﷺ﴾ وبين أبي سفيان، ولكن اختلاف العقيدة يحول بين المؤمن والكافر ولو كان أقرب قريب.

يقول أبو سفيان مجيبا على ذلك التساؤل:

لقد نظرت إلى عمر بن الخطاب بن نفيل -رضي الله عنه- نظرة أستلين بها قلبه، فوجدته أشد إعراضا عني من صاحبه، يقصد بذلك أبا بكر -رضي الله عنهما- بل إنه -يقول أبو سفيان- أغرى بي أحد الأنصار.

فقال الأنصاري:

ياعدو الله أنت الذي كنت تؤذي رسول الله ﴿ﷺ﴾، وتؤذي أصحابه، وقد بلغت في عداوة النبي ﴿ﷺ﴾ مشارق الأرض ومغاربها!!

ولكن كيف كان رد أبي سفيان على هذا الأنصاري؟

يقول أبو سفيان:

وما زال هذا الأنصاري يستطيل علي، ويرفع صوته، والمسلمون يقتحمونني بعيونهم، ويسرون مما ألقى..

عند ذلك أبصرت عمي العباس، فلذت به.

وقلت:

ياعم قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله ﴿ﷺ﴾ بإسلامي، لقرابتي منه، ولشرفي في قومي، وقد كان منه ما تعلم فكلمه فيَّ ليرض عني.

فقال العباس بن عبد المطلب:

لا.. والله لا أكلمه كلمة أبدا بعد الذي رأيته من إعراضه عنك، إلا إذا سنحت لي فرصة، فإني أجل رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأهابه.

فقلت: ياعم إلى من تكلني إذن؟

فقال العباس: ليس لك عندي غير ما سمعت.

فتملكني الهم، وركبني الحزن، ولم ألبث أن رأيت ابن عمي عليا بن أبي طالب -رضي الله عنه- فكلمته في أمري، فقال لي مثل ما قال عمي العباس.

عند ذلك رجعت إلى عمي العباس وقلت:

ياعم إذا كنت لا تستطيع أن تعطف عليَّ قلب رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكف عني ذلك الرجل الذي يشتمني، ويغري الناس بشتمي.

فقال: صفه لي.

فوصفته له فقال: ذلك نعيمان بن الحارث النجاري.

فأرسل إليه، وقال له:

يا نعيمان إن أبا سفيان ابن عم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وابن أخي، وإن يكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ ساخطا عليه اليوم؛ فسيرضى عنه يوما، فكف عنه.

وما زال به حتى رضى أن يكف عنى، وقال :
لا أعرض له بعد هذه الساعة.

ولما نزل الرسول ﴿ﷺ﴾ بالجحفة جلست على باب منزله، ومعى ولدى جعفر قائما، فلما رآنى -وهو خارج من منزله- أشاح عنى بوجهه، فلم أيأس من استرضائه، وجعلت كلما نزل فى منزل أجلس على بابه، وأقيم ابنى جعفرا واقفا بإزائى، فكان إذا أبصرنى أعرض عنى.

وبقيت على ذلك زمنا وزمنا!!!

أبو سفيان يصمم على الإسلام:

فلما اشتد علىَّ الأمر وضاق قلت: والله ليرضين عنى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أو لآخذن بيدى ولدى هذا، ثم لنذهبن هائمين على وجهينا فى الأرض حتى نموت جوعا وعطشا.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﴿ﷺ﴾ رقّ لى.

ولما خرج من قبته نظر إلىّ نظرا ألين من النظر الأول، فطار قلبى فرحا، وكنت أطمع أن يبتسم!

ثم اقتربت من حبيبى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وقلت: لا تثريب يا رسول الله.

فقال خليلى: لا تثريب يا أبا سفيان.

ثم نادى عليا بن أبى طالب رضى الله عنه وقال له:

علم ابن عمك الوضوء، والسنة، ورح به إلىّ.

ففعل سيدنا على ما أمره به رسول الله ﴿ﷺ﴾ ثم رجع.

فقال له الرسول ﴿ﷺ﴾ :

ناد في الناس أن رسول الله قد رضى عن أبى سفيان فارضوا عنه .

ثم دخل الرسول ﴿ﷺ﴾ مكة ، فدخلت في ركابه أنا وولدى جعفر مسلمين موحدين .

وخرج الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى المسجد ، فخرجت أسعى بين يديه لا أفارقه على حال ..

إنها العناية الإلهية .. تسبق أبا سفيان على رفارف المحبة والألفة ..

إنها سابقة الحسنى إلى النور والإيمان ، وإلى الإحسان واليقين ..

إنها لحظة من الزمان شملته خلالها العناية الإلهية ، والرعاية الربانية ، فأخذت بيد أبى سفيان من مدارك الشقاء -لو ظل على كفره وعناده- إلى مراتب الإيمان التى عطرت قلبه بأريجها ..

إنها كلمة الله المتمثلة فى الكاف والنون ، إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ..

إنها كلمة تطوى آمادا بعيدة من الشقوة والضلال ..

وتفتح أبواب رحمة ما لها حدود .

أبو سفيان وموقعة بدر الكبرى :

لقد كاد أبو سفيان بن الحارث يسلم بعد أن رأى فى بدر -وهو يقاتل مع قريش- ما حير عقله ، وأذهب فكره ، ففى تلك الغزوة تخلف أبو لهب ، وأرسل مكانه العاص بن هشام ، وانتظر أبو لهب أخبار المعركة بفارغ الصبر ، وبدأت الأخبار تتوالى رويدا .. رويدا ..

ولكن ما طبيعة هذه الأخبار؟

إنها أخبار أتت وهى تحمل خبرا لايطيق سمع أبى لهب عليه، هو ومن كان على شاكلته من الكفر والعناد..

إنها أخبار هزيمة الكثرة الكاثرة من القلة المؤمنة..

إنها هزيمة منكرة تجرعت قريش مرارتها.

وذات يوم وأبو لهب جالس عند زمزم، وحوله نفر من القرشيين، إذ أبصر فارسا مقبلا، فلما دنا منهم إذا هو أبو سفيان بن الحارث، ولم يمهله أبو لهب فنادى عليه:

هلم إليّ يا ابن أخى فعندك لعمرى الخبر، حدثنا كيف كان أمر الناس؟

قال أبو سفيان بن الحارث: واللّه ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا!!

وايم اللّه ما لمت قريشا؛ فلقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ما يشبهها شيء، ولا يقف أمامها شيء.

فقال أبو لهب: يا ابن أخى اكتم هذا الكلام، ولا تسمع به أحدا!

هذه شهادة سجلها التاريخ بحروف من نور لهذا المسلم الجديد أبى سفيان بن الحارث، الذى حرص منذ اللحظة الأولى من إسلامه على أن يسابق الزمن عابدا ومجاهدا..

ليمحو آثار ماضيه..

ليعوض ما فاته من خسائر سببها له عناده، ولسانه، وتكبره.

أبو سفيان يخرج مجاهداً فى سبيل الله:

خرج أبو سفيان بن الحارث مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيما تلا فتح مكة من غزوات..

ففى العام الثامن للهجرة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض، وقد أوغر صدورهم على الإسلام، وعلى نبى الإسلام ﴿ﷺ﴾ النصر الذى حققه المسلمون على قريش فى أول مواجهة عسكرية يوم بدر، حيث التقت فئتان الأولى مؤمنة والثانية كافرة، يرونهم مثليهم رأى العين، ولكن الله يؤيد بنصره من يشاء.

حشدت قريش الحشود العظيمة عددا وعدة، وجمع أمرهم مالك بن عوف سيد هوازن، وأمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم، وأبنائهم حتى يجد كل منهم ما يحبسه عن الفرار، وأجمعوا أمرهم على المضى إلى لقاء رسول الله ﴿ﷺ﴾..

فخرج الرسول ﴿ﷺ﴾ إليهم فى اثنى عشر ألفا من المسلمين.

يقول أبو سفيان بن الحارث:

خرجت مع رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولما رأيت جموع المشركين الكبيرة قلت: والله لأكفّرن اليوم عن كل ما سلف منى من عداوة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وليرين النبى ﴿ﷺ﴾ من أثرى ما يرضى الله ويرضيه.

فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين بعد أن دبّ فيهم الوهن والذعر والفشل فى صد الضربة المفاجئة من الكفار، مما جعل الناس يتفرقون بعيدا عن النبى ﴿ﷺ﴾، وكادت تحل بنا الهزيمة

المنكرة، فإذا بالرسول ﴿ﷺ﴾ فداه أبى وأمى يثبت فى قلب المعر على بغلته الشهباء كأنه الطود الراسخ.

وعندما رأيت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يجرد سيفه، ويجالد عن نفسه وعمن حوله كأنه الليث عاديا، عند ذلك وثبت من فرسى، وكسرت غمد سيفى، والله يعلم أننى أريد الموت دون رسول الله ﴿ﷺ﴾.

وأخذ عمى العباس بن عبد المطلب بلجام بغلة النبى ﴿ﷺ﴾ يمنعها من أن تسرع، وأخذت أنا مكانى من الجانب الآخر، وفى يمينى سيفى أذود به عن رسول الله ﴿ﷺ﴾، أما شمالى فكانت ممسكة بركابه.

فلما نظر الرسول الكريم ابن الكرام ﴿ﷺ﴾ إلى حسن بلائى قال لعمى العباس سائلا: من هذا؟

فقال عمى العباس: هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث، فارض عنه يا رسول الله.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ قولته المشهورة: «قد رضيت عنه، وغفر الله له كل عداوة عادانيها».

يقول أبو سفيان: فاستطار فؤادى فرحا برضا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عنى، وقبلت رجله فى الركاب.

ثم التفت إلىّ الرسول ﴿ﷺ﴾ وقال: «أخى لعمرى تقدم فضارب».

يقول أبو سفيان بعد أن اطمأن قلبه إلى رضى الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾ عليه، وأن ما صدر منه قبل إسلامه قد صار اليوم مجبوبا لا أثر له فى صحيفة عمره:

ألهبت كلمات الرسول ﴿ﷺ﴾ حماستي؛ فحملت على المشركين حملة أزالتهم عن مواضعهم، وحمل معي المسلمون بعد أن نادى عليهم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، حتى طردناهم قدر فرسخ، وفرقناهم في كل وجه.

أبو سفيان مادح لرسول الله ﴿ﷺ﴾:

ولما انجلى غبار حنين ظل أبو سفيان يعيد في ذاكرته كلمة الرسول ﴿ﷺ﴾ التي زادته شرفا وهي: «أخي».

سبحان اللّه الذي يُغَيِّر ولا يتغير..

يُغَيِّر من العداوة إلى المحبة..

ومن العدو إلى الأخ.

ولكن أي أخ؟

ومن الذي تجمعه به هذه الأخوة؟

إنه أخ في اللّه..

أخ في العقيدة..

أخ في الإسلام..

يضاف إليها علاقة القربى والرحم التي تجمع بين رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ وبين أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب!

إخوة تجمع بين أبي سفيان، وبين أشرف مخلوق في دنيا الوجود..

إنه لشرف سامق.. ومجد عال.. ووسام لا يناله إلا من صدق اللّه ورسوله..

إنها «أخي»!!!

لقد ظل أبو سفيان يردد هذه الكلمة التي ملكت عليه نفسه فحركت مشاعره.. وأثارت وجدانه.. فراح يغبط نفسه على ما أنعم الله عليه من هداية وإسلام وإخوة لرسول الله ﷺ فأنشد قائلا:

لقد علمت أفناء كعب وعامر غداة حنين حين عم التضعضع
بأني أخو الهيجاء أركب وحدها أمام رسول الله لا أتتعتع
رجاء ثواب الله والله راحم إليه تعالى كل أمر سيرجع

لقد ظل أبو سفيان بن الحارث منذ حنين ينعم برضى النبي ﷺ عليه، وعفوه عنه، ويسعد بكرم صحبته، ولكنه لم يرفع نظره إليه أبدا.. ولم يثبت بصره في وجه النبي ﷺ حياءً منه، وخجلا من ماضيه، وكأن إيمانه الصادق، وإسلامه الحق يوخزه، ويؤنبه على ما قدم من سب وتطاول، وهجاء لرسول الله ﷺ..

ولكن الإسلام من سمو تعاليمه، وسماحة أخلاقه لا يحفظ الشر القديم لمن أقلع عنه وتاب منه؛ ذلك لأنه دين يجب ما قبله..

أليس الإسلام قد جب ما صدر من عمر؟؟

بلى..

أليس الإسلام قد أزال من ذكراة الناس ما كان من خالد بن الوليد للرسول وللمسلمين ومن قبلهم الإسلام نفسه من عداوة وكره؟؟

إنهم بدخولهم في الإسلام قد ولدوا من جديد..

قلب الإسلام كبير لا يحمل الضغينة، ولكن يعفو ويغفر.

أبو سفيان بعد الإسلام:

لقد جعل أبو سفيان يعض بنانه ندما على الأيام السود الخوالي التي قضاها في الجاهلية شارعاً راية العداء للإسلام ولرسول الإسلام ﴿ﷺ﴾ محجوبا عن نور الله، محروما من هدايته وهداه، محروما من كتابه الكريم..

فأكب على القرآن الكريم، ليله ونهاره، يتلو آياته، ويتفقّه في أحكامه، ويستزيد من عظاته وآياته، ويفهم متشابهه ومحكمه، وناسخه ومنسوخه.

لقد أعرض عن الدنيا وزهرتها، وأقبل على اللّه تعالى بكل جوارحه، حتى أن رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ذات مرة يدخل المسجد فقال لعائشة -رضي الله عنها-: «أتدرين من هذا يا عائشة؟»

قالت: لا يا رسول اللّه.

قال: «إنه ابن عمي أبو سفيان بن الحارث، انظري إنه أول من يدخل المسجد، وآخر من يخرج منه، ولا يفارق بصره شراك نعله».

سبحانك يا اللّه!!

هذا هو وصف رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ لأبي سفيان «إنه ابن عمي».

نعم، إنه أصبح من أهل رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ معنى ومبنى، ظاهرا وباطنا، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه..

أصبح أول الناس سباقا ومسارعة إلى المسجد، ولحاقا بالعبادة، مقداما عند المواجهة، ولا يفارق بصره شراك نعليه.

إنه الحياء الذى ملك عليه أوتار نفسه.. الحياء الذى صار فى سمعه، وفى بصره، وفى عقله ولسانه، فصار سمعه لا يسمع إلا الآيات، وبصره يترجم ما يسمعه، وعقله يعقل به ما يتلو فكأنه صار الحياء نفسه.

لقد أقبل أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبى ﴿ﷺ﴾ على العبادة إقبال الظمآن إلى الماء، ولما انتقل النبى ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى حزن عليه أبو سفيان بن الحارث حزنا شديدا، ورثاه بقصيدة تفيض لوعة وشجونا، وتذوب حسرة وأنينا..

ولم لا؟

إنه الإيمان الذى ذاب فى وجدان أبى سفيان..

لقد تعلقت روح أبى سفيان بالموت.. لماذا؟

السبب يكمن فى الشوق إلى اللحاق برسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فقد عاش فى كنفه ومعيته الفترة التى عاشها النبى ﴿ﷺ﴾ بعد إسلام أبى سفيان، فهو يطمع باللحاق به؛ ليشرف بمعية النبى ﴿ﷺ﴾ فى الآخرة..

أليس الحبيب محمد ﴿ﷺ﴾ قال: «يحشر المرء مع من أحب».

أبو سفيان بعد وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾:

عاش سيدنا أبو سفيان بن الحارث فى خلافة أبى بكر الصديق -رضى اللّه عنه- فبايعه على السمع والطاعة، ولكنه -رضى اللّه عنه- عاش يتمنى الساعة التى يحمل فيها على رفارف العناية الإلهية؛ ليلحق بحبيبه المصطفى ﴿ﷺ﴾..

وينتقل أبو بكر -رضى الله عنه- إلى الرفيق الأعلى، ويتولى بعده عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- فبايعه أبو سفيان على السمع والطاعة أيضا كما بايع أبا بكر الصديق رضى الله عنهم جميعا.

نهاية رحلة:

ولكن فى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يشعر أبو سفيان بدنو أجله، وأن الأمنية التى طالما انتظرها أوشكت على التحقق، فهذه هى الساعة التى كان يتمناها -رضى الله عنه-..

إنها ساعة الرحيل من دار الفناء إلى دار البقاء..

من الشقاء إلى دار السعادة والهناء..

فيا حبذا الموت.. فهو الذى يقرب الحبيب من حبيبه: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

يشعر أبو سفيان بن الحارث بدنو أجله، واقتراب لقاء الحبيب.. بل الأحبة محمد وصحبه، فهم ليحفر لنفسه قبرا بيديه يكون مثواه الأخير، ولم يمض على ذلك سوى ثلاثة أيام حتى حضرته الوفاة، كأنه كان على موعد مع الموت..

سمع نداء الله فاستجاب قائلا: لبيك ربى..

والتفت إليه أهله وهم ملتفون من حوله، يبكون على فراقه، فقال لهم:

لا تبكوا على، فوالله ما تعلقت بخطيئة منذ أسلمت، ثم فاضت روحه إلى بارئها جل جلاله، فحزن عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كما حزن عليه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم

أجمعين، حيث جهز، وأنزلوه فى المكان الذى ارتضاه لنفسه، وحفره بيديه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بثلاثة أيام.

فسلام عليك -أبا سفيان- يا سيد فتيان الجنة.

سلام عليك -أبا سفيان- يا ابن عم رسول الله ﴿ﷺ﴾.

سلام عليك فى الخالدين..

مع الأبرار والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

سهيل بن عمرو

﴿رضي الله عنه﴾

﴿هو آمن بأمان الله فليظهر﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

سهيل بن عمرو
(رضي الله عنه)

نسبه:

من هو سهيل بن عمرو؟

إنه سؤال يجذب الأبصار، ويستدعى الشجون، ويشحذ الهمم والأفكار..

نعم من هو صاحب هذا المجلس؟

إنه سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر[1].

حياته:

وسهيل بن عمرو هو الشاعر الفذ المعروف لدى الملوك بشعره وفصاحته، فكثيرا ما تحدث إلى الملوك، وجلس معهم من أمثال كسرى وقيصر والنجاشي ملك الحبشة، وكان سهيل يقول الشعر فى أى شيء يعجبه ويعجب به..

وبجانب هذه الشاعرية الفذة أوتى سهيل ملكة الخطابة، وقوة الحجة والإبانة، فكان يقوم خطيبا فى قومه إذا ما رأى ظلما يقع على أى رجل غريب يأتي الحرم.

---

(١) سيرة ابن هشام.

كان سهيل بن عمرو كما نقلت كتب السير رجلا أعلم[1] من شفته السفلى.

ولكن يأتى دائما تساؤل يفرض نفسه عندما تتناول أية شخصية بالدراسة والتحليل، هذا التساؤل يقول:

كيف كان موقف سهيل بن عمرو من بعثة النبى ﴿ﷺ﴾؟

تحكى لنا سجلات التاريخ إن سهيلا كان يقف موقف المعارض تارة، والمجادل تارة أخرى، وثالثة يكون مهاج ومدع، فيقف خطيبا ضد محمد ﴿ﷺ﴾، معارضا وبشدة ما يسمعه من فم رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ الطاهر، وهو الذى لا ينطق عن الهوى قائلا:

يا محمد إن هذا الكلام لكلام رجل باليمن يقال له الرحمن...

لقد كوّن جبهة همها الأوحد معارضة كل ما يقوله الرسول ﴿ﷺ﴾ ليس من أجل التوصل إلى حق..

لا.. بل المعارضة لذات المعارضة..

والجدال لذات الجدال الذى لا فائدة فيه ولا مصلحة، سوى أنه يريد أن يقيم لنفسه وزنا، ولذاته كيانا..

ولكن على حساب مَن؟!

إن سهيلا لم يكتف بهذا، لكنه كان دائما يتحرش بالمسلمين، ويعمل جاهدا على إيذائهم، ويساعد فى تعذيبهم...

---

(١) الرجل الأعلم: الذى شقت شفته العليا.

حتى رسول الله ﴿ﷺ﴾ لم يسلم من لسانه، فقد هجاه واشتد في الهجاء غير معتبر بحرمة، ولا لكرامة، نعم إنه كان يحرض بقصائده كل قريش؛ ليعذبوا المستضعفين من المؤمنين والضعفاء منهم!

وتمضى الأيام، وتكر السنون، وتنقلب الأحوال، ولكن إلى أين؟؟

لقد جاء يوم الفرقان..

وتواجهت الفئتان..

فئة مؤمنة، وأخرى كافرة..

واستغاث خاتم المرسلين ﴿ﷺ﴾ برب العالمين..

وبدأت المناوشات حيث رجل شرس من بنى مخزوم، وهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى، أحس بمكيدة الماء، وظن أنه يستطيع أن يهدم على المؤمنين الحوض الذى بنوه؛ ليشرب المؤمنون ولا يشرب عدوهم.

فقال هذا الشرس:

«لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه».

فخرج إليه أسد الله حمزة بن عبد المطلب، فانقض عليه، فقطع بسيفه رجل هذا الشقى إلى نصف ساقه.

ولكن يا للعناد والكبرياء، ويا للصلف والغرور!

إن هذا المسكين لم يكتف بقطع نصف ساقه، بل إنه والحالة تلك يصمم على أن يبر بقسمه السابق: «لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه».

فأخذ يحبو ويحبو محاولا الوصول إلى الحوض. فيسارع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب إلى القضاء عليه بالسيف.

وفتح الله على المسلمين فتوح العارفين؛ لأن قائدهم هو السيد المعصوم ﷺ، وناصرهم هو الله تعالى، حيث أيدهم بجنود من عنده.

ناهيك عن حكمة القيادة، وروعة السياسة..

قيادة من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين..

فكان النصر لمن جعلوا من الله أكبر شعارا، فحقق المسلمون في بدر انتصارا أيما انتصار!

لقد أسر في هذه الغزوة سبعون رجلا من صناديد قريش، كما قتل منها سبعون كذلك.

ولكن ماذا سيصنع رسول الله ﷺ في هؤلاء الأسرى؟

إن ما سيفعله الرسول ﷺ في هذا الأمر هو نفس ما يفعله في كل أمر من أمور حياته كلها..

إنها الشورى الدستور المهيمن على كل جانب من جوانب حياته ﷺ.

فجمع ﷺ أصحابه؛ ليستشيرهم فيما يصنع بهؤلاء.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟».

بدأ يوجهها وبقوة عن ذى قبل إلى خدمة الإسلام، والدفاع عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾.

فالآن يعترف أن محمداً ﴿ﷺ﴾ رسول الله.

وبالأمس كان يرفض أن يتضمن العهد ما يشير إلى رسالة محمد ﴿ﷺ﴾..

كان يرفض هذه العبارة: «محمد رسول الله»..

والآن بدأ يجاهر ويفاخر أنه من أتباع رسول الله ﴿ﷺ﴾، والمؤمنين بمحمد ﴿ﷺ﴾ رسولا من عند الله.

بدأ يخدم الإسلام بسخاء، فينفق بلا حساب مخاطبا نفسه:

«هذا ما أدخره لنفسى، ما أكثر ما فاتنى من خيرات».

إن أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾ قد وصفوا سهيلا بن عمرو بالسهل السمح الجواد، كثير الصلاة والصدقة والصوم وقراءة القرآن، وشدة البكاء من خشية الله.

اللّهم يا مقلب القلوب ثبت اللّهم قلبنا على دينك..

نفقة كانت تنفق فى الإيذاء، تتحول؛ لتنفق فى سبيل الله..

معارضة للحق ومناصرة للباطل، تتحول إلى معارضة للباطل ومناصرة للحق..

صلف وكبرياء وغرور، يتحول إلى زهد وتواضع وخشية وعبادة ..

فسبحان من يغير ولا يتغير!!!

عهد وميثاق:

لقد أخذ سهيل على نفسه عهدا أمام حشد كبير من جماهير المسلمين فى الحرم قائلا :

«والله لا أدع موقفا مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت مع المسلمين ضعفها ؛ لعل أمرى أن يتلو بعضه بعضا» .

دعونا نشنف أسماعنا بمقالة سهيل بن عمرو بعد إسلامه فى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فماذا قال؟

«والله إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أحب إلىّ من زوجى، ومن نفسى، ومن الدنيا بأسرها» .

الرسول ﴿ﷺ﴾ يلتحق بالرفيق الأعلى:

يمرض الرسول ﴿ﷺ﴾ مرض الموت، ويمضى يوم إثر يوم حتى جاءت الساعة التى سُمع فيها الرسول ﴿ﷺ﴾ يردد :

«بل الرفيق الأعلى.. بل الرفيق الأعلى» .

وانتقل الرسول ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى.. فماذا حدث؟

عندما انتشر خبر وفاة رسول الله ﴿ﷺ﴾ هاجت الجزيرة، وماجت.. واضطربت الأمور وحدث الزلزال..

نعم إنه حدث زلزل المنافقين، وأظهر صدق المؤمنين، فمنهم من ارتد عن دينه، وانقلب على عقبيه، ورجع عن الإسلام..

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1].

انتشر الإسلام فى صحراء الجزيرة العربية، وعلم بأمره الكثيرون ولكن قريشا ظلت تعاديه، والحرم المكى تحت سلطانها، فكان لابد أن يعرف النبى ﴿ﷺ﴾ نية قريش تجاهه، وهو الذى ينوى أداء الحج، لقد أراد أن يعرف ما تنطوى عليه نياتهم ويتساءل:

هل يسهلون له أمر الدخول لأداء فريضة الحج، أم أنهم سيقفون له كحجر عثرة تحول بينه وبين ما يشتهى؟

لقد ذهب النبى ﴿ﷺ﴾ ليعتمر فى جمع غفير من أصحابه..

قوام هذا الجمع عشرة آلاف رجل.

فما كادت قريش تسمع بنية الرسول ﴿ﷺ﴾ فى دخول مكة إلا ويجتمع صناديدها مصممين على ألا يدخل مكة مسلم واحد فى هذا العام.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾:

«يا ويح قريش! لقد أكلتها الحرب، وماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى اللّه تعالى عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين».

علمت قريش بما قاله النبى ﴿ﷺ﴾ـ فراحت ترسل إليه الرسل، فيخبرهم ﴿ﷺ﴾ أنه لم يأت لقتال، وإنما جاء لأداء فريضة، وليعتمر وليزور البيت الحرام.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.

فأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفى ظنا منها أنه قادر على إثناء الرسول ﴿ﷺ﴾ عن عزمه، وإقناعه بالعودة إلى يثرب.

ولكن هل نجح عروة في مهمته؟

هل استطاع أن يحقق لقريش حلمها فى منع الرسول ﴿ﷺ﴾ من دخول مكة؟

تعالوا نسمع..

لقد رجع عروة بن مسعود الثقفى إلى قريش بما لم يكونوا يتوقعونه، وأسمعهم ما لا يحبون سماعه، فماذا قال لهم؟

لقد قال بأعلى صوته:

«يا معشر قريش: إنى قد جئت كسرى فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، وإننى واللّه ما رأيت ملكا قط يعظمه قومه كما يعظم أصحاب محمد محمدا، ولقد رأيت حوله قوما لن يسلموه لسوء أبدا، فانظروا رأيكم، وانظروا ماذا تفعلون»!!

إنها شهادة رائعة ورائعة ورائعة..

ولكن ممن صدرت؟

إنها صدرت من واحد منهم..

ممن يدين بدينهم..

والفضل كل الفضل ما شهدت به الأعداء.

عندئذ.. وبعد مشاورات اقتنعت قريش بأنه لا سبيل أمامها إلا أن تلجأ إلى المفاوضة والصلح.

قريش تختار سهيل مفاوضا:

فمن الذى تختاره لهذه المهمة، وقد سبق أن اختارت عروة، ولكنه لم يحقق لها أملا كانت تطمح فى تحقيقه؟

إذن ليس أمامها إلا «أبو جندل» سهيل بن عمرو

ذهب سهيل؛ ليفاوض الرسول ﴿ﷺ﴾ والمسلمين فى هذا الأمر..

فلم يكد سهيل يقترب حتى عرفه المسلمون، وأيقنوا أن قريشا آثرت طريق التفاهم والمصالحة.... .

حينئذ قال المصطفى ﴿ﷺ﴾:

«لقد سهل لكم من أمركم». '

سهيل وصلح الحديبية:

دنا المفاوض القادم من مجلس رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، حيث جلس سهيل بن عمرو بين يديه ﴿ﷺ﴾..

ثم دعا النبى ﴿ﷺ﴾ عليا بن أبى طالب -رضى اللّه عنه- ليكتب ما اتفق عليه الطرفان.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ لعلى بن أبى طالب:

اكتب «بسم اللّه الرحمن الرحيم».

فاعترض سهيل بن عمرو على تصدير الاتفاق بهذه العبارة التى لم تستجب لها مشاعره.

فالقلب ما زال مغلقا، والبصيرة ما زالت مطموسة.

فقال للمصطفى ﴿ﷺ﴾: لا أعرف ذلك ولكن اكتب باسمك اللّهم!!

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ لعلى:

اكتب يا على باسمك اللّهم. فكتبها.

ثم قال النبى ﴿ﷺ﴾: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه سهيل بن عمرو».

فقام سهيل معترضا، وقد انتفخت أوداجه، وكأن حية لدغته، أو نحلة لسعته قائلا:

لو شهدت أنك رسول اللّه ما قاتلتك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

يا سبحان اللّه!!!

ما سر هذه العداوة..

وما سر هذا الحقد..

وتلك الكراهية الظاهرة.

وما سبب هذا الاعتراض على أمور لا تقبل الاعتراض؟

إنه القلب الذى أعماه -ولو مؤقتا- كراهية محمد ﴿ﷺ﴾، لا لشخصه؛ فهو معروف بينهم بالصادق وبالأمين..

ولكن الحقد والكراهية لأن اللّه اصطفاه وحده دون غيره من أهل الوجاهة والغنى بشرف الرسالة والسفارة عن اللّه تعالى.

وهكذا بقى سهيل بن عمرو واقفا مكانه لا تزحزحه عجلة الزمان، ولا توجهه شراع الإيمان إلى الإسلام والنور.

لقد ظل مقتنعا لما يعتقده من خرافات الجاهلية، مدافعا عنها بكل ما أوتى من قوة، يذود عن آلهة قريش، ويقاتل من أجلها كل عزيز، ويخاصم من يعتدى عليها أو ينتهك حرمتها المزعومة!

يا رب.. أى عقول تلك التى تفكر بهذه الطريقة؟؟

أى عقول تلك التى تتخبط فى دياجير الظلام، وتستمطر الرحمات، وتستجلب البركات من حجارة صماء، لا قلب لها، ولا عقل ولا تفكير؟!!!!

ولكن الأحداث تتعاقب، والأيام تمضى، ويلعب القدر دورا عظيما، وتنقض قريش هذه المعاهدة، وذلك الصلح الذى وقع بين رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبين سهيل بن عمرو، والذى شهد عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه.

سهيل يتهيأ للدخول فى الإسلام:

لقد أزفت ساعة ترك العناد والكبر والكراهية، ودقت ساعة الحسنى، والعناية الربانية فى قلب سهيل بن عمرو، فخفق القلب، واقشعر الجلد، وتملكت الرعشة بدن سهيل.

ولكن متى كان هذا؟

إن هذا كان عندما خرج الرسول ﴿ﷺ﴾ لفتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها وميثاقها..

وكان نصر الله المبين..

وفتحت مكة..

وصعد الرسول ﷺ على الصفا قائلا:

«يا معشر قريش: ما تظنون أنى فاعل بكم؟».

إنه موقف الرجل الذى تبدل ضعفه إلى قوة بالإسلام، وقلته كثرة بالمؤمنين الصادقين..

أما قريش فكان أمرها على العكس..

كان موقفها ضعفا بعد قوة..

وقلة بعد كثرة..

وذل بعد عزة..

فى هذا الموقف نرى الرجل -أعنى سهيل بن عمرو- الذى كان يعارض كل ما فيه رائحة التوحيد..

الرجل الذى كان يساعد بكل قوة من كان يتفنن فى إيذاء المسلمين..

نراه يتقدم الصفوف ويبرز أمام الرسول ﷺ.

ولكن هل يا ترى فى هذه المرة معارضا متكبرا مغرورا كما كان من قبل؟

لا.. لا.. الموقف مختلف.

إنه فى هذه المرة يعلن الولاء والوفاء والطاعة، فينادى بأعلى صوته:

«أخ كريم وابن أخ كريم».

فتألقت ابتسامة من نور شفتى المصطفى ﷺ..

ما سر هذه الابتسامة؟

إنها ابتسامة تنم على اختلاف المواقف..

فبالأمس كان معارضا رافضا أن يسمع عبارة «محمد رسول اللّه»..

واليوم يقول: «أخ كريم وابن أخ كريم»؟؟

سبحانك يا مقلب القلوب!!!

فقال لهم المصطفى ﴿ﷺ﴾ وهو فى هذا الموقف الرهيب:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

إنه العفو العام الذى شمل كل من آذى الرسول ﴿ﷺ﴾ أو أحدا من أصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين.

نعم.. إنه «أخ كريم وابن أخ كريم»..

ليس من الآن، ولكن منذ أن أراد اللّه تعالى لهذا النور أن ينبلج فى جبين هذا العالم.

ولكننا نتساءل:

ما موقف سهيل بن عمرو بعد أن سمع من رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ هذه الكلمات المتلألئة فى صفحة الزمان؟

فلنسمعه يحكى ويقول:

اقتحمت بيتى، وأغلقت علىّ بابى، وأرسلت ابنى عبد اللّه؛ ليطلب لى جوارا من محمد ﴿ﷺ﴾..

فإننى لا آمن على نفسى من القتل.

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال:

يا رسول الله: أبى أتؤمنه؟[1].

فقال الرحمة المهداة من رب العالمين إلى الناس كافة ﴿ﷺ﴾:

«نعم.. هو آمن بأمان الله فليظهر».

ثم نظر النبى ﴿ﷺ﴾ إلى من حوله قائلا لهم:

«من لقى منكم سهيلا فلا يشد إليه النظر، فليخرج لعمرى، إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل بن عمرو وجهل الإسلام والقدر -أى ما كان يوضع فيه- إنه لم يكن له بنافع».

فما فعل سهيل بن عمرو بعد أن طرقت أذنيه تلك المقالة التى قالها فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾؟

لم يكن أمامه من خيار سوى أن يعلن إسلامه، فأسلم.

وهنا صاغ الإسلام سهيلا صياغة جديدة..

إنه مولود جديد..

فليدع ما كان منه سابقا..

وليبدأ الآن أولى خطواته فى رحاب هذا الدين الجديد..

فكل ملكة تمتع بها وسخرها فى إيذاء المسلمين بدأ الآن يولها شطرا آخر..

---

(١) تؤمنه: أى تعطيه الأمان فلا يقتل.

فقال أبو بكر الصديق حبيب رسول الله ﴿ﷺ﴾، وصهره الأمين، وساعده الأيمن وأمين سر هجرته:

إنهم قومك وأهلك، استبقهم؛ لعل الله يتوب عليهم، فتتخذ منهم أعوانا وأنصارا.

ولكن ما تقول يا عمر؟

يقول: يا رسول الله لقد أخرجوك وكذبوك فاضرب أعناقهم.

ولكن ما رأيك يا ابن رواحة؟

يقول: يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارا.

ثلاثة آراء متباينة، فبأيها يأخذ رسول الله ﴿ﷺ﴾؟

لقد مال رسول الله ﴿ﷺ﴾ إلى رأى أبى بكر -رضى الله عنه- فأخذ منهم الفداء وأطلق سراحهم..

ثم كان بعدها مباشرة عتاب الله تعالى لرسوله ﴿ﷺ﴾ بقول الحق: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

ولكن شاءت إرادة الله تعالى أن يكون من بين الذين عفا الله عنهم من حمل راية التوحيد..

ومنهم من كان يُعلّم الصحابة المسلمين، وقد كان منهم صاحبنا سهيل بن عمرو -رضى الله عنه-.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

بين عمر وسهيل:

إننى سأحكى هنا موقفا من مواقف عمر بن الخطاب الغيور على الإسلام وعلى رسول الله ﴿ﷺ﴾..

إنه لا ينسى ما قاله سهيل بن عمرو فى رسول الله ﴿ﷺ﴾ من هجاء وقدح، فلما مكنه الله تعالى من سهيل، اقترب عمر بن الخطاب من الرسول ﴿ﷺ﴾ فيهمس فى أذنيه قائلا:

يا رسول الله، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو؛ حتى لا يقوم عليك خطيبا بعد اليوم.

ولكن هل يوافق الرسول ﴿ﷺ﴾ على طلب عمر؟

إن الرسول ﴿ﷺ﴾ يبتسم قائلا:

«يا عمر.. لا أمثل بأحد فيمثل الله بى وإن كنت نبيا».

ثم أدنى الرسول ﴿ﷺ﴾ عمر منه قائلا:

«يا عمر.. لعل سهيلا يقف غدا موقفا يسرك».

إن هذه المقولة قد خرجت من فىِّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ وسهيل بعد لما يزل على دين قومه من الشرك.

ولعلنا نستطيع القول إن الرسول ﴿ﷺ﴾ قد أشار فى عبارته تلك إلى ما سيحدثه الله تعالى بعد ذلك وهو انشراح صدر سهيل بن عمرو إلى الإسلام..

ولكن متى؟

ومنهم من تمسك بدينه، واعتصم بقرآنه رغم هذا الزلزال، وهنا تتغير الطبائع..

فأبو بكر اللين الرقيق الهش البش يشتد ويعنف ويبدو في صورة صارمة لم يعهدها الناس فيه من قبل.. فيصرخ في الناس بأعلى صوته وهو في المدينة.. مثوى رسول الله.. في طيبة الطيبة:

«أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

فحسم أبو بكر بهذه الكلمات الواضحات الموقف، فثبت الناس على دين الله تعالى..

هذا في المدينة المنورة، ولكن ما الحال في بلد الله الحرام..

في مكة المكرمة؟

سهيل يحسم قضية وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾:

هنا يظهر دور سهيل بن عمرو.. ويبرز على الساحة، ويشارك أبا بكر الصديق الموقف والرأى والصرامة، فيقف بمكة المكرمة وسط حشد جامع من المسلمين يأسر ألبابهم، ويسيطر على عقولهم ببيانه الأخاذ، وعباراته الرصينة..

فيخبرهم أن محمدا رسول الله ﴿ﷺ﴾ لم يمت إلا بعد أن أدى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وكشف الغمة، ونصح الأمة، ثم أردف قائلا:

«إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه».

بهذه القوة، وبتلك الصرامة درأ سهيل الفتنة، وقضى على تلك الأزمة في مهدها، والتي كادت أن تقتلع الإيمان من قلوب بعض الناس كما اقتلعته في مناطق أخرى من الجزيرة العربية.

وهنا تصدق نبوءة رسول الله ﴿ﷺ﴾ عندما قال لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه-: «لعل سهيلا يقف موقفا يسرك».

نعم لقد وقف سهيل مواقف تسر المسلمين جميعا، فقد أخذ مكانه في جيوش المسلمين مقاتلا شجاعا، يمحو الفتنة في اليمامة في عهد الخليفة الأول لرسول الله ﴿ﷺ﴾، ويقضي على جيش مسيلمة الكذاب[1]، والرجال بن عنفوة أحد المرتدين عن دين الله تعالى، وكان أحد معاوني مسيلمة، كما أطفأ مع كتائب الحق نار الفرس التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى منذ أكثر من ألف عام[2].

ويدمدم مع كتائب المسلمين ظلمات الرومان وطغيانهم وظلمهم المستبد، وينشر الكلمة التي من أجلها خلق الله الوجود بأسره: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في شتى بقاع الأرض والآفاق..

كلمة حق:

هذا هو سهيل بن عمرو أحد عظماء المسلمين الذى مجدهم الإسلام، والذي قال عنه الإمام أبو الحسن البصرى يوما:

---

(١) هو مسيلمة الكذاب، من بني حنيفة، وكان دميم الوجه، ادعى النبوة؛ ولذلك لقب بالكذاب.

(٢) ابن كثير.

«حضر أناس باب عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وفيهم سهيل بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب، وبعض شيوخ قريش، فخرج آذنه؛ فجعل يأذن لأهل بدر من أمثال صهيب وبلال وعمار رضى الله تعالى عنهم أجمعين؛ حيث أصدر عمر أوامره ألا ينتظر واحد منهم عند وصوله تكريما لهم، وإظهارا لمكانتهم، فقال أبو سفيان بن حرب:

ما رأيت كاليوم قط!!

إنه يأذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا.

فقال سهيل بن عمرو:

أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، فقد دعى القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل فيما يرون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تنافسون عليه.

ثم قال: إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون ولا سبيل لكم -والله- إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد، فالزموه، عسى الله أن يرزقكم الجهاد والشهادة».

ثم نفض ثوبه فقام فلحق بالشام.

نعم.. لقد صدقت مقالة النبى ﴿ﷺ﴾ لعمر:

«لعل سهيلا يقف موقفا يسرك».

لقد سر عمر، وسر الصحابة، وسر كل مسلم صادق الإسلام، وسرنا نحن كذلك.

سهيل في الشام:

إن سهيلا يسمع من فم الرسول ﴿ﷺ﴾ مقالة، فوعاها، وألزم بها نفسه أيما إلزام، لقد سمع من فى رسول الله ﴿ﷺ﴾:

«مقام أحدكم فى سبيل الله ساعة من عمره خير له من عمله طوال عمره».

فنفض ثوبه -كما قلنا آنفا- فذهب إلى الشام؛ حيث ظل بها بقية حياته مرابطا، يكاد يطير من الفرحة إذا وجد الفرصة التى يبذل فيها حياته فى سبيل الله؛ حتى ينال مقام الشهادة والرفعة.

ويغيب البدر:

عندما دهم بلاد الشام طاعون «عمواس» بصورة لم يعرف الناس مثلها قط، فجعل من شدته يحصد الناس حصدا.

فما كان من سهيل بن عمرو إلا أن قال: «فإنما أرابط حتى أموت فى سبيل الله ولا أرجع مكة».

فظل فى الشام مرابطا رغم ما أصابها من هذا البلاء، مع أنه كان يحب مكة مسقط رأسه حبا يكاد ينسيه نفسه.

فلم يزل سهيل بن عمرو مقيما بالشام حتى جاء موعد رحيله، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فمات رضى الله عنه بمرض الطاعون بـ«عمواس».

فسلام عليك يا سهيل فى حياتك..

وسلام عليك يوم أمّنك الرسول ﴿ﷺ﴾ فأمنت، ثم أسلمت فصدقت وأحسنت..

وسلام عليك يوم تلبيتك لأمر ربك فانتقلت إلى الفردوس الأعلى.

عكرمة بن أبي جهل

﴿رضي الله عنه﴾

﴿سيأتيكم عكرمة مؤمنا مهاجرا﴾

﴿محمد بن عبد الله ﷺ﴾

عكرمة بن أبى جهل
(رضى الله عنه)

نسبه:

هو عكرمة بن أبى جهل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم[1]، كان عمره يقترب من الثلاثين يـوم بعث النبى (ﷺ)، وكان غرة فتيان قريش، وأوفاهم بهاء وشبابا.

حياته:

ولد فى النعمة، وغذى بها، وشب تحت خمائلها، كما كان أكرم قريش حسبا، وأكثرهم مالا، وأعزهم نسبا.

كان حريا به أن يسلم كما أسلم نظراؤه من قبل من أمثال سعد بن وهب الزهرى[2]، ومصعب بن عمير فتى قريش المدلل.. وغيرهما من أبناء العائلات المرموقة فى مكة.. لولا أبوه!

حيث كان والد عكرمة يلقب بجبار مكة الأكبر، وزعيم الشرك الأول، وهو الذى امتحن الله المؤمنين ببطشه فثبتوا، واختبر بكيده صدق الموقنين فصدقوا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إن والد صاحبنا وصديقنا وأخينا عكرمة هو أبو جهل الذى أمر الشقى «عقبة بن أبى معيط» أن يخنق رسول الله (ﷺ) بردائه، ثم

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) هو سعد بن أبى وقاص.

جذبه حتى وجب النبى ﴿ﷺ﴾ لركبتيه ساقطا عند المقام، لولا الله ثم أبو بكر الذى تصادف أنه كان مقبلا، فاشتد حتى أخذ بضبعى رسول الله ﴿ﷺ﴾ من ورائه وهو يقول:

«أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟».

فقال النبى ﴿ﷺ﴾:

«يا معشر قريش أما والذى نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» وأشار بيده إلى حلقه.

فقال أبو جهل: ما كنت جهولا.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: أنت منهم.

ولكن هل سيكون الابن أحسن حالا من أبيه؟

نقول -الآن-: لا وألف لا، وبعد الآن سنقول: نعم.

لقد وجد عكرمة بن أبى جهل نفسه مدفوعا -بحكم زعامة أبيه- إلى محاربة النبى الكريم ﴿ﷺ﴾ ومعاداته..

فعاداه أشد المعاداة، وآذى أصحابه أفدح الإيذاء، وصب على المسلمين من النكال ما قرت به عين أبيه.

أبو جهل يوم بدر:

ولما كان يوم الفرقان.. يوم بدر قاد أبوه جيش الشرك، وأقسم باللات والعزى ألا يعود إلى مكة، وأصر على المضى يدفعه الكبر والغرور والاستعلاء!

ولكن على أية صورة سيبقى؟

إنه سيبقى فى بدر -كما زعم- ثلاثا ينحر الجزر، ويطعم الطعام، ويسقى الخمر، وتعزف عليه وعلى أصحابه القيان حتى تسمع به العرب وبمسيرته وبجمعه، فلا يزالون يهابونه بعدها أبدا.

وعلى العاقل أن يتدبر هذه الكلمات التى صدرت من فىّ أبى جهل، إنه يصمم على شرب الخمر، وعلى أن تعزف عليه القيان..

فهل بعد هذا الكفر كفر؟ وهل بعد المجاهرة بالمعصية إثم؟

إذن فلننتظر كيف ستكون العاقبة؟

فى غزوة بدر عندما قاد أبو جهل المعركة.. معركة الباطل ضد الحق.. والكفر ضد الإيمان.. كان عكرمة عضده الذى يعتمد عليه، ويده التى يبطش بها.

ولكن أين الصنمان اللذان أقسم بهما أبو جهل فرعون هذه الأمة؟

أين اللات والعزى؟

هل سينصران أبا جهل؟

هل سيحميانه من طوفان المسلمين؟

هل يستطيعان أن يواجها جنودا مسومة منزلين، جند الله تعالى؟

إن الواقع يقول: لا وألف لا، بل لا إلى يوم القيامة.

الحقيقة المرة:

لقد دارت رحى المعركة، وحمى الوطيس، والتقت الفئتان..

فئة قليلة مؤمنة راضية بعدالة قضيتها، وسمو أهدافها، ورفعة الهدف الذى تقاتل من أجله، واثقة من نصر اللّه وتأييده..

﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[1].

التقى المسلمون بقيادة النبى ﴿ﷺ﴾ فى شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة..

فى شهر رمضان الكريم..

وما هى إلا جولة أو جولتان حتى انتهت المعركة..

وانجلت على حقيقة مرة على الكافرين..

ومفاجأة سعيدة للمؤمنين والمستضعفين الذين أوذوا فى اللّه ثم صبروا.

ما هى هذه الحقيقة؟

وما تلك المفاجأة؟

إن الفرعون المتكبر خر صريعا مدرجا فى دمائه يوم بدر..

لقد قُتِل أبو جهل عدو اللّه..

ولكن أين عكرمة بن أبى جهل من هذا المشهد؟

لقد رأى عكرمة أباه، وسيوف المسلمين تنهل من دمه..

وسمع عكرمة أباه وهو يطلق آخر صرخة انفرجت عنها شفتاه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

عاد عكرمة إلى مكة -شرفها الله وحماها- نقول عاد إلى مكة بعد أن خلف جثة زعيم الكفر والشرك في بدر..

فقد أعجزته الهزيمة من أن يظهر بهذه الجثة، أو أن يعود بها إلى مكة؛ ليدفنها هناك..

فأرغمه الفرار على تركها للمسلمين؛ فألقوها في القليب[1] مع العشرات من قتلى المشركين، وأهالوا عليها التراب.

إن القدر الإلهي ليحلو له أن يسخر ويستهزئ، فقد هزم الجبارون؛ لأنه لا جبار سوى رب العباد سبحانه وتعالى.

أبو جهل يقود نفسه إلى مصرعه:

ولكن بيد مَن؟

بيد شابين من شباب محمد اللذين في العقد الثاني من زهرة ربيع عمرهما، إنهما معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح.

لقد ترك قتل أبي جهل في بدر حقدا عظيما في نفس ولده عكرمة على الإسلام، بل على كل ما هو إسلامي..

فقد كان يعادي الإسلام لا لشيء في الإسلام، بل ولاءً لأبيه، وطاعة لأمره..

ولكنه أصبح يعادي الإسلام والمسلمين اليوم ثأرا لمقتل أبيه، إنه لن يهنأ له بال، ولن يرقأ له دمع إلا بعد أن يثأر لقتل أبيه.

---

(١) القليب: بئر ألقيت فيها جثث المشركين من قتلى بدر.

نار الثأر تتأجج في صدر عكرمة:

ومن هنا انبرى عكرمة، ونفر ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم فى بدر، من أمثال صفوان بن أمية، وعمير بن وهب، وأبو سفيان بن حرب يوقدون نار العداوة فى صدر المشركين على رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ويضرمون نار الثأر فى قلوب الموتورين[1]. من قريش حتى كانت واقعة أحد.

لقد خرج عكرمة بن أبى جهل إلى أحد، وأخرج معه زوجه أم حكيم؛ لتقف مع النسوة الموتورات فى بدر من أمثال هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب، وزوج أمية بن خلف والدة صفوان بن أمية، وزوج صفوان بن أمية.

والتقى المسلمون مع المشركين فى أحد فى ثانى مواجهة عسكرية بين الحق والباطل بعد بدر.

عكرمة في غزوة أحد:

التقى المسلمون بقيادة الرسول ﴿ﷺ﴾ مع جيش قريش المجيّش، والذى كان على ميمنته القائد الفذ المغوار خالد بن الوليد، ويومها كان ما يزال على دين قومه من الشرك.

ولكن هناك سؤال يفرض نفسه وبقوة، منطوق هذا السؤال يقول: من الذى كان على الميسرة؟

ميسرة جيش المشركين فى أحد..

---

(١) الموتور: من قتل له قتيل ولم يأخذ بثأره.

نقول : إنه عكرمة الذى قتل أبوه فى بدر ، وليس هذا الأب أى أب.

إنه قائد جبهة الكفر والحقد والكراهية للإسلام ولرسول الإسلام محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ ..

فقاتلوا بحرارة..

وهاجموا بشجاعة..

وخططوا بإحكام..

وانجلت الساحة..

وانفضت المعركة على أمر مرٍ على نفس كل مسلم..

انتهت بهزيمة المسلمين، وانتصار المشركين..

إن انتصار المشركين لم يكن لحب اللّه فيهم..

وهزيمة المسلمين لم تكن لغضب من اللّه عليهم..

ولكن لحكمة أرادها اللّه تعالى حدث ما حدث..

تلك الحكمة أوجزها رب العباد فى قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[١].

الأفراح تسود قريشا :

أما جانب المشركين فساحتهم مليئة بالأفراح ..

ووجوههم تعلوها علامات الرضا والسعادة ؛ مما جعل أبا سفيان بن حرب يشفى غليله مما أصابه بالأمس -أعنى يوم بدر- فقال :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠ .

«هذا بيوم بدر».

أما زوجه هند بنت عتبة فترجمت عن فرحتها، ونشوتها، وشفاء غليلها بهذه الأرجوزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه بكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى أزاح وحشى غليل صدرى

وانتهت المعركة، وامتطى المشركون إبلهم، وساقوا خيلهم قافلين[1] إلى مكة.

وفى يوم الخندق حاصر المشركون المدينة أياما طويلة، فنفد صبر عكرمة بن أبى جهل، وضاق ذرعا بالحصار.

فنظر إلى مكان ضيق من الخندق، وأقحم جواده فيه، فاجتازه، ثم اجتازه وراءه بضعة نفر فى مغامرة انتحارية ذهب ضحيتها عمرو بن عبد ود الذى قتله الإمام على بن أبى طالب -رضى الله عنه وأرضاه-، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة الذى قتله الزبير بن العوام بن خويلد، وأما عكرمة بن أبى جهل، وخالد بن الوليد فلم ينجهما من القتل إلا الفرار.

وفى يوم الفتح رأت قريش ألا قبل لها بمحمد ﴿ﷺ﴾ وأصحابه، فأزمعت على أن تخلى له السبيل إلى مكة، وقد أعانها على اتخاذ قرارها هذا ما عرفته من أن الرسول ﴿ﷺ﴾ أمر قواده ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم من أهل مكة.

---

(١) قافلين: عائدين.

ولكن عكرمة بن أبى جهل ونفرا معه خرجوا على إجماع قريش، وتصدوا للجيش الكبير، فهزمهم خالد بن الوليد الذى أسلم قبل الفتح بقليل، فقد قتل منهم الكثير، ولاذ بالفرار من أمكنه الفرار أمثال عكرمة وصفوان بن أمية بن خلف، فانطلقا خارجين إلى البحر، ولم يقبلا أن يقيما مع النبى ﴿ﷺ﴾ بمكة المكرمة أو تحت سلطانه.

الرسول ﴿ﷺ﴾ يهدر دم عكرمة:

عند ذلك أهدر الرسول ﴿ﷺ﴾ دماء بضعة نفر سماهم، وأمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

وكان من هؤلاء النفر عكرمة بن أبى جهل؛ لذا تسلل متخفيا من مكة، ويمم [1] وجهه شطر اليمن؛ إذ لم يكن منجى ولا ملجأ إلا هناك.

أم حكيم تعلن الولاء وتطلب العفو:

عند ذلك مضت أم حكيم زوج عكرمة بن أبى جهل، وهند بنت عتبة إلى منزل رسول الله ﴿ﷺ﴾، ومعهما عشر نسوة؛ ليبايعن النبى ﴿ﷺ﴾، فدخلت وعنده اثنتان من أزواجه وابنته السيدة فاطمة الزهراء -رضى الله عنها- ونساء من بنى عبد المطلب، فتكلمت هند وهى متنقبة، وقالت:

يارسول الله: الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، وإنى أسألك أن تمسنى رحمك بخير؛ فإنى امرأة مؤمنة مصدقة، ثم كشفت عن وجهها وقالت: هند بنت عتبة يا رسول الله.

---

(١) يمم: قصد.

فقال لها رسول الله ﴿ﷺ﴾ : مرحبا بك.

فقالت : والله يا رسول الله ما كان على وجه الأرض بيت أحب إلى أن يزل من بيتك، ولقد أصبحت وما على وجه الأرض بيت أحب إلى أن يعز من بيتك.

فقال لها رسول الله ﴿ﷺ﴾ :

«وزيادة أيضا».

ثم قامت أم حكيم زوج عكرمة بن أبى جهل، فأسلمت، وقالت يارسول الله : قد هرب عكرمة إلى اليمن خوفا من أن تقتله فأمنه أمنك الله.

فقال ﴿ﷺ﴾ : «هو آمن».

فخرجت أم حكيم زوج عكرمة فى طلبه، ومعها غلام لها، فلما أوغلا فى الطريق راودها الغلام عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حى من «عك»، فاستعانتهم عليه، فأوثقوه رباطا، وتركته عندهم، ومضت تغذ السير حتى أدركت عكرمة، وقد انتهى به الحال إلى ساحل من سواحل تهامة، فركب البحر، فجعل نوتى السفينة يقول له :

اخلص حتى انقلك.

فقال عكرمة :

وكيف أخلص؟

قال النوتى : قل «لا إله إلاالله محمد رسول الله».

فقال عكرمة : ما هربت إلا من هذا!!

أم حكيم تبشر عكرمة بعفو الرسول (ﷺ):

فجاءت أم حكيم على هذا الأمر، فجعلت تلح عليه، وتقول: يا ابن العم جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك.. فوقف لها حتى أدركته، فقالت:

إنى قد استأمنت لك رسول الله (ﷺ) فأمنك.

قال لها: أأنت فعلت ذلك؟

قالت: نعم أنا كلمته، فأمنك، وما زالت به تؤمنه، وتطمئنه، فرجع معها، ثم أخبرته ما كان من غلامها، فمر به عكرمة فى الطريق وقتله، وهو يومئذ لم يسلم بعد.

وفيما هما فى منزل نزلا به فى الطريق؛ أراد عكرمة أن يخلو بزوجته، فأبت أم حكيم أن تمكنه من نفسها أشد الإباء قائلة:

«إننى مسلمة وأنت مشرك».

فقال عكرمة متعجبا: إن أمرا منعك منى لأمر كبير..

فلما دنا من مكة المكرمة قال الرسول الكريم (ﷺ) لأصحابه:

«سيأتيكم عكرمة بن أبى جهل بن هشام مؤمنا مهاجرا، فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت».

حوار بين الرسول (ﷺ) وعكرمة:

وما هى إلا لحظات يسيرة حتى وصل عكرمة وزوجه أم حكيم إلى حيث يجلس رسول الله (ﷺ) وأصحابه، فلما رأى النبى (ﷺ)

عكرمة وثب إليه، وما على النبى ﴿ﷺ﴾ رداء؛ فرحا به وبمقدمه، ثم جلس رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فوقف عكرمة بين يدى رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ ومعه زوجته متنقبة، فقال عكرمة:

يا محمد إن أم حكيم أخبرتنى أنك أمنتنى.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: صدقت فأنت آمن.

فقال عكرمة: فإلام تدعو يا محمد؟

فقال النبى ﴿ﷺ﴾: أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا اللّه، وأنى رسول اللّه.

وأن تقيم الصلاة..

وتؤتى الزكاة..

وتصوم رمضان..

وأن تحج البيت إن استطعت إليه سبيلا..

وتفعل وتفعل..

وأخذ يعدد رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ خصال الإسلام.

فقال عكرمة: واللّه ما دعوت إلا إلى الحق، وأمر حسن جميل، وما أمرت إلا بخير، قد كنت واللّه فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً، وأبرنا برا..

ثم قال عكرمة: فإنى أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أنك عبده ورسوله.

فسر بذلك رسول اللّه ﴿ﷺ﴾.

ثم قال -أى عكرمة- : علمنى خير شيء أقوله.

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ :

تقول : «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله».

فقال عكرمة : ثم ماذا؟

فقال النبى ﴿ﷺ﴾ تقول :

«أشهد الله، وأشهد من حضر أنى مسلم مجاهد مهاجر».

فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ :

«لا تسألنى اليوم شيئا أعطيه أحدا إلا أعطيتك إياه».

قال عكرمة : فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها، أو مسير أوضعتك فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته فى وجهك أو أنت غائب عنه.

فقال الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ :

«اللّهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، واغفر له ما نال منى من عرضى فى وجهى أو أنا غائب عنه».

فتهلل وجه عكرمة بشراً، وقال : رضيت يارسول الله..

ثم أردف وقال : أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها فى صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها فى سبيل الله، ولا قتالا كنت أقاتل فى صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه فى سبيل الله.

فرد رسول الله ﴿ﷺ﴾ امرأته أم حكيم بالنكاح الأول.

المولود الجديد

ومنذ ذلك اليوم أصبح عكرمة بن أبى جهل -رضى اللّه عنه- من أعظم فرسان الإسلام، فانضم إلى موكب الدعوة فارساً باسلاً فى ساحات القتال، عباداً، قوّاماً، قرّاءً لكتاب اللّه تعالى فى المساجد، وفى بيته، تعينه فى كل ذلك زوجته أم حكيم رضى اللّه عنها.

فقد كان -رضى اللّه عنه- يضع كلمات اللّه على وجهه وهو يقول:

كتاب ربى.. كلام ربى.. وهو يبكى وينتحب من خشية اللّه سبحانه وتعالى.

وكثيرا ما شاهده أصحابه وهو على تلك الحالة فيقولون له:

يا صاحب رسول اللّه ﴿ﷺ﴾: لقد غفر اللّه لك، ورضى عنك رسوله ﴿ﷺ﴾ فإلام كل ذلك البكاء؟!!

فيقول لهم عكرمة: لقد كان لى مع ربى سابقة.

ولقد برّ عكرمة بما بايع عليه الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾، وبرهان ذلك أنه ما خاض المسلمون معركة بعد إسلامه إلا كان أول فرسان اللّه، ولا خرج المسلمون فى بعث إلا كان فى طليعتهم.

مقاتل يبحث عن الشهادة:

وجاء اليوم الذى يبحث عنه عكرمة بن أبى جهل -رضى اللّه عنه- جاء يوم اليرموك..

وفى هذا اليوم أقبل عكرمة على القتال إقبال الظامئ على الماء فى اليوم القائظ[1].

---

(١) القائظ: شديد الحرارة.

ولما اشتد الكرب على المسلمين لم يكن يبحث عن النصر بقدر ما كان يبحث عن الشهادة.

وحين حمى القتال بين الروم والمؤمنين راح عكرمة -رضى اللّه عنه- يضرب، ويضرب..

ثم ينزل عن جواده، ويكسر غمد سيفه بعد أن رأى مشاعر الفزع تراود بعض أفئدة المسلمين..

فاعتلى ربوة هنالك ثم صاح فى إخوانه قائلا:

أيها الناس: عضوا على أضراسكم، واضربوا فى عدوكم، وامضوا قدما.

وأوغل عكرمة -رضى اللّه عنه- فى صفوف الروم، عند ذلك بادر إليه سيدنا خالد بن الوليد قائلا:

لا تفعل يا عكرمة.. فإن قتلك سيكون شديدا على المسلمين.

فقال عكرمة: إليك عنى يا خالد.. فلقد كان لك مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ سابقة، أما أنا وأبى فقد كنا من أشد الناس على رسول اللّه ﴿ﷺ﴾، فدعنى أكفر عما سلف منى.

ثم أردف يقول: والذى نفس عكرمة بيده لقد قاتلت رسول اللّه ﴿ﷺ﴾ فى مواطن كثيرة، وأفر من الروم اليوم؟ إن هذا لن يكون أبدا.

يا معشر المسلمين:

ما هكذا كنا نتقاتل مع رسول اللّه ﴿ﷺ﴾..

بئس ما عودتم أعداءكم من الجرأة عليكم، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم.

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:

اللّهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك[1]، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء[2]، ثم هب هبة الأسد الضارى وقال:

من يبايع على الموت؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور فى أربعمائة من المسلمين، فقاتلوا دون فسطاط [3] خالد بن الوليد -رضى اللّه عنه- أشد القتال، وذادوا عنه أشد الذود.

الإيثار الرائع:

ولما انجلت موقعة اليرموك عن انتصار المسلمين الساحق كان يرقد على أرض اليرموك ثلاثة من فرسان المجاهدين فى سبيل اللّه أثخنتهم الجراح.

إن الفرسان الثلاثة هم: عكرمة بن أبى جهل، والحارث بن هشام عم عكرمة، وعياش بن أبى ربيعة رضوان اللّه عليهم أجمعين.

فدعا الحارث بماء ليشربه، ودمه يسيل على أرض الكرامة والشهامة والعزة والفخر، فلما قدم له الماء نظر إليه عكرمة.

فقال الحارث:

ادفعوه إلى عكرمة، لعله يكون أشد منى حاجة إلى الماء، فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش بن ربيعة.

---

(١) هؤلاء من الشرك: يعنى بهم الروم.
(٢) يصنع هؤلاء: يعنى المسلمين الذين جبنوا وتخاذلوا
(٣) الفسطاط: بيت من الشعر كان لقيادة الجيش.

فقال عكرمة:

ادفعوه إلى عياش فلعله يكون أكثر مني حاجة لهذا الماء، فلما دنوا من عياش بن أبي ربيعة وجدوه قد فارق الحياة، ولحق برب العالمين.

ولما عادوا به إلى الحارث وجدوه قد قضى نحبه، وكأنه على موعد مع من سبقوه إلى الدار الآخرة من الصحابة والشهداء.

وما أن وصلوا عكرمة حتى وجدوه هو الآخر قد لبى نداء ربه.

وكأني بهم وقد آثر كل واحد منهم حاجة صاحبه على حاجته..

وحرص على أن يروى ظمأ أخيه قبل أن يرتوى هو..

كأني بهم وهم كذلك على موعد بلقاء على حوض النبى ﴿ﷺ﴾؛ ليرتوا منه جميعا بلا ظمأ..

لأنه لا يشرب منه إلا أهل الله ومحبته الذين سبقت لهم منه الحسنى..

فكان لهم مقعد صدق عند الملك المقتدر سبحانه وتعالى..

وصدق الله تعالى حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

فقد شربت أنفسهم وأرواحهم وقلوبهم وجوارحهم هذا الشراب الإيماني..

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠١-١٠٣.

شرابا خالصا طاهرا..

إنهم أحبوا لقاء الله، فأحب الله تعالى لقاءهم.

فعقدوا صفقة إيمانية مع الله..

باعوا أنفسهم وكان المقابل لهذا البيع والثمن الرابح الجنة..

فنعم المشترى.. ونعم البائع..

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

لقد استشهد الثلاثة فرحلوا عن الدنيا الفانية إلى دار الخلد والإقامة.

رحلوا ولسان حالهم يقول.. وأرواحهم تردد:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩ - ١٧٠.

حكيم بن حزام

﴿رضي الله عنه﴾

﴿ اللّهم بارك له في صفقة يده ﴾

﴿ محمد بن عبد الله ﷺ ﴾

حكيم بن حزام
(رضي الله عنه)

نسبه:

هو حكيم بن حزام بن خويلد ، عمته السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى (ﷺ)، وأولى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعا ، التى نزل فيها قول الله تعالى : ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾[1].

فهو إذن ابن أخيها حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، وعبد العزى هذا هو أخو عبد مناف أحد أجداد النبى (ﷺ)، فأبوهما قصى بن كلاب، وعلى هذا فيلتقى حكيم بن حزام فى الجد الرابع لرسول الله (ﷺ)[2].

ولكن قد يسأل البعض مَن خويلد هذا؟

خويلد هذا هو الذى قاد الناس يوم حرب الفجار، وكان فى بيته الأصل والعدد ..

فهو جد حكيم، ووالد السيدة خديجة أم المؤمنين، وهالة أم أبى العاص بن الربيع صهر النبى (ﷺ)، ورقيقة أم أميمة بنت بجاد بن عمير من بنى تميم بن مرة، والعوامل بن حل، ونوفل بن خويلد أسد قريش.

فأى شرف بعد هذا الشرف؟ وأى نسب بعد هذا النسب؟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى.

حياته:

وللميلاد هذا الصحابى قصة عجيبة، وسر غريب، فقد ولدته أمه داخل الكعبة المشرفة، وكانت يومئذ مفتوحة لمناسبة من مناسبات قريش الشهيرة، فدخلت أم هذا المولود مع طائفة من أترابها إلى جوف الكعبة؛ لتنظر وترى ما بداخلها، وكانت أم حكيم آنذاك حاملا فيه..

وبينما هى بداخل الكعبة ترى وتشاهد مثل أترابها .. إذا بآلام المخاض تغلبها، وألم الولادة يعتصرها..

جذبت الحالة أعين وأنظار الحاضرين، فانصرفوا عما هم فيه، وانشغلوا بأم حكيم التى لم تستطع مغادرة الكعبة من شدة ما تجد من آلام المخاض، فسارعوا بإحضار قطعة من الجلد استلقت عليها؛ لتضع مولودها داخل أشرف بقعة وأطهر مكان..

فولد حكيما داخل جوف الكعبة، وكان مولده قبل ميلاد النبى ﴿ﷺ﴾ بخمس سنين.

يا لها من عناية إلهية.. وحكمة ربانية أظلت هذا المولود بهذا الشرف العظيم..

شرف مولد حكيم داخل الكعبة المشرفة، فهل هناك بقعة أطهر من تلك التى استقبلت ميلاد حكيم؟

لا وألف لا.

لقد نشأ حكيم بن حزام بن خويلد فى أسرة عريقة النسب والحسب، عريضة الجاه والمال، واسعة فى الثراء والغنى. فأثرت تلك النشأة فيه؛ فكان مبسوط اليد فى العطاء بصورة لم يصل إليها إلا القليل..

ومع ذلك الغنى كان راجح العقل، له دراية ورأى.. حكيم النفس، لا يتكلم إلا إذا دعى إلى الكلام.

وقد كان -رضى الله عنه- دائم البشر، دائب الحركة، ومن رجاحة عقله، وسعة فكره، ورحابه عقله أنه دخل دار الندوة، وأصبح عنصراً من عناصر رجالها المعدودين وهو فى سن مبكرة..

ابن خمس عشرة ربيعا، حيث كان لا يقبل فى دار الندوة إلا من بلغ الأربعين، فقبوله فى هذه السن دليل على ما كان يمتاز به هذا الفتى من رجاحة العقل، وسداد الرأى، وسلامة التفكير بصورة جعلت أبا سفيان بن حرب بن أمية يغبط حكيم بن حزام على المكانة السامقة التى وصل إليها.

ولقد كان لحكيم بن حزام قوافل تجوب الجزيرة العربية داخلها وخارجها إلى بلاد الشام وبلاد فارس وغيرها من البلدان التى وطأت أقدام هذه القوافل ثراها، وكانت هذه القوافل تعود عليه بالربح الوفير، والمال الكثير.

ولكن أين كان ينفق هذا المال؟ هل كان ينفقه على الخمر وعلى المعازف والقيان ومجالس اللّهو؟

حاشا للّه أن يقع مثل هذا من مولود ولد فى أشرف بقعة وأطهر مكان!!

إنه كان ينفق ماله على الفقراء من أهل مكة، والضعفاء، والضيوف، يبتغى بذلك البركة فى المال، والمحبة، وتأليف القلوب.

صداقة ومحبة:

ولكن كيف كانت علاقة حكيم بن حزام بمحمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ قبل أن يتوج بشرف النبوة والرسالة؟

يحدثنا التاريخ أنه -حكيم بن حزام- كان صديقا وفيا لرسول الله ﴿ﷺ﴾ قبل البعثة، وكان دائما يأنس برسول الله ﴿ﷺ﴾، ويحب مجالسته، ويتحدث إليه.. لما يراه فيه من صفات جميلة، وأخلاق حميدة، ومكارم جمة.. وكان النبي ﴿ﷺ﴾ يبادله نفس الشعور إن لم يكن يزيد .. إذ أنهما يلتقيان في النسب، وأي نسب؟

ثم جاءت المصاهرة التي وثقت تلك العلاقة، وقوت هذه الصلة حين تزوج النبي ﴿ﷺ﴾ من عمته السيدة خديجة بنت خويلد، أولى الزوجات في حياة النبي ﴿ﷺ﴾، والتي أحبها ابن أخيها حبا جما، وكان يتردد عليها في بيتها يشاركها الرأي والعمل..

وقد تأثرت السيدة خديجة بنت خويلد بحكيم ابن أخيها، فكان مثلها الأعلى في التجارة والغنى، فكل منهما يؤمن أن عز العرب في التجارة، فكان حكيم لايدع سوقا بمكة أو تهامة إلا حضرها، ومن أشهر أسواق تهامة التي كان يحرص على حضورها سوق حباشة.

كانت السيدة خديجة بنت خويلد تذهب إلى بيت ابن أخيها حكيم بن حزام لزيارته ومودته، فرأت عنده ذات مرة صبيا صغيرا، فسألت عنه حكيم ابن حزام.. فقال لها: هذا غلام اشتريته من سوق عكاظ، ورأى حكيم برجاحة عقله، ونور فكره أن عمته ترغب في أخذه منه.

فما أن انتهت العمة من الحديث، واستأذنت لكي تذهب إلى بيتها حتى أمر حكيم بن حزام الغلام أن يستعد للذهاب مع العمة، فقد وهبه لعمته.

ولكن من هذا الغلام السعيد الذى سيذهب مع السيدة خديجة؛ ليتربى في بيت النبوة بين أعظم زوجين.. بين محمد ﷺ وخديجة؟

إن هذا الغلام هو سيدنا زيد بن حارثة رضى الله عنه.. حب رسول الله ﷺ.. الذى شرف بأن اسمه سجل فى الدستور الخالد.. سجل في القرآن الكريم.. فما من مسلم يتلو، أو يطالع سورة الأحزاب بالأمس واليوم والغد إلا ويقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1].

ولقد أهدته السيدة خديجة إلى رسول الله ﷺ، فنعم المهدى، ونعم المهدى إليه، ونعم الهدية:

حكيم وقصة دخوله فى الإسلام:

ورغم هذه العلاقة الوثيقة بين حكيم بن حزام وبين عمته السيدة خديجة وبين سيدنا رسول الله ﷺ إلا أنه لم يسلم إلا يوم فتح مكة.

فقد دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، فأبى ورفض، وها هى السيدة خديجة أم المؤمنين تعيد عليه الدعوة، وهو الذى ما كان ليعصى لها أمرا، ولا يخالف لها رأيا. وتحاول أن تستلين قلبه ليستنير بنور الإسلام، فتذكر له أسماء الذين اهتدوا إلى الطريق المستقيم؛ وفى

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

مقدمتهم أصدقاؤه أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وغيرهم كثير.

ولكنه خالفها الأمر والرأى، ولم يطع لها فى ذلك أمرا.

لقد كان من المتوقع من رجل مثل حكيم بن حزام قد ميزه الله عن سائر أترابه بذلك العقل الراجح المستنير، ويسر له تلك القرابة القوية بالنبى ﴿ﷺ﴾ أن يكون أول المؤمنين به، المصدقين بدعوته، المهتدين بهديه، ولكننا نقول: كل أمر إنما يسير وفق مراد الله، فالهداية إلى الإسلام لم يحن الآن وقتها!

فكل شىء عند الله بأوان ومقدار ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

ففى ذلك الوقت الذى عرضت السيدة خديجة، ومن قبلها الرسول محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ الإسلام على حكيم كان لا يمر يوم على الدعوة إلى الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ إلا ويدخل فيها مسلمون جدد من مختلف الطبقات.

من السادة والعبيد، من النساء والرجال، من الشيوخ والصبيان.

ولم يقتصر أمر الدخول فى الإسلام على الأفراد، بل إن بعض القبائل بدأت تفكر فى الدخول فى هذه الدعوة الجديدة، ولكن الحقد والكراهية ملأت قلوب قريش لما رأوه من انتشار هذه الدعوة ودخول العظماء فيها من أمثال أبى بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعلى بن أبى طالب، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيد الله وغيرهم.

---

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

لما اجتمعوا وتناقشوا ووحدوا رأيهم واتفقوا على مقاطعة النبي ﴿ﷺ﴾ وأصحابه. فلا يباع لهم، ولا يشترى منهم، وأرادوا أن يوثقوا ما اتفقوا عليه فكتبوا صحيفة ذكروا فيها ما اجتمعوا عليه، وكان الذى كتبها هو النضر بن الحارث.

المقاطعة ودور حكيم:

وقد كان لحكيم بن حزام دور لا ينسى فى هذه المقاطعة، حيث إن الرجولة والولاء يدعوانه إلى غير ما فعله الآخرون تماما.

فقد كان حكيم بن حزام كل يومين، أو ثلاثة يحمل الطعام إلى عمته السيدة خديجة زوج الرسول ﴿ﷺ﴾، حيث لم يقاطعها كما اتفقت قريش، وفى ذات مرة أخذ حكيم بن حزام غلامه يحمل قمحا على عاتقه؛ ليذهب به إلى عمته السيدة خديجة، فرآه أبو جهل بن هشام، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ واللات والعزى لن تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة كلها.

ولم يكن هذا الموقف من أبى جهل إلا من باب الحقد والغل الذى وقع فى قلبه لما رآه من كرم حكيم وأخلاقه الرفيعة على أهله وعشيرته، فأبى عدو الله أن يخلى سبيل حكيم بن حزام، فتشاجرا وتلاعنا، ونال كل من صاحبه، ولم يكن لأبى جهل أن يعامل إلا بالضرب، فأخذ أبو البخترى لحى بعير، فضربه، وشجه، ووطأه وطأ شديدا، وأخذ منه الطعام دون رضا، وهكذا كان يلقى كل من كان يحمل الأطعمة إلى من ضربت عليهم المقاطعة.

ولكن ما موقف المنصفين من أهل مكة مما جرى؟!

لقد تحدثت كل بيوت مكة بما وقع بين حكيم بن حزام وأبي جهل بن هشام، فراح القوم يتأسون ويقتدون بما فعله حكيم مع عمته السيدة خديجة رضى الله عنها وبنى هاشم، وعابوا على من لم يفعل مثله، بل واتهموهم بالضعف والبعد عن النخوة والرجولة، فأخذتهم الحمية والشهامة، ففكر قوم من قريش وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب في حل لهذه المقاطعة اللعينة، وكأنه ندم على ما اتخذه من قرار وقطيعة، فلام نفسه وتمنى لو فعل مثل ما فعل حكيم بن حزام من ولاء وكرم لعشيرته وعمته.

وبدأ الإسلام يشتد ساعده، ويقوى بنيانه، ويعلو شأوه، وأشرقت الأرض بنور ربها، وجاءت غزوة بدر الكبرى، وبعثت قريش بعمير بن وهب الجمحي «شيطان قريش» عينا لها، فرجع بعد أن حصر جيش المسلمين، فقال مخاطبا الجيش وهو على أهبة الاستعداد:

«يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت النافع، قوم ليس لهم منعة، ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك.. فروا رأيكم».

سمع حكيم بن حزام ذلك القول، ومشى في الناس، فذهب إلى عتبة بن ربيعة فقال له:

يا أبا الوليد: إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها، هل إلى أمر لا تزال تذكر فيه بخير إلى آخر الدهر؟

قال عتبة: وما ذاك يا حكيم؟

قال حكيم:

ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمى.

قال عتبة: قد أشرت أنت على بذلك، إنما هو حليفى فعلى عقله.

وكاد عتبة يرجع بالجيش لولا عدو الله أبو جهل.

هذا الموقف الذى وقفه حكيم بن حزام، ولم يكن قد أسلم بعد، إنما يدل على أن العناية الإلهية تلحق به، وها هى ساعة الهداية تقترب، ونور الإيمان ينبلج فى الأفق، وسحائب الكفر والجهالة تأخذ فى الانقشاع..

وأراد الله سبحانه وتعالى بحكيم بن حزام الخير كله.

وجاء يوم الفتح الأكبر..

يوم الفتح الأعظم..

يوم فتح مكة المكرمة..

ففى الليلة التى سبقت فتح مكة المكرمة قال سيدنا رسول الله ﴿ﷺ﴾: «إن بمكة لأربعة نفر أربأ بهم عن الشرك وأرغب لهم فى الإسلام».

فقيل: ومن هم يا رسول الله؟

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: «عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو».

فليلة الفتح هي الليلة المباركة التي تنزلت فيها الرحمات الربانية، والعطايا الإلهية على حكيم بن حزام بن خويلد، إذ لم تكن الأنباء قد وصلت قريشا بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرا عظيما بسبب فشل أبي سفيان فيما جاء به من المدينة، فأرسلوا حكيم بن حزام؛ لرجاحة عقله وحكمته ورأيه السديد، وكذلك أرسلوا معه أبا سفيان بن حرب، وبديل بن ورقاء؛ ليلتمسوا الخبر من رسول الله ﴿ﷺ﴾، فأقبلوا يسيرون حتى اقتربوا ودنوا من مكان يسمى: «مر الظهران»، فإذا هم بنيران عظيمة، فبينما هم يتساءلون فيما بينهم عن هذه النيران، إذ رآهم أناس من حرس رسول الله ﴿ﷺ﴾، فألقى القبض عليهم، وأمسكوهم، وأتوا بهم إلى الرسول ﴿ﷺ﴾.

حينئذ الأنوار قد أشرقت، والفيوضات قد هبت، وتحققت نبوءة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ويظهر الله تعالى أمرا عظيما خفيا، فنظر رسول الله إلى ﴿ﷺ﴾ حكيم، وبديل بن ورقاء نظرة محمدية، كما نظر إلى سيدنا عمر بن الخطاب مثلها قبل ذلك..

ولكن من لمحة تقع الصلحة!

فامتلأ قلب حكيم وبديل نورا، وسر فؤادهما بما رأيا من نور إلهي في الرسول ﴿ﷺ﴾.

ألم نقل إنها سابقة الحسنى؟

إن العناية الإلهية لا مفر منها، لكن أبا سفيان بن حرب قد تأخر إسلامه حتى بعد أن احتجزه العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وكتيبته.

وسام على صدر حكيم:

دخل رسول الله ﴿ﷺ﴾ صباح ذلك اليوم مكة فاتحا هو وأصحابه الكرام، وأراد أن يكرم حكيم بن حزام لمواقفه مع المسلمين في أزماتهم، فأمر مناديا ينادى:

«من شهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة فوضع سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن».

وكانت دار حكيم فى أسفل مكة، ودار أبى سفيان فى أعلاها، ولكن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يريد الأمن والأمان لكل من يسكن مكة، سواء كان فى أعلاها أو فى أسفلها.

العفو العام:

إن الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ يريد أن يظهر لأهل مكة عظمة هذا الدين الحنيف.. فهو دين جاء لإسعادهم.. وليس فيه إلا الخير لهم.. فيسألهم وهم الذين آذوه وتفننوا فى تعذيبه هو وأصحابه البررة فيقول لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟

ولكنهم يعلمون حسن أخلاقه الحميدة فيقولون: أخ كريم وابن أخ كريم.

فيقول لهم رسول الله ﴿ﷺ﴾:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ودخل حكيم بن حزام مسلما موحدا، وقد خرج حكيم من مكة المكرمة على غير ملة الإسلام، ولكنه دخل في الإيمان مستكملا أركانه وقواعده، كأنه لبس لباسا من التقوى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

حكيم يكفر عما كان منه:

وتوج بتاج من الإحسان، وسما في مقامات القرب والأنس بالله ورسوله، وأخذ على نفسه العهد أن يكفر عن كل موقف وقفه في جاهليته، أو نفقة أنفقها في عداوة المسلمين، أو قاتل مرغما مجبورا.

ومن هنا بدأت حياة حكيم بن حزام في التغير والترقي..

فلقد رآه ابنه بعد إسلامه يبكي وينتحب انتحابا، فقال: ما يبكيك يا أبتاه؟

فقال حكيم: أمور كثيرة كلها أبكتني..

أولها بطء إسلامي مما جعلني أسبق إلى مواطن كثيرة صالحة حتى لو أنني أنفقت ملء الأرض ذهبا لما بلغت شيئا منها..

ثم إن الله نجاني يوم بدر وأحد، فقلت في نفسي: لا أنصر بعد ذلك قريشا على رسول الله ﷺ، ولا أخرج من مكة..

فما لبثت أن جررت إلى نصرة قريش جرا، ثم إنني كنت كلما هممت بالإسلام نظرت إلى بقايا من رجالات قريش، لهم أسنان وأقدار متمسكين بما هو من أمر الجاهلية، فاقتدى بهم، وأجاريهم، ويا ليت أني لم أفعل.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

فما أهلكنا يا بنى إلا الاقتداء بآبائنا وكبرائنا، فلم لا أبكى يا بنى؟

فبدأ سيدنا حكيم بن حزام يحقق عهده الذى عاهد الله عليه، ويبر فى قسمه، فقد كانت دار الندوة التى يجتمع فيها كبراء قريش لمحاربة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى ملكه، وهى دار عريقة ذات تاريخ عربى أصيل، ففيها كانت قريش تعقد مؤتمراتها فى الجاهلية والإسلام، ولكن حكيم بن حزام عقد العزم على أن يتخلص منها، فباعها بمائة ألف درهم؛ ليسدل ستارا على ذلك الماضى البغيض.

فقال له قائل من فتيان قريش: لقد بعت مكرمة قريش يا عم.

فقال له حكيم:

هيهات هيهات يابنى!! ذهبت المكارم كلها، ولم يبق إلا التقوى، وإنى ما بعتها إلا لأشترى بثمنها بيتا فى الجنة، وإنى أشهدكم أننى قد جعلت ثمنها فى سبيل الله عز وجل.

مواقف نبيلة:

وقد كان لحكيم بن حزام مواقف جميلة مع الرسول ﴿ﷺ﴾، فقد بعثه الرسول ﴿ﷺ﴾؛ ليشترى له أضحية بدينار، فاشتراها حكيم ثم باعها بدينارين، فاشترى شاة بدينار، وجاء إلى النبى ﴿ﷺ﴾ بدينار فدعا له الرسول ﴿ﷺ﴾ بالبركة، وقال: «اللّهم بارك له فى صفقة يده»، وأمره بأن يتصدق بالدينار، فقد علّم النبى ﴿ﷺ﴾ حكيم بن حزام درسا إسلاميا فى العطاء، فقد كان أمر الرسول ﴿ﷺ﴾ لحكيم أن يتصدق بالدينار أمرا شغل كيان حكيم وعقله، فوهب حياته وتجارته للزكاة، ولذا قال عنه أصحابه: ما كان بالمدينة أحد سمعنا به كان

أكثر حملا فى سبيل الله من حكيم بن حزام رضى الله عنه، فلقد قدم أعرابيان إلى المدينة يسألان من يحمل فى سبيل الله؟

فدُلا على حكيم بن حزام، فأتياه فى أهله، فسألهما ما يريدان؟ فأخبراه بما يريدان.

فقال لهما: لا تعجلا حتى أخرج إليكما، وكان حكيم يلبس ثيابا يؤتى بها من مصر كأنها الشباك، ثمنها أربعة دراهم، ويأخذ عصا فى يده، ويخرج معه غلامان له، وكلما مروا بكناسة أو قمامة فرأى فيها خرقة تصلح فى جهاز الإبل التى يحمل عليها فى سبيل الله أخذها بطرف عصاه فنفضها، ثم قال لغلاميه: أمسكا بسلعتكما فى جهازكما، فقال الأعرابيان أحدهما لصاحبه وهو يصنع ذلك: ويحك، انج بنا فوالله ما عند هذا إلا لقط القشع[1].

فقال له صاحبه:

ويحك! لاتعجل حتى ننظر، فخرج بهما إلى السوق، فنظر إلى ناقتين خلفتين[2] سمينتين، فابتاعهما، وابتاع جهازهما، ثم قال حكيم بن حزام لغلاميه: رما[3] بهذه الخرق ما ينبغى له المرمة من جهازكما، ثم أوقرهما طعاما وبرا وودكا، وأعطاهما نفقة ثم أعطاهما الناقتين.

قال أحدهما لصاحبه:

«والله ما رأيت من لاقط قشع خيرا من هذا الرجل».

(١) الجلود اليابسة.
(٢) الخلفة: الناقة الحامل.
(٣) رمّ: أصلح.

حكيم يحج ويعتق:

حج حكيم بن حزام بعد إسلامه، فساق أمامه مائة ناقة مجللة بالأثواب الزاهية، ثم نحرها جميعا تقربا إلى الله عز وجل..

وفى حجة أخرى وقف فى عرفات ومعه مائة من عبيده، وقد وضع في عنق كل عبد منهم طوقا من الفضة نقش عليه بخط واضح: «عتقاء لله عز وجل عن حكيم بن حزام بن خويلد»، ثم أعتقهم جميعا..

وفى حجة ثالثة ساق أمامه ألف شاة، وأراق دمها كلها في منى وأطعم بلحومها فقراء المسلمين تقربا لله عز وجل.

وجاء يوم حنين، وانتصر المسلمون انتصارا لا مثيل له، بعد أن أيدهم الله تعالى بجنود من عنده، وكتب لهم النصر والثبات، وبدأ رسول الله (ﷺ) بتقسيم الغنائم، وخص أناسا من قريش أطلق عليهم «المؤلفة قلوبهم» بعطايا كثيرة، كان منهم حكيم بن حزام..

قال سعيد بن المسيب:

أعطى النبى (ﷺ) حكيما يوم حنين عطاء، فاستقله، فزاده، فقال: يا رسول الله أى عطيتك خير؟

فقال رسول الله (ﷺ): الأولى.

ثم قال النبى (ﷺ) يا حكيم بن حزام:

«إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس، وحسن أكله بورك له فيه، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكله لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».

قال حكيم بن حزام : ومنك يارسول الله .

قال النبى ﴿ﷺ﴾ : ومنى .

قال حكيم : فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ[1] أحدا بعدك شيئا أبدا .

فهذه هى بصيرة المؤمن وكياسته، فقد رأى سيدنا حكيم بن حزام أن عطاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ هذا له لم يكن عطاء ماديا فحسب، ولكنه عطاء مادى ومعنوى فى آن واحد .

ألم يقل النبى : «وإنما أنا قاسم، والله عز وجل يعطى» ..

فالعطاء يتنزل على الرسول ﴿ﷺ﴾، وهو القاسم لهذا الفضل وهذه المنح الإلهية، فكيف يتسنى له أن يسأل عطاء بعد هذه العطية المحمدية؟ أو كيف يسأل غير الله عز وجل؟

لذلك لما انتقل النبى ﴿ﷺ﴾ إلى الرفيق الأعلى، وتولى سيدنا أبو بكر الخلافة، بايعه حكيم بن حزام على السمع والطاعة، ولكن إذا دعا سيدنا أبوبكر حكيم بن حزام ليأخذ عطاءه[2] من بيت المال يأبى ويرفض أن يأخذه ..

ولما انتقل سيدنا أبو بكر الصديق إلى الرفيق الأعلى، وآلت الخلافة إلى سيدنا عمر بن الخطاب دعا حكيم؛ ليأخذ عطاءه وحقه من بيت المال، فأبى، ورفض أن يأخذ منه شيئا ، فقام عمر بن الخطاب فى الناس

---

(١) أرزأ : أسأل.

(٢) عطاؤه : راتبه من بيت المال.

خطيبا، وقال: أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم بن حزام، أنى أعرض عليه حقه الذى قسم اللّه من الفيء فيأبى أن يأخذه..

وظل حكيم بن حزام لم يسأل أحدا بعد رسول اللّه (ﷺ) أبدا وفاء لعهده مع الرسول الكريم (ﷺ)، حتى أنه كان إذا ركب ناقته ووقع منه شيء على الأرض لم يأخذه. وظل على هذا العهد حتى لحق بالرفيق الأعلى.

أهناك تحية نوجهها لسيدنا حكيم بن حزام فى ختام حديثنا عن حياته أروع وأجزل من كلام سيد البشر المعصوم والرحمة المهداة للعالمين عندما قال:

«من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن» فرحمه اللّه رحمة واسعة.

فهـــرس

